المسلمون فى الأندلس

الجزء الثانى

اسبانيا الإسلامية

تأليف
رينهرت دوزى

ترجمة وتعليق وتقديم
د. حسن حبشى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

HISTOIRE

DES

MUSULMANS D'ESPAGNE

JUSQU'À LA CONQUETE DE L'ANDALOUSIE PAR LES ALMORAVIDES

(711—1110)

PAR

R. DOZY

NOUVELLE EDITION REVUE ET MISE À JOUR

PAR

E. LÉVI-PROVENÇAL

TOME II

LIBRAIRIE ET IMPRIMERIE
CI-DEVANT E. J. BRILL S.A.
LEYDE — 1932

مقـــدمة الجزء الثانى

هذا هو الجزء الثاني من الترجمة العربية لتاريخ المســـلمين فى الأندلس لدوزى ، نقدمه شاكرين الله تعالى على ما لقيه سابقه من الاقبال ، راجين أن نتبعه بالثالث الذى يكمل به تاريخ الأندلس منذ الفتح الاسلامى حتى دخول المرابطين ، والذى سيتضمن كشافات تعين القارىء على العثور على ما ينشده ، كما سنزوده بملاحق تاريخية خاصة بهذه الفترة وقوائم بالأماكن والأعلام بالرسمين العربى والأفرنجى والمصادر التى رجع المؤلف ورجعنا اليها ·

ولقد كانت التفاتة طيبة من القوامين على ندوة (*) « الأندلس : الدرس والتاريخ » التى أقامتها كلية آداب جامعة اسكندرية بالتعاون مع رابطة الجامعات الاسلامية أن تكرم ذكرى « دوزى » بين من كرمتهم من العلماء والباحثين من الشرق والغرب ممن أسهموا فى مجال التاريخ الأندلسى ·

والله الموفق

القاهرة فى العشرين من ذى القعدة ١٤١٤ هـ — أ· د· حسن حبشى
أول مايو ١٩٩٤ م

(*) اقيمت هذه الندوة بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة الاسكندرية فى الفترة من ١٣ حتى ١٥ ابريل ١٩٩٤ (= ٢ ـ ٤ من ذى القعدة ١٤١٤هـ) · وكان مؤلف هذا الكتاب ومترجمه ممن كرمتهم الندوة ·

الفصل الأول

حركات المقاومة بالشرق في القرن الثالث الهجرى . ظهور عبد الله بن ميمون ودعواه الباطلة . الطابع السرى للحركات فى اليمن والمغرب . الفاطميون والأندلس ودعوة ابن مسرة . مملكة ليون وحركة « بلاى » التمردية . ثورة أهل جليقية . ادعاء أحمد بن معاوية الأموى المهدية . تجنيده البربر لمحاربة الليونيين . مقاومة ذلول بن يعيش له .

الفصل الأول

لقد أبدت الحكومة الاسلامية في الشرق من جانبها روح التسامح الدينى نحو أهل البلاد المسالمين من أتباع الديانات القديمة الذين لم يهددوا قط سلامة الدولة ، الا أنها لم تكن تستطيع أن تتهاون أبدا ازاء المسلمين الذين تظاهروا بالايمان بينما ظلت قلوبهم غلفا فى الوثنية والذين بذلوا قصارى جهدهم خفية لتغيير وجهة الاسلام وذلك بتطعيمه بعقائدهم الخاصة ٠

لقد كان الدافع الدنيوى هو الدافع الحقيقى الكامن فى نفوس المتظاهرين بالاسلام فى فارس وفى اسبانيا أيضا ، وكان عددهم عظيما ، والأغلب أن هؤلاء المنافقين كانوا من الرجال المتقلبين وأكثر القوم جشعا فى المجتمع ٠ ولما كانت الطبقة العربية المتنفذة قد أخذتهم أخذا عنيفا أنى ثقفتهم فقد تاقوا لبعث قوميتهم الفارسية واحياء الامبراطورية الايرانية (١) فلا عجب ان لم تتوان الحكومة فى استعمال الشدة الضارية معهم حتى ان الخليفة المهدى [العباسى] عمد فى كبح جماحهم الى انشاء ديوان (٢) عرف بديوان الزندقة ظل قائما حتى أواخر أيام هرون الرشيد٠

ولما كان الضغط يولد الانفجار ، والاضطهاد يؤدى الى الثورة فقد قام فى « أذربيجان » رجل اسمه « بابك » تزعم طائفة « الخرمية » أو « الفسقة » (٣) كما سماهم خصومهم ٠ وانقضت عشرون سنة من ٨١٧ حتى ٨٣٧ م (= ٢٠٢ ـ ٢٢٣ هـ) ظل خلالها « ابن حفصون » الفارسى هذا ينزل الهزائم الساحقة بجيوش الخليفة التى كان يبعثها الأخير اليه ، ولم تفلح هذه الكتائب المجيشة فى القبض عليه الا بعد أن أفنى من رجالها مائتين وخمسين ألفا (٤) ٠

بيد أنه كان هناك ما هو أشد خطرا من اخماد الثورات المسلحة وأعنى به محاولة كشف الطوائف السرية ، كما انتشرت فى الخفاء العقائد الفارسية القديمة والأفكار الفلسفية التى تبزها خطورة ، وقد أسفر هذا

الصراع بين الديانات والملل المختلفة عن قيام جمهور كبير في الشرق نبذ هذا كله زعما منه أن « الأديان انما هي للعامة وحدهم » (٥) ٠

في أحضـــان هذه الجماعة السرية ، وفي مســتهل القرن التاسع للميلاد ، خرج باعث طائفة الاســماعيلية « عبد الله بن ميمون » (٦) الذى كان من أسرة فارسية مانوية العقيـدة تزعم وجود الهين أحـدهما للنور والآخر للظلمة ٠

كان « عبد الله بن ميمون » هذا ابن قداح ذكى الفؤاد ، ولما كان يتجنب الوقوع تحت شبهات ديوان الزندقة الذى راح ضحيته سبعون من أصدقائه فقد لاذ ببيت المقدس حيث أخـذ ينشر فى الخفاء العلوم والآراء الهدامة،فى الوقت الذى كان يتظاهر فيه بالعطف البالغ على الشيعة ويتغالى فى تعظيمها ٠ ولم يقتصر شأنه ــ تحت توجيه أبيه له ــ على أن يكون داعية حاذقا فحسب ولا قداحا بارعا فى طب العيون فقط بل أصبح كذلك ذا المام تام بالعقائد الدينية والمبادىء الفلسفية ، فحاول فى بداية الأمر أن يحمل الناس على اعتباره نبيا اعتمادا منه على مواهبه ، لكنه فشل فى هذ التجربة ، ومن ثم أخذ يمهد الطريق شيئا فشيئا لتدبير مشروع أعظم اتساعا وأجل خطرا (٧) ٠

وكانت الفكرة المختمرة فى ذهن « ابن ميمون » ترمى الى تأليف جماعة سرية تضم اليها جموع الغالبين والمغلوبين على السواء ليعملوا يدا واحدة ، وجعل أعضاءها مرتبين على درجات فى الاطلاع على أسرارها ، ففيها المفكرون الأحرار الذين لا يرون فى الدين الا غـلا فى الأعنـاق ، وفيها المتمسكون بدياناتهم من جميع الملل ، وكان هدفه من وراء ذلك يتمثل فى اتخاذ هؤلاء الأتقياء وسيلة للسيطرة على المتشككين واستغلال أولئك الفاتحين فى قلب وضع الامبراطورية التى أقاموا دعائمها ، كما استهدف من وراء ذلك أن يؤلف فى النهاية من هؤلاء وهؤلاء جماعة واحدة ضخمة تمتثل لأمره وتدين بالطاعة له ، وتستطيع فى الوقت الملائم أن تنقل العرش الى أبنائه من بعده ان لم يكن له هو نفسه فى حياته ٠ ولا مشاحة فى أن هذه فكرة خطيرة تنطوى على جرأة بالغة وتتطلب همة جبـارة واقداما لا مثيل له ، ودراية عميقة بما جبلت عليه الطبيعـة البشرية ٠

انطوت الوسائل التى عمد اليها ابن ميمون على مكر شيطانى ، فهو فى ظاهر أمره «اسماعيلى» ٠ وكان الانقراض مقدرا لهذه الطائفة نظرا لحاجتها الى زعيم ينفث فيها حياة جديدة ، فجاءها ابن ميمون ووعدها بالزعيم المنتظر وقال (٨) : « لم تكن الدنيا ولن تكون بلا امام ، كائنا من كان هذا الامام ٠ قد كانت الامامة فى أبيه وجده وفيمن قبلهما حتى

تنحدر الى آدم ، كذلك فان ابن الامام امام وحفيده أيضا ، وهكذا حتى ينتهي العالم ، ولا يقبض الامام حتى يولد له ولد تؤول الامامة اليه من بعد أبيه ، غير أنه لا يتم ظهور الامام على الدوام ، فقد يظهر أحيانا ويختفي أخرى وهكذا دواليك كما يتعاقب الجديدان . ومتى كان الامام ظاهرا استترت دعواه فان اختفى ظهرت ، وحينذاك يظهر دعاته بين الناس » .

وتمكينا لهذه العقيدة في النفـوس نرى « عبد الله بن ميمون » يقتبس آيات من القرآن الكريم وساعدته هذه الفكرة على ايقاظ آمال الاسماعيلية الذين أخذوا بفكرة الامام المخفى ، وانه سوف يظهر أخيرا فيدبر أمر العالم ويملأه عدلا . وعلى أية حال فان عبد الله هذا كان يحتقر في قرارة نفســه هذه الطائفــة ، وما كان تظاهره بالدعوة الى آل علي [بن أبي طالب] الا وسيلة لتحقيق مآربه . واذ كان هو فارسيا في صميمه فقد كان يضمر البغض للعرب جميعا ، غير مستثن منهم أحدا حتى عليا أبناؤه .

لم يخطيء عبد الله بن ميمون فيما دبر ، ومن ثم أشار على أتباعه الخلص بألا تأخـذهم هـــوادة في قتل كل من يقــع في أيـديهم من أولاد علي (٩) .

ولم يحاول أن يستخلص أتباعه الأوفياء من بين رجال الشيعة بل أخذ يفتش عنهم بين الزرادشتيين والمانويين ووثنيي حران وبين عشاق الفلسفة اليونانية (١٠) الذين كان جل اعتماده عليهم ، وأفضى اليهم — دون سواهم . بكلمة السر الأخيرة ، وذكر لهم أن ليس الأئمة والديانات والأخلاق غير ادعاء كاذب ووهم باطل ، أما غير هؤلاء الرجال أو « الحمير » — كما كان يسميهم — فلم تكن لهم في رأيه القدرة على استيعاب هذه المبادىء وأمثالها . ومع ذلك فانه لم يحقر من شأن هذه الجماعة بغية الوصول الى هدفه المنشود بل سار على العكس من ذلك اذ نراه يجد كل الجد في الحصول على مساعدتها وتأييدها له ، الا أنه أخذ حذره واحتاط فلم يطلع المدنيين والأتقياء الا على المبادىء الأولية للطائفة.أما دعاته الذين وقر في نفوسهم أن واجبهم الأول هو اخفاء أغراضهم الحقيقية والامتثال لما يلقى اليهم امتثالا تاما فكانوا قرابة ألف جماعة يختلف بعضهم عن بعض ، وقد أمرهم أن يخاطبوا كل فرد على قدر عقله ، فسيطر هؤلاء على الطغـــام والجهلة بما كانوا يلقونه اليهم من خزعبــلات ينزلونها من أنفسهم منزلة المعجزات ، أو من معميات تثير الدهشة والفضول ، فاذا كانوا مع الأتقياء طلعوا عليهم بمسوح الورع والتقوى ، وبذلك لبسوا لكل حال لبوسها ، فهم صوفيون مع المتصوفة يفسرون لهم المعاني الخفية للأمور الظاهرة وكذلك الرموز والمعاني الرمزية،مستغلين في ذلك ما ابتلى به

هذا الجيل من النكبات ، موشين لأبنائه الآمال الفضفاضة بمقدم عصر أزهى تتنفس فيه الصعداء جميع الطوائف ، ووعدوا المسلمين بقرب ظهور « المهدى » الذى تنبأ به الرسول [عليه الصلاة والسلام] ، ووعدوا اليهود بالمسيح المنتظر ، والنصارى بمعزيهم ٠ ثم وجدوا أنفسهم فى حاجة الى معونة العرب من أهل السنة الذين كان من العسير ضمهم الى صفوفهم لكنهم شعروا بحاجتهم الملحة اليهم كي يجدوا لهم ملجأ وملاذا يدرأ عنهم الشبهات ويصد عنهم عادية السلطة الحاكمة ومطاردتها اياهم ، كما كانوا يريدون استغلال ثرواتهم الضخمة فى تحقيق مآربهم ، ومن ثم أخذ هؤلاء الدعاة فى اثارة كبرياء العـرب القومى زاعمين لهم أن جنسـهم هو أصل جميع الفضائل الدنيوية ، وأن الفرس ما خلقوا الا لكى يكونوا عبيدا لهم ، وتظاهروا أمامهم بازدرائهم المال ، وأظهروا الرحمة البالغة كسبا لثقتهم التى ما كادوا يحصلون عليها حتى أخذوا يضيقون الخناق عليهم وجعلوهم فى موطىء النعال ، ثم أخذوا بعد ذلك يلقون الى العرب أن من واجبهم اعانة الطائفة بهباتهم المالية والتنازل عن ممتلكاتهم لها (١١) ٠

بهذه الوسيلة أصبح كثير من الجماعات المختلفة تعمل معا فى عمل لا تعرف مرماه الا شرذمة ضئيلون،وأخذ هذا المشروع فى السير قدما الى الأمام لكن فى خطى بطيئة ، واذ ذاك أدرك عبد الله أنه لن يتأتى له أن يشاهد بنفسه ثمرة عمله فعهد الى ابنه أحمد – الذى خلفه فى الزعامة – باقتفاء أثره ومتابعة العمل ، واستطاعت الجماعة أن تمضى للأمام فى خطى سراع تحت لـواء أحمد ومن جاء بعده ، ويرجع الفضـل فى ذلك على الخصوص الى انضمام كثير من رجال الشيعة الأخرى اليه ، وكان هذا الفرع – كما قلنا من قبل – يجعل الامامة فى أبنـاء موسى ولد جعفر الصادق ، بيد أنه لما كان الامام الثانى عشر محمد قد اختفى وهو فى الثانية عشرة من عمره فى سرداب [بسامراء] دخله هو وأمه عام ٨٧٩ م (= ٢٦٦ هـ) ، ولما كان أتباعه وهم الاثنا عشرية (١٢) – كما يسمون – قد طال انتظارهم رجوعه بلا جدوى فلم يكن من العسير عليهم الانضمام الى صفوف الاسماعيلية الذين أسعدتهم الظروف بأن كان يرأسهم زعيم على قيد الحياة وعلى أتم أهبة لاظهار نفسه حينما تؤذن الظروف بذلك ٠

ولما كان عام ٨٤٤ م (= ٢٧١ هـ) قام أحد دعاة الاسماعيلية واسمه ابن حوشب [وكان من قبل اثنى عشريا] ودعى جهارا فى اليمن فدانت له صنعاء وأوفد دعاته الى جل أقاليم البلاد فذهب اثنان منهم ليحرثا – على حد قول الشيعة – أرض كتامة واقليم قسنطينة ، ولما مات بعث ابن حوشب أحد تلاميذه ويدعى عبد الله (١٣) ٠

كان أبو عبد الله [المحتسب] رجلا نشيطا مقداما مالكا لأعنـة الفصاحة ، وعلى جانب كبير من الخبث والدهاء مكنه من السيطرة على

عقول البربر ، فكان خير من يقوم بأداء المهمة التى نيطت به على الرغم من أنه لم يكن يعرف الا المبادىء الأولية للطائفة ، حتى ان دعاته أنفسهم لم يكونوا يدركون فى بعض الأحيان الهدف المنشود من هذا العمل (١٤) ٠

بدأ عبد الله مهمته بتعليم أبناء كتامة محاولا اكتساب ثقة مضيفيه ، حتى اذا وثق من نجاح مشروعه طرح القناع من على وجهه وسمى نفسه بالشيعى ، وبشر بالمهدى المنتظر ، ووعد أهل كتامة بخير الدنيا والآخرة اذا هم اشتركوا فى الجهاد ، وسرعان ما أذعنوا فى غير عسر له واجتذبهم ذلك الداعية الى صفه بما كان يلقيه اليهم من كلام خفى المعانى ، كما يسر له مهمته أيضا الأسلاب التى غنموها ، وكانت كتامة من أكثر القبائل رجالا وأقواها بأسا ، واستطاعت المحافظة على استقلالها القديم والروح الحربية التى انطبع عليها أبناؤها ، ومن ثم كان نجاحهم يمشى فى خطى سراع الى الأمام ، حتى انهم بعد استيلائهم على آخر مدينة كانت فى حوزة الأمير الأغلبى الذى حكمت أسرته البلاد أكثر من قرن أكرهوه على الفرار من محل اقامته بصورة عجز معها عن استصحاب امرأته معه ، وحينذاك قام عبد الله فأجلس على العرش سنة ٩٠٩ م (= ٢٩٨ هـ) سعيدا المهدى زعيم الطائفة وهو من نسل عبد الله القداح ، فزعم أنه من ذرية على وتسمى باسم عبد الله المهدى (١٥) ، ولما أصبح خليفة فانه ــ وهو واضع دعائم الأسرة الفاطمية ــ أخذ يعنى بنشر مبادىء هذا المذهب ، ولربما كان يكون أكثر صراحة أمام الناس لو أنه أحرز انتصاره هذا فى قطر آخر كفارس مثلا ، لكنه لما كان يدين بعرشه الى فئة نصف همجية وليس لها ادراك للمعانى الفلسفية فقد اضطره ذلك الى الاشتداد على نفسه وعلى أعضاء الطائفة المتقدمين الذين أظهروا التشريق (١٦) ٠ كذلك لم يصرح علانية بمقصد الطائفة الحقيقى الى أن كان مستهل القرن الحادى عشر الميلادى حين ثبتت قوة الفاطميين وأصبحت مدعمة الأساس لا يخشى عليها فأفصح عما كان خافيا وكذلك حين أصبح فى مقدورهم ــ بفضل جيوشهم الجرارة وأموالهم الكثيرة ــ من السير قدما غير مكترثين كثيرا بحق الوراثة الشرعى (١٧) ٠

لم تكن الاسماعيلية فى بداية الأمر تفترق عن الطوائف الأخرى الا بتعصبها وفظاظتها ، فكان رجالها يجلدون أئمة الدين والفقهاء ويقتلونهم صلبا لتوقيرهم ذكرى الخلفاء الثلاثة الأوائل (١٨) أو لجهلهم الصيغة الشيعية أو لاصدار فتاويهم وفق المذهب المالكى وذاق المسلمون منهم كل وبال ونكال ، وكان أكبر ما يخشاه المتزوج أن يقع عندهم تحت طائلة القصاص بعدهم اياه كافرا اذ يرغمونه على مشاهدة زوجته وهى تغتصب فى حضرته ويصفع على قفاه ويبصق فى وجهه ٠

وقد حاول عبيد الله ــ والحق يقال ــ كبح جماح جنده لكنه لم يبلغ

ما أراده منهم ، أما شيعته الذين يقال انهم لم يكونوا يريدون رئيسا محجوبا فقد ألهوا زعيمهم عن رضا وطيب خاطر بما يتفق وآراء الفرس الذين كانوا يزعمون تجسد الروح الالهى فى شخص الحاكم ، لكنهم فعلوا ذلك على أن يسمح لهم بممارسة كل ما يريدون ، وهيهات أن يرى من ضريب لما ارتكبه أولئك القساة فى البلدان المفتوحة من الفظائع ، فقد حدث فى برقة أن قطع قائدهم أوصال بعض سكانها وجعلها شواء ثم أرغم البعض على أكل هذا اللحم المضهب ، ولما فرغ من ذلك ألقى بهؤلاء الأخيرين الى النار فأوقع فى أيدى الافريقيين البؤساء الذين أخلدوا الى السكون التام ولم يكن أملهم فى النجاة يتجاوز القبر حتى لقد كتب أحد معاصريهم (١٩) يقول : « وهذا دليل على هوان الدنيا على الله وصغر قدرها عنده ، اذ مكن فيها لهؤلاء الكفرة الفجار أن يسوموا أولياء الله سوء العذاب والمعاد القيامة ، والحاكم الله » .

★ ★ ★

كان اعتزاز الفاطميين بالحاكم العالمى جاعلا اياهم مصدر خطر على جميع الممالك الاسلامية عامة والأندلس خاصة ، ذلك أنهم كانوا يتوقون منذ زمن بعيد لأن تكون لهم السيطرة على هذه البقاع الجميلة الثرية ، ثم أصبح عبيد الله مالكا لدولة الأغالبة تقريبا قبل تحالفه مع ابن حفصون بيد أنه لم يكن هناك داع لأن يتطرق اليأس الى قلوب الفاطميين ، اذ جاس مبعوثوهم السريون أرباض شبه جزيرة ايبريا فى زى تجار .

ويمكن للمرء أن يكون لنفسه فكرة عن التقارير التى رفعوها الى ولاة أمورهم اذا ما قرأ احدى هذه الرسائل التى دارت بينهم والواردة فى رحلة ابن حوقل (٢٠) اذ قال « ومن أعجب ما فى هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال مع علم أمير المؤمنين بمحلها فى نفسه ومقدار جبايتها وموقع نعمها ولذاتها » .

كان لابد للفاطميين أن يجدوا أتباعا كثيرين لهم بين أهل الأندلس لو قدر لهم النجاح فى النزول بينهم ، اذ كانت عقيدة المهدى المنتظر سائدة فى اسبانيا كما هو الحال تماما فى بقية العالم الاسلامى ، ولقد حدث فى سنة ٩٠١ م (٢٨٨ هـ) ـ كما سنقص فيما بعد ـ أن قام أمير من البيت الأموى وادعى بأنه المهدى المنتظر ، وتطالعنا نبوءة أذاعها الفقيه عبد الملك بن حبيب (٢١) عام ٨٥٣ م (= ٢٣٩ هـ) ذكرها فى كتاب له أنشأه قبل قيام الدولة الفاطمية بعشرين سنة وفيها (٢٢) يزعم أن واحدا من نسل فاطمة الزهراء ستؤول اليه مقاليد الحكم فى اسبانيا ،

وسيغزو القسطنطينية التي كانت معدودة اذ ذاك عاصمة العالم المسيحي » وأنه سيقتل جميع الذكور فى قرطبة وما جاورها من الولايات ويبيع نساءهم وأولادهم حتى يصبح فى قدرة المرء أن يحصل على الغلام بسوط والجوذ الصغيرة بمهماز » ، فامن الرعاع - كما جرت العادة في مثل تلك الأحوال - بصحة هذه النبوءة ، غير أنه يمكن القول بأنه كان فى قدرة الفاطميين أن يجدوا من يحاربهم من ذوى العقول الناضجة لاسيما من المفكرين الأحرار ، اذ دخلت الفلسفة اسبانيا فى عهد الأمير محمد خامس حكام بنى أمية (٢٣) ، غير أن الناس كانوا يتلففون على حنق للفلاسفة لأن القوم هنا كانوا أكثر تعصبا من سواهم فى آسيا ، كما أن علماء الدين من أهل الأندلس الذين رحلوا الى المشرق كانوا يتكلمون فى شيء من الحذر الشديد عن تسامح العباسيين لاسيما فيما يتعلق باجتماعات أئمة جميع الأديان والمذاهب حيث يطرحون على بساط البحث فى هذه اللقاءات مسائل تتعلق بما وراء الطبيعة ويعالجونها بلا مبالاة ، كما أن المسلمين كانوا يتناولون فى هذه الاجتماعات (٢٤) القرآن . وكان القوم يمقتون الفلاسفة ويعدونهم زنادقة ينبغى حرقهم ورجمهم دون ما رحمة بهم أو شفقة (٢٥) ، ومن ثم أكره المفكرون الأحرار على كتم آرائهم ، ولا شك أنهم كرهوا هذا الوضع ، واذن أفلا تدفعهم هذه الحال الى شد أزر الأسرة التى تتفق مبادؤهم واياها ؟ .

ذلك ما يذهب اليه الظن !!

والظاهر أن الفاطميين كانوا على علم بهذا الأمر ، ويتضح لنا أنهم حاولوا تكوين ركن لهم فى اسبانيا ، فبعثوا لها من أجل هذا السبب بالفيلسوف ابن مسرة (٢٦) ٨٨٣ - ٩٣١ م (= ٢٧٠ - ٣١٩ هـ) .

كان ابن مسرة هذا من أهل قرطبة وكان آخذا بمذهب ألوهية الكون (٢٧) ، وقد تعمق فى دراسة ترجمات بعض كتب يونانية معينة ينسبها العرب الى أمبيدوكليس ، ولما رمى بالزندقة اضطر الى مغادرة البلد والطواف بأرجاء الشرق حيث وقف على مبادىء الطوائف المختلفة ، والظاهر أنه انضم خفية الى طائفة الاسماعيلية السرية ، يحملنا على هذا الظن مسلكه فى اسبانيا بعد رجوعه اليها اذ بدلا من أن يجهر بآرائه - كما كان يفعل أيام شبابه - أخذ فى كتمانها وأظهر الكثير من الورع والتقشف ، ونحسب أن زعماء هذه الطائفة السرية ألقوا اليه أن تضليله الناس وخدعه اياهم لا يتأتى الا بطلوعه عليهم فى مسوح أهل السنة والتقوى فتمكن بفضل هذا القناع الذى لبسه وبفضل أسلوبه العذب من اجتذاب العامة الى جانبه ، واختلف لسماع دروسه حشد كثيف من الطلاب الذين أخذ يفضى بهم شيئا فشيئا من اليقين الى الشك ومن الشك الى الجحود والكفر ، غير

أنه لم يوفق في خديعة الفقهاء الذين كانوا يسيرون بهدي نفوسهم فتوجسوا خيفة منـــه ، وأججوا النيران لحرق كتبه وليس لحرقه هو اذ لم يكن عبد الرحمن الثالث [الناصر] يسمح بذلك ٠

وعلى أية حال فسواء أكان ابن مسرة هذا جاسوسا اسماعيليا أم لم يكن (لعدم وجود بينـة قاطعة فى هـذا الصدد) الا أن الواقع هو أن الفاطميين لم يدعوا وسيلة ما لايجاد شيعة لهم فى اسبانيا الا واتبعوها ونجحوا فى هذا السبيل الى حد ما (٢٨) ، ولا مشاحة فى أن سلطان الفاطميين كان خيرا للمفكرين الأحرار وان كان كارثة كبرى للجمهور لا سيما المسيحيين ، ولقد وردت فى كلام ابن حوقل عبارة حوشية تفصح عما كان يتوقعه النصارى على أيدى الكتاميين المتعصبين ، وذلك بعد أن ذكر أن المسيحيين الذين لقيهم يربون على عدة آلاف فى القرى كثيرا ما يقيمون العقبات فى طريق الحكومة بما يثيرونه من القلاقل والفتن ، فاقترح ابن حوقل وسيلة فعالة سريعة حتى لا يعاودوا الكرة بعد ذلك أبدا ألا وهى قتلهم جميعا على بكرة أبيهم (٢٩) ٠

كان هذا العمل ــ فى نظر ابن حوقل ــ عملا لا غبار عليه ، غير أن الصعوبة الوحيدة فيه هى أن القتل يتطلب أمدا غير قصير ، ومن ثم تركت المسألة للزمن ، وكان من الواضح للعيان أن أهل كتامة كانوا لا يريدون تحقيق نبوءة عبد الملك بن حبيب تحقيقا حرفيا ٠

* * *

كان هذا هو الخطر الذى يهدد اسبانيا العربية من ناحية الجنوب ، أما الخطر الذى يهددها من الشمال فكان مصدره مملكة ليون التى أخذت فى التضخم يوما بعد يوم ، وأصبح خطرها أجل وأدهى ٠

وليس هناك من أصل أتفه من أصل مملكة ليون هذه ففى القرن الثامن للميلاد كانت لا تزيد عن كورة يدين أهلها بالطاعة للمسلمين ، وحدث أن هرب ثلاثمائة رجل من سكانها تحت قيادة الزعيم « بلاى » واعتصموا بالجبال الشاهقة الواقعة شرقى « أشتوريش » وأقاموا فى كهف صغير يسمي « كوفادنيا » يقوم على نجد شاهق اذ يصعد المرء اليه تسعين خطوة ، وهو منحوت فى صخرة هائلة ويطل على واد سحيق يشقه أخدود تتجمع فيه السيول وتقوم على جانبيه سلسلتان من الصخور شديدتا الانحدار قل أن يتمكن الفارس من المرور بينهما الا بشق النفس (٣٠) ، ومن ثم لم يكن من العسير على ثلة ضئيلة من الشجعان دفع عادية المغير مهما شأهم عددا وعدة ، وهذا ما فعله الأشتوريون وان أغرقهم اليأس فى طياته حتى لقد سلم بعض أصحاب بلاى وأبى آخرون فمات أكثرهم جوعا ، ومرت على بلاى لحظات تلفت فيها حوله فلم يجد غير أربعين شخصا منهم

عشر نساء وليس لديهم جميعا ما يقتاتون به سوى العسل الذى يشتاره النحل ويضعه فى شقوق الصخور ، لذلك تركهم المسلمون وشأنهم قائلين : « ثلاثون علجا ما عسى أن يجيء منهم » ·

ورأى المسلمون ان ليس يجديهم نفعا أن يتعقبوا هذه الفالة فى ذلك الوادى الخطير الذى لاقى فيه كثير من الأبطال حتفهم دون أى عمل مجيد قاموا به (٣١)،وكان اهمال المسلمين هذا مساعدا لبلاى على تقوية عصابته فانضم اليه رهط كبير من الهاربين أخذ يشن بهم الغارات على الأرض الاسلامية ، وتوالت هذه الهجمات (٣٢) ·

وأراد «مندوسة(٣٣)البربرى» ــ وكان اذ ذاك المتنفذ على الأشتوريين ــ أن يضع حدا لهذا التخريب فندب لمحاربة بلاى أحد قواده واسمه علقمة ، غير أن حملة علقمة هذه باءت بأعظم خسران ولقى جنوده أشنع هزيمة ، وكان علقمة نفسه بين القتلى ، فشد نجاح عصبة بلاى من أزر الأشتوريين فرفعوا راية العصيان ·

أما منوسة الذى لم يكن لديه الجند الكافى لاخماد هذه الثورة والذى خشى أن يقطع عليه خط الرجعة فقد غادر جيجون ــ محل اقامته ــ وشخص الى ليون ، لكنه لم يكد يقطع سبع مراحل حتى داهمه التوم وهاجموه وأصيب بخسارة فادحة ، فلما بلغ ليون دق اليأس والخوف جميع جنده لرفض العودة الى هذه الجبال التى تعيد لهم ذكرى خسائرهم (٣٤) ·

سرعان ما ازدادت قوة الأشتوريين بعد أن تخلصوا من نير السلطان الأجنبى ، وكانت تتاخمهم من الشرق امارة « كنتمونيا » التى لم تخضع أبدا للمسلمين ، وتكاثرت قوات المسيحيين حين ارتقى عرش أشتوريش الفونس الذى كان قد تزوج قبل ذلك بابنة بلاى ، ومنذ ذلك الحين تكاتف الجميع ــ بطبيعة الحال ــ على صد المغير ورده الى الجنوب ، وواتتهم الظروف اذ ذاك حين اعتنق البربر مذهب الخوارج ، وكانت غالبية مسلمى الجنوب من هؤلاء البربر الذين ثاروا ضد العرب وأخرجوهم من البلاد لكنهم لقوا الهزيمة حين تابعوا سيرهم شطر الجنوب وقتلوا كأنهم الوحوش الضارية ، وعلى الرغم من أنهم لاقوا منيتهم بظبا السيوف الا أن المجاعة المروعة التى بدأت عام ٧٥٠ م (= ١٣١ ــ ١٣٦ هـ) وأصابت اسبانيا لمدة خمس سنوات متتالية كانت أقوى عامل فى اخضاع البربر (٣٥) ، فأجمع أكثرهم العزم على مغادرة اسبانيا واللحوق بأبناء عشيرتهم النازلين بافريقية (٣٦) ·

اهتبل أهل جليقية فرصة هذه الهجرة وقاموا جميعا قومة رجل واحد

متمردين على المغير الذى احتل بلادهم قبل عام ٧٥١ م (= ١٣٢ هـ) وملكوا عليهم الفونس واستطاعوا بفضل معاونته اياهم الفتك بعدد كبير من أعدائهم وارغام الباقين على الانسحاب الى أشتورقة .

واستمر البربر يتقدمون شطر الجنوب (٣٧) عامى ٧٥٣ - ٧٥٤ فأخلوا براجة وبورتو وبازو وتخلص هذا القسم بأكمله - حتى منبع نهر دويرة - من نير العبودية ، ولما كان العرب قد أخذوا فى الارتداد على طول الخط ولم يستطيعوا المكث فى أشتورقة أو ليون أو سمورة أو لديما أو شملنقة فقد مضوا الى قورية وماردة .

أما فى الجانب الشرقى فقد غادروا صلدانية وسيمكناس وسيجوفيا وأفيلا ووخشمة وميراندة ، وتقع كلها على نهر الابرو ، كما غادروا شنشيرو وألزانكو وهما فى ولاية رية ، ومنذ ذلك الحين أخذت المعاقل الاسلامية الهامة فى التحول من الغرب الى الشرق حيث كويمبر على نهر موندجو ، وحيث مدينة طلبيرة وطليطلة على نهـــر تاجة ووادى الحجارة وتطيلة وبنبلونة .

ومنذ سنة ٧٧٠ م (= ١٣٢ هـ) تعاونت الحروب الأهلية والمجاعة العظمى على تحرير جزء كبير من اسبانيا من الحكم الاسلامى الذى لم يدم أكثر من أربعين سنة ، غير أن الفونسو انتفع ببعض الشىء من الفوائد التى تهيأت له فراح يذرع البقاع التى غادرها المسلمون وحكم السيف فى رقاب من وجده منهم بها ، وكانوا بلا شك ثلة قليلة ، غير أن أمله فى امتلاك هذه البلاد تبدد هباء لقلة من لديه من العبيد اللازمين لفلاحة الأرض فى اقليم فسيح كهذا الاقليم ولقلة توافر المال فى يديه مما يلزمه لترميم تلك القلاع والحصون التى عمد المسلمون الى هدمها أو تخريبها قبل رحيلهم ، ومن ثم استصحب معه مواطنيها حين آب الى مملكته ولم يستطع أن يحتل سوى الأقاليم المتاخمة لمتلكاته الأولى وهى اقليم « لبيانا » (أى الجزء الجنوبى الشرقى من مقاطعة سانت أندر) وقشتاله القديمة التى سميت فيها بعد بردولة وشاطىء جليقية (٣٨) وربما مدينة ليون أيضا (٣٩) .

أما بقية الاقليم فلم يكن منذ زمن بعيد غير صحراء قفر تعتبر (٤٠) حدا فاصلا بين نصارى ومسلمى الجنوب (٤١) .

الا أن خلفاء ألفونس الأول أتموا ما عجز سلفهم عن ادراكه ، ذلك أنهم فى حروبهم ضد العرب دأبوا على اتخاذ مدينة ليون مركزا لهم وراحوا يعملون شيئا فشيئا على اعادة بناء أهم المدن والقلاع ، فلما كان النصف

الثاني من القرن التاسع للميلاد ـ حين كان أهل الجنوب كله على وجه التقريب متمردين على السلطان ـ أخذ المسيحيون يمدون حدود اقليمهم حتى بلغوا نهر دويرة حيث شيدوا أربعة حصون قوية هي : سمورة ، وشمنقة وشنت اشتيبن دى جرمان وخشمة ، وهذه القلاع هي الحد الفاصل بينهم وبين المسلمين ، وهو حد ليس من اليسير اختراقه .

أما الاقليم الواسع الفقير المجدب (الممتد من نهر دورو الى وادى يانة) فقد بقى مستقلا غير تابع لأحد من العرب أو أهل ليون ، لكنه كان ميدان تنافس بينهما (٤٢) .

وأما من الناحية الغربية فقد كان الأخيرون أكثر احتكاكا بأعدائهم الطبيعيين ، والسبب في ذلك أن حدودهم في تلك المنطقة كانت تمتد الى ما وراء « مندجو » (٤٣) الا أنه طالما اجتيزت هذه الحدود ، كما استفاد الليونيون أيضا من ضعف السلطان فأرسلوا بعض الحملات الجريئة التي ظلت تتابع سيرها حتى جاوزت نهرى تاجه والوادى اليانع (٤٤) ، وكان معظم القبائل النازلة بين هذين النهرين من البربر ، ولم تكن قادرة على المقاومة لانصرافها بطبيعة الحال الى ما كان بينها من حروب (٤٥) ، ومن ثم فقد أكرهوا على الخضوع للمسيحيين ابقاء على نفوسهم من الدمار .

لكن يبدو أنه قد حانت للمسلمين أخيرا فرصة الانتقام ، ذلك أنه في سنة ٩٠١ م [= ٢٨٩ هـ] قام أمير من البيت الأموى واسمه أحمد بن معاوية ، وكان منكبا على دراسة الكيمياء والسحر كما كان طامعا في العرش ـ وأعلن بين البربر أنه المهدى المنتظر وحتم عليهم الانضمام الى صفوفه ليسير بهم جميعا ضد « سمورة » وهي المدينة التي أعاد ألفونس الثالث بناءها بمعاونة حلفائه مسيحيى طليطلة سنة ٨٩٣ م (= ٢٨٠ هـ) والتي أضحت تثير الخوف في نفوس البربر كما كانوا يضعون فيها غنائمهم آمنين عليها لوقوعها خلف خنادق تحميها كما تقوم أمامها سبعة أسوار (٤٦) .

ولقد تكللت دعوة أحمد بن معاوية البربر لحمل السلاح بنجاح عظيم، ولما كانوا سذجا سريعى التأثر والتصديق لما يلقى اليهم ويتوقون للثأر لأنفسهم فقد التفت جماعات كثيرة منهم حول أمير زعموه يأتى بالمعجزات ويؤيده الباقون ، وآمنوا بما أكده لهم من أن أسوار جميع المدن سوف تدك دكا عند اقترابهم منها ، وما انقضت بضع شهور حتى كان هذا الداعى قد جمع حوله جيشا يبلغ ستين ألف رجل سار بهم شطر نهر دورو ، فلما اقترب من سمورة بعث الى الملك ألفونس الثالث ـ وكان مقيما بها ـ رسالة عنيفة يحذره فيها من وخامة العاقبة ان لم يبادر هو ورعيته الى

اعتناق الاسلام ، فلما وقف الفونس على مضمون الخطاب تميز غيظا هو وكبار رجال حاشيته ، وتملكهم الغضب وأقسموا لينتقمن من كاتب هذه الرسالة ، وأن يكون انتقامهم عنيفا منه ، ودلفوا الى جيادهم فامتطوها لمهاجمته ، وخف فرسان البربر لدفعهم ، ولما كانت مياه « دورو » ضحلة (اذ كان الوقت صيفا والشهر شهر يوليو) فقد شبت المعركة فى مجرى النهر ولم تجد السيوف أهل ليون نفعا فقد أنزل البربر بهم الهزيمة وحالوا بينهم وبين العودة الى المدينة ودفعوهم أمامهم الى داخل الاقليم ٠

* * *

ان النهـاية التى انتهت اليها الحملة لم تكن تبعث على التفـاؤل بما سوف يحدث بعد المعركة الأولى ٠

أجل ، لقد استطاع المهدى المزعوم أن يكون له السلطان المطلق على جنوده ، وكان يعتقد أن اصداره الأوامر باللسان حط من مكانته ، فكانت أوامره اشارات ، يلبيها الجميع ويطيعونها طاعة عمياء ، غير أنه كان كلما قوى نفوذه على البسطاء من جنده كلما تأججت الغيرة منه فى نفوس القادة الذين أدركوا أنه لو تحقق نجاح الحملة لأدى ذلك الى تغلب نفوذ المتنبىء المزعوم الذى لا يؤمنون بدعواه ، ومن ثم فقد أخذوا يتحينون الفرصة لكى يقتلوه ولكنها كانت فرصة لم تتح لهم ٠

الا أنه حدث فى أثناء مطاردتهم العدو أن قام أقوى الرجال فيهم وهو « ذلل بن يعيش » شيخ قبيلة نفوسة وأخبر أصدقاءه أنهم ارتكبوا جرما فظيعا بمقاتلتهم أهل ليون ، وأن الرجوع الى الحق واجب ، ولم يصادف صعوبة فى حملهم على مشاركته شعوره ، فعقد الجميع الخناصر على افساد تدابير « المهدى » وارتدوا ، فلما بلغوا مركز الطليعة على الشاطىء الأيمن لنهر دويره جمعوا متاعهم زاعمين أن الهزيمة حاقت بهم وأن العدو فى آثارهم ، ووجدت مزاعمهم من صدقها لا سيما أنه لم يكن معهم غير فالة قليلة من الجيش ، أما البقية فيظهر أنها أبت طاعتهم أو أنها لم تكن تعلم بمقصدهم ٠

اشتد الفزع بنفوس البربر الذين راموا النجاة فى الهرب السريع ، وبادر عدد جم من الجند بالانطلاق شطر نهر دورو ، فلما أبصرتهم حامية سمورة خرجت اليهم وعملت فيهم مقتلة عظيمة فى اللحظة التى كانوا خلالها يحاولون عبور النهر ، الا أن غالبية الجيش المسلم الذى كان لا يزال مرابطا على الشاطىء الأيسر للنهر حاصرت أهل ليون ، ولم تكن حالهم فى اليوم التالى بالحال التى تمكنهم من امكانية الوصول الى نصر حاسم ، غير أن تسلل الجند من جيش المهدى كان يزداد شيئا فشيئا مما كان عاملا على

تقوية خصومهم ، وأخذ المهدى يعد جنوده بالنصر فما صدقه أحد ، فلما كان اليوم الثالث داخله اليأس اذ أصبح فى شرذمة ضئيلة من عسكره ، ولما كان يأنف من الحياة فى ظل العار فقد ضرب خاصرة جواده بمهازه ورمى بنفسه وسط كتائب عدوه فلقى المنية التى ودها ، ورفعوا رأسه على باب سمورة (٤٧) ٠

أدت هذه المعركة بطبيعة الحال الى ارتفاع معنويات أهل ليون الذين كانوا يعولون على معونة أهل تطيلة لهم لا سيما معونة شانجة الكبير ملك نافارة الذى جعل لاقليمه أهمية لم تكن له من قبل ، لذلك أخذوا يتطلعون الى اسبانيا الاسلامية تطلعهم الى غنيمة ينبغى ألا تفلت من أيديهم ، كما وجهوا أبصارهم شطر الجنوب ، لكن شدة املاقهم وحاجتهم القصوى للمال دفعتهم للمفاوضة (٤٨) وأفهمهم قساوستهم (الذين كانوا موقرين لديهم توقيرا جما والذين غمروهم بعطاياهم) أن حربهم الكفار أضمن وسيلة لبلوغهم الجنة ، فمضوا يذرعون رحاب الأندلس الغنية ، وطمعوا فى خير الدنيا والآخرة ، فهل أنقذت الأندلس من سطوتهم ؟

لو أنها فشلت لحاق العذاب الأليم بالمسلمين ، ولما كان أهل ليون قد بلغوا الغاية القصوى فى التعصب والقسوة فلم يكونوا يبقون على قيد الحياة أحدا ما يقع فى أيديهم ، وكانوا اذا استولوا على بلد حكموا بالسيف بطبيعة الحال فى رقاب سكانه جميعا ، هذا فى الوقت الذى لم يكن هناك من مثيل للتسامح الذى يبديه المسلمون تجاه النصارى ٠

لكن ما الذى كانت تؤول اليه الحضارة العربية الزاهية التى أخذت تخطو قدما فى معارك التقدم تحت حكم هؤلاء البربر الأميين الذين كان اذا أعوزهم الرجال لمسح الأرض عمدوا الى استخدام هؤلاء الشرقيين ، والذين كانوا اذا تكلموا عن المكتبة قصدوا بها الكتب الدينية ؟

وجلى أن المهمة التى كان على عبد الرحمن الناصر الاضطلاع بها فى مستهل حكمه كانت مهمة عظيمة رائعة تتضمن تخليص وطنه بل والحضارة ذاتها ، فكانت مسئوليته جسيمة شاقة ، وكان عليه اخضاع رعيته وصد بربر الشمال الذين كانت سفاهتهم تزداد كلما أخذت الدولة الاسلامية فى الضعف ، كذلك كان يتحتم عليه الضرب على أيدى بربر الجنوب الذين استولوا على دولة شاسعة مترامية الأطراف وراحوا يفكرون فى وجوب الزحف على الأندلس وأدرك عبد الرحمن المهمة المنوطة به ٠ ولقد رأينا آنفا كيف استطاع السيطرة على مملكته وتهدئه الأمور بها (٤٩) ٠

وسنرى فى الفصول التالية كيف استطاع الوقوف فى وجه أعدائه الذين كانوا خارج البلد ٠

الفصل الثانى

أردونيو الثانى ضد الناصر • حملة ابن أبى عبدة • بطولته ومقتله • الناصر ضـــد الفاطميين سرا • أمير ناكور يناهضهم • مقتل الأمير • الناصر يرحب بابنـاء صاحب نكور وانتصار أحدهم على الفاطميين • تحالف أردونيو وملك نفارة لازعاج الناصر • حملة الحاجب بدر وانتصاره على نصـارى ليون • الناصر يســتولى على وخشمة • محمد بن لب يدمر حصن قلقرة • تحالف شانجة وأردونيو ضد المسلمين • معركة بانبلونة وموت أردونيو • النزاع بين ملوك النصـــارى • تحالف بعض القوى الاسلامية ضد الناصر وانتصاره •

الفصل الثانى

المواجهة بين الناصر

ومراكز القوى المسيحية

وجد عبد الرحمن الناصر نفسه ـ فى مستهل حكمه ـ مضطرا الى مناضلة أهل ليون مناضلة لم يكن يفكر فيها ، فقد حدث فى سنة ٩١٤ م (= ٣٠٢ هـ) أن شرع ملكهم القوى « أردونيو » الثانى فى مجاهرته بالعداء باغراقه اقليم ماردة فى بحر من النار والدم ، وباستيلائه على قلعة « الحنش » (١) واجهازه بالسيف على جميع المدافعين عنها وسبيه النساء والأطفال مما بث الفزع فى نفوس سكان بطليموس وخافوا أن يكون مآلهم مآل جيرانهم ، فذهبوا برياسة واليهم الى الملك المسيحى ملتمسين منه أن يقبل كل ما حملوه اليه من غالى المتاع ، فتقبل أردونيو ذلك مسرورا ، ثم عبر نهرى دورو وتاجه منتصرا محملا بالغنائم ، وفى طريق عودته الى ليون أظهر شكره للعذراء باقامة كنيسة لها (٢) ٠

ولما كان سكان الأقاليم التى غزاها أردونيو لم يدينوا له بالطاعة بعد فقد كان فى استطاعة عبد الرحمن ـ لو شاء ـ أن يغض الطرف عما كان منهم لولا أن ذلك العمل لم يكن يتفق ووجهة نظره ، ولما كان يعلم جيدا أنه ينبغى عليه أن يستميل اليه أفئدة رعيته الثائرة بأن يظهر لهم دائما بمظهر الذائد عنهم ، الراعى لأحوالهم فقد آلى على نفسه الا القصاص من ملك ليون ، ومن ثم جيش جيشا اليه فى يوليو ٩١٦ م (= محرم ٣٠٤ هـ) وأغزى أحمد بن محمد بن أبى عبدة قائد عمه العجوز ، وما كانت هذه الحملة التى هى أول حملة بعد خمسة عشرة سنة من محاولة المهدى المزعوم سوى غزوه للسلب وقد غنم فيها المسلمون غنائم عظيمة (٣) ٠

فلما كانت السنة التالية تشكى سكان الحدود من عيث الليونيين فى أرضهم واحراقهم أرباض طلبيرة الواقعة على نهر التاجة وحرضوا عبد الرحمن الذى أصدر أمره الى ابن أبى عبدة بشن حملة أخرى والاغارة ومحاصرة حصنهم القوى « شنت اشتيبن دى جرمان » والذى يسمى أيضا

باسم « قاشتر مورش » (٤) ، وكان جيشه كثيفا فيه جماعة من المرتزقة الافريقيين الذى استقدمهم عبد الرحمن من طنجة ٠

وقد استهل الجيش حركته بما يبشر بالفوز فضيق الخناق على حامية شنت بتيبن دى جرمان التى كانت على وشك التسليم لولا أن أقبل أردونيو لنجدتها فهاجم ابن أبى عبدة الذى شاء سوء طالعه ألا يكون جميع جنده من طنجة وحدها لوجود طائفة كبيرة بينهم من سكان الحدود الذين لم يكن فى استطاعة أحد ما الثقة بوفائهم أو الاعتماد على حماستهم بل كانوا نصف متبربرين ونصف أسبان فلم يكادوا يبصرون ما يفعله الليونيون من التدمير والتخريب حتى استصرخوا بالسلطان ولم يصمدوا فى وجه عدوهم مما أتاح له الفرصة للظهور عليهم ، كما أنهم فى أثناء عودتهم كانوا أكبر العاملين على بث الفوضى الشاملة فى صفوف الجيش كله ، ولما رأى ابن أبى عبدة الشجاع أن الهزيمة أمر لا مناص منه أظهر الصبر وآثر أن يلقى حتفه فى المهمة التى نيطت به وكره السلامة يوفرها له الفرار ، ووقف الى جانبه كثير من جنوده الذين رأوا رأيه فاستشهدوا عن آخرهم بسيوف النصارى ٠

ويذكر المؤرخـون العرب أن قسما كبـيرا من بقية الجيش أفلح فى الانضمام الى بعض ونجحوا فى الوصول ــ على أكمل نظام ــ الى المنطقة الاسـلامية ، لكن المؤرخين المسيحيين يذكرون خلاف ذلك فيزعمون أن انكسار المسلمين كان انكسارا كليا حتى لقد غطت جثث القتلى الهضاب والغابات والحقول الممتدة ما بين دويرو ــ وأنتيزا وجرى على أديمها كله الدم المطلول (٥) ٠

لم يجد اليأس سبيلا الى قلب عبد الرحمن اذ سرعان ما أخذ أهبته لمحو آثار هذه النكبة غير أن مشاكل أفريقية استرعت انتباهه بينما كان يعد العدة لانفاذ حملة جديدة فى العام التالى ٠

وعلى الرغم من أنه لم يكن فى حرب ضد الفاطميين الذين لن يثيروا أمامه ما يحمله على الشكوى منهم لانشغالهم بفتح بلاد المغرب الا أنه أدرك أنهم سوف يسلون سيوفهم ضد الأندلس حالما يفرغون من هذا الفتح ، ومن ثم رأى واجبه يقتضيه أن يبذل قصارى جهده لانقاذ المغرب حتى يبقى سدا حائلا بين الفاطميين وبين أسبانيا ، لكنه مع ذلك رأى أنه ليس من الصواب أن يعلن الحرب على هذه الدولة فى وقت لم تزل فيه نيران الفتنة مشتعلة فى مملكته ، ولم يسأله نصارى الشمال فى الصلح ، والا كان اعلانه الحرب على الفاطميين دافعا لهم على النزول على شاطىء الأندلس ، ورأى ان كل ما يسـتطيع عمله فى تلك الظروف المحيطـة به هو أن يساعد ــ فى الخفاء ــ الأمراء الذين فى استطاعتهم مقاومة المغير على أراضيهم ٠

وآتيحت الفرصة عام ٩١٧ [= ٣٠٥ هـ] حين هاجم الفاطميون أمير نكور (٦) الذى كان من أسرة عربية الأصل حكمت نكور وما حولها منذ أن فتحتها ، وكان أبرز ما تمتاز به هذه الأسرة هو تمسكها بأهداب الدين ، كما ذاعت شهرتها منذ أن افتدى السلطان محمد أميرتين من هذه الأسرة كان القراصنة النرمنديون (٧) قد اختطفوهما ، ومنذ ذلك الحين ظلت على أمتن الصلات الودية مع اسبانيا ·

ولقد قام أحد القضاة من هـذه العائلة ــ واسمه عبد الرحمن بن سعيد ــ وكان فقيها ورعا حج الى مكة أربع مرات وشخص الى الأندلس أيام عبيد الله قصد الجهاد ، وفى أثناء مغادرته السفينة هاجمه ابن حفصون وقتل كل من كان معه ولم ينج أحد سواه فوصل وحيدا الى معسكر السلطان [فى مرسية] ، واستشهد فى الحرب ضد ديسم [بن اسحق] أمير ولاية تدمير (٨) ·

حين غزا الفاطميون المغرب كان على نكور الأمير سعيد بن صالح (٩) فطلبوا اليه الخضوع لهم فأبى ، غير أنه ــ أو بالأحرى شاعره الأندلسى ــ أضاف الى الرفض عدم الفطنة اذ كان الخليفة قد بعث اليه بأبيات شعرية تحمل فى معناها عزمه على سحق أهالى نكور ان هم رفضوا الدخول فى طاعته ، ووعدهم بالعدل بعم بلادهم ان هم أذعنوا له ، فرد عليه الشاعر الأحمس الطليطلى بالأبيات التالية (١٠) :

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
ومـا أنت الا كافـــر ومنــــافق تميل مع الجهال فى السنة المثلى
وهمتنـــا العليـــا لدين محمد وقـد جعل الرحمن همتك السفلى

فاشتد غيظ الخليفة الفاطمى عبيد الله فكتب فى الحال الى قائده مصالة حاكم تاهرت يأمـره بالنهوض لمهاجمة نكور ، ولما لم يكن لدى سعيد بن صالح الشيخ من قلعة يتخذها حصنا له فقد مضى لمهاجمة العدو وحاربه ثلاثة أيام (١١) ، الا أن أحد قواده (١٢) خانه فلاقى أخيرا منيته فى ميدان القتال مع جميع عسكره سنة ٩١٧ م ، واستولى مصالة على نكور وقتل رجالها وسبى نساءها وأسر أطفالها ·

كان سعيد قد حذر أولاده وأوصاهم فتحين ثلاثة منهم الفرصـــة وأبحروا قاصـــدين ميناء مالقة ، فلما بلغوهـــا أمر عبد الرحمن الثالث بالاحتفاء بمقدمهم أبهى احتفاء ، وفى الوقت ذاته أبدى استعداده وترحيبه باستقبالهم اذا شخصوا الى قرطبة ، لكنه لما لم يكن راغبا فى التضييق

عليهم فقد ترك لهم حرية الاقامة فى مالقة طالما هـذا هواهم ، وأجابه الأمراء بأنهم يؤثرون البقاء فى بقعة تكون على مقربة من مسرح الأحداث لأنهم يؤملون العودة فى القريب العاجل الى وطنهم ، ولم تطش آمالهم بددا فقد فكر مصالة فى الرجوع الى تاهرت بعد ستة شهور قضاها فى نكور التى استخلف عليها ضابطا كتاميا اسمه « ذلول » فى فئة قليلة من الجند ، فانتهز هذه الفرصة هؤلاء الأمراء [الثلاثة] الذين كان أتباعهم يوافونهم بكل ما يجد ، وجهزوا السفن واستقلوها الى نكور بعد أن اتفقوا فيما بينهم على أن تكون ولاية الامارة لأسبقهم فى الوصول اليها ، فكان صالح ـ وهو أصغر الأبناء الثلاثة ـ أسبق الاخوة ، فتسارع اليه بربر الساحل ورحبوا بمقدمه وأمروه (١٣) عليهم وساروا قاصدين نكور وفتكوا بذلول وجنده ، وسرعان ما حرر صالح ـ وقد ملك الاقليم ـ كتابا الى عبد الرحمن الناصر يشكر فيه عطفه عليه وعلى أخوته ، ويفضى اليه بنبأ انتصاره ، وأعلن فى الوقت ذاته ـ فى جميع رحاب المملكة ـ سيادة هـذا الحاكم ، فبعث اليـه عبد الرحمـن بالأخبية والآلات والبنـود والطبول (١٤) .

اذا كانت أحداث نكور قد أنست عبد الرحمن الثأر لهزيمة جيشه ولموت قائده الباسل ابن أبى عبدة الذى علق أردونيو رأسه على سور شنت اشتيبن الى جانب رأس خنزير برى (١٥) فان المسيحيين ذكروه بهذا كله حين عاث أردونيو الثانى وحليفه (١٦) ملك نفارة فى ربيع ٩١٨م [= ذو القعدة ٣٠٥ هـ] فى منطقتى ناجرة وتطيلة ، ثم استولى شانجة بعد ذلك على اقليم بلتيرة وأحرق الجامع وحصنها (١٧) ، فعهد عبد الرحمن الثالث اذ ذاك بقيادة عسكره الى بدر [بن أحمد] الحاجب وأرسل الى سكان الحدود يطلب اليهم الانضواء تحت لوائه [والجد فى نكاية أهل الكفر] وحثهم على اغتنام هذه الفرصة لغسل عار هجوم السنة الماضية .

وفى السابع من يوليو ٩١٨ م [= ٢٥ محرم ٣٠٦ هـ] غادر الجيش قرطبة ، فلما بلغ حدود ليون حمل حملة عنيفة على العدو المعتصم بالجبال ، ونشبت معركتان فى الثالث عشر والخامس عشر من أغسطس [٣ و٥ ربيع الأول ٣٠٦ هـ] على مقربة من مكان يدعى مطونية (١٨) ، وخرج المسلمون ظافرين فى كل من الوقعتين ، أما أهل ليون فيشهد مؤرخهم أنهم قد تأسوا بقول داود عن الشك فى السلاح (١٩) .

تم لعبد الرحمن مسح عار هزيمته غير أنه كان واثقا من أن أهل ليون لم يخضعوا بعد ، وكان يتحرق شوقا لمشاطرة قواده شرف الظهور فى الحرب على الكفار ، فقاد الجيش بنفسه وجهز حملة استولى بها على وخشمة (٢٠) ، اذا اتفق مع عاملها على تركه هو وشـأنه ، واستبدل

عبد الرحمن جيش هذا الرجل وتظاهر بقبوله عرضه بالشخوص الى نهر أبرو عن طريق مدينة سالم ، لكنه انعطف فجأة يسارا الى نهر دويرو ، وبعث أمامه كتيبة من الفرسان آمرا اياها سلب أرباض وخشمة وتدميرها ، فذهلت حاميتها لهـذا الهجوم المباغت وأسرعت الى الاعتصـام بالغياض والآكام والجبال ، ودخل المسلمون الحصن دون مقاومة وأضرموا فيـه النار ثم مضوا فهاجموا حصن شنت اشتيبن دى جرمان ودخلوه هو أيضا دون أن يصـادفوا أى مناهضـة لهم فقد فرت عنه حاميته حين قدوم المسلمين الذين دخلوه ودمروه كما دمروا حصن القبيلة (٢١) المجاورة له ثم ساروا من هناك الى قلونى (٢٢) وهى بلدة قديمة هامة درست معالمها اليوم ولم يبق ما يدل عليها سوى أطلالها ، ويظهر أن الليونيين اتفقوا على عدم المقاومة فى أية جهة ، فقد وجد المسلمون قلونية خالية تماما فهدموا كثيرا من بيوتها وكنائسها •

كان من أثر استغاثة مسلمى تطيلة بعبد الرحمن أن عزم على محاربة شانجة ملك نفارة ، فسار على مهل حتى لا ينهك التعب جيشـه وقطع المسافة ما بين قلونية وتطيلة فى خمسة أيام ، ثم وضع كتيبة من الفرسان رهن أوامر محمد بن لب عامل تطيلة وأمره بمهاجمة حصن قلقرة الذى بناه شانجة ليشرف منه على سكان تطيلة وليجعلهم فى خوف دائم منه ، فوجد المسلمون الحصن مهجورا اذ سرعان ما فر عنه شانجة الى أرميدو •

ومع ذلك فقد هاجم شانجة مقدمة المسلمين حين عبورهم نهر ابرو ، ودارت بين الفريقين رحى القتال الذى أظهر المسلمون فيه أنهم اذا كانوا قادرين على الاستيلاء والنهب وحرق القصور غير المحصنة فهم قادرون أيضا على الحاق الهزيمة المنكرة بالعدو واكراهه على الاعتصام بالجبال طلبا للسلامة ، وقامت مقدمة الجيش وحدها باحراز هذا النصر الغالى ، أما عبد الرحمن الذى كان فى الوسط فقد كان لا يدرى بأن جيشه قهر العدو ولم يعلم بهذا الأمر الا حين حملوا اليه رؤوس القتلى •

استنجد شانجة بأردونيو حين دارت الدائرة عليه وأصبح لا يقوى بمفرده على مقاومة المسلمين ، فأجمع العاهلان العزم على مهاجمة مقدمة الجيش أوساقته حسبما تسمح الظروف ، وفى أثناء ذلك كان المسيحيون الذين لم يغادروا الجبال قد حملوا على جناحى المسلمين الذين كانوا يسيرون عبر الممرات والأودية صارخين صرخات عالية لبث الفزع فى نفوس أعدائهم وانتفعوا بما مهدته لهم الأرض فقتلوا البعض •

وغنى عن البيـان أن الجيش المسلم ألفى نفسـه فى مركز خطر ، واستعمل من أهل الجبال خفاف الحركة ذوى اليأس الذين يذكرون النكبة الكبرى التى أنزلها أجـدادهم بجيش شارلمان العظيـم فى وادى باب

شيزروا (٢٣) ، والذين أرادوا اغتنام الفرصة فى هذه اللحظة لانزال مثلها بجيش عبد الرحمن الذى لم يكن جاهلا الخطر الذى يهدد رجاله ، لذلك لم يكد يبلغ وادى الخيزران (٢٤) (الذى سمى بهذا الاسم لكثرة الخيزران به) حتى أمر بنصب الخيام ، وحينئذ ارتكب المسيحيون هفوة جسيمة اذ نزلوا السهل بدلا من اعتصامهم بالجبال وتقدموا غير وجلين ، فالتحموا بالمسلمين فيما أرادوه من حرب ، بيد أنهم دفعوا غاليا ثمن تهورهم اذ نكبوا بهزيمة ساحقة ، وتعقبهم المسلمون حتى حجز الظلام بينهم وبين عدوهم وأخفاه عن أبصـــارهم ، لكنهم أسروا نفرا من قواده من بينهم مطرانان هما « هرموجيس » أسقف توى ، و « دولكيديس » أسقف لمنقة اللذان تسربلا بلباس الحرب كما كانت العادة اذ ذاك ٠

وعلى الرغم من ذلك فقد تسلل أكثر من ألف نصرانى لواذا الى قلعة مويش معتصمين بها ، فأحدق بها عبد الرحمن واستولى عليهـا وقطع رؤوس جميع المدافعين عنها ، وراح المسلمون يخربون الحصون دون أن يجدوا أدنى مقاومة ، ثم راحوا يجوسون خلال نفـارة يزدهيهم النصر ويتشدقون بأنهم أحرقوا كل ما صادفوه فى بقعة مساحتها عشرة أميال مربعة ، وكانت الغنيمة ـ لاسيما المؤونة ـ التى استولوا عليها عظيمة فكانوا فى معسكرهم يبيعون القمح بسعر التراب (٢٥) ، ثم عمدوا الى حرق جزء كبير من المؤونة حين عجزوا عن حملها كلها ٠

خرج عبد الرحمن من هذه الحملة منصورا يخفق فوق رأسه علم الفخار ، فأخذ فى اليوم الثامن من شهر سبتمبر فى الارتداد ، ولما بلغ أنتيسة فارق عسكر الحدود الذين أبلوا بلاء حسنا فى وقعة وادى الخيزران بعد أن فرق فيهم عطاياه ، ثم قفل راجعا الى قرطبة التى بلغها فى الرابع والعشرين من شهر سبتمبر (٢٦) بعد غيبة طالت ثمانية أشهر (٢٧) ٠

كان من حق عبد الرحمن أن يعلل نفسه بأن من شأن هذه المعركة الظافرة أن تنزع من نفوس النصارى الى حد ما التفكير فى معاودة الغارة على الأرض الاسلامية ، بيد أنه كان يواجه خصما ليس من اليسير عليه أن يخضد شوكته ، فلقد حـــدث فى عـام ٩٢١ م أن شن أردونيو غزوة أخرى (٢٨) ٠

واذا سلمنا بما يذكره أحد المؤرخين النصارى الذى ربما أسرف فى تقدير مدى الانتصارات التى أصابها أبناء دينه فقد أصبح ملك ليون على مسيرة يوم واحـد من قرطبـة (٢٩) ثم اســتولى بعد عامين على ناجرة (٣٠) ، بينما استولى حليفه شانجة ـ ملك نفارة ـ على بقيرة (٣١) التى كان من أثر مباهاته بها أن قال قول النبى(٣٢) « لقد شتتت شملهم ، وأكرهتهم على الفرار الى أماكن قاصية مجهولة » ٠

دب الذعر في أسبانيا الاسلامية من جراء استيلاء النصارى على بقيرة (٣٣) ، فقد ترامى الى الأسماع خبر قتل جميع المدافعين عنها وفيهم رجال من أبرز العائلات (٣٤) ، واذا كان عبد الرحمن لا يميل للأخذ بثأر هذه النكبة فقد كان يدفعه اليه الشعور العام ، لكنه لم يكن في حاجة لمن يحثه على ذلك فقد ملك الغيظ والغضب عليه كل نفسه حتى أبى التريث في انتظار الفصل الذى تبدأ الحملات فيه عادة ، فغادر قرطبة في ابريل ٩٢٤ م (= محرم ٣١٢ هـ) على رأس جيشه كي ينتقم لله والدين من الشعب الدنس الكافر، كما يقول مؤرخ عربي ٠

وفي العاشر من يوليو [٩٢٤ م ، = ربيع الثانى ٣١٢ هـ] بلغ حدود نفارة ، وكان اسمه يبعث الرهبة الشديدة في نفوس أعدائه ، فخلفوا أنى كانوا قلاعهم وغادروها حين قدومه ، فمر بطريقه على قلقرة وبيطرة ألته ، وفالجش سالبا كل ما يصادفه في طريقه مضرما النار فيه ، ثم توغل في الاقليم متجها شطر العاصمة ٠ وحاول شانجة صده في الممرات الضيقة لكنه كا يرتد كل مرة خائبا ويؤوب خاسرا ، وبذلك وصل عبد الرحمن من غير مقاومة الى بامبلونة التى لم يجسر أهلها على ملاقاته فهربوا منه ، وهدم كثيرا من بيوت المدينة كما هدم الكنيسة التى كان يفد اليها كل عام جمهور غفير من الحجاج ، ثم أمر بعدئذ بهدم كنيسة أخرى عظيمة التوقير في نفوس الأهالى كان شانجة قد بذل الأموال الطائلة في بنائها على جبل مجاور ، ولم يفلح شانجة فيما تكبده في سبيل انقاذها ، كما لحقه الفشل في محاولاته الأخرى فقد وصلته امدادات من قشتالة أغار بها مرتين على الجيش الاسلامى أثناء مسيره لكنه عاد في كلتيهما خاسرا ، أما المسلمون فعلى العكس من ذلك لم يقتل منهم غير نفر قليل في هذه الحملة الباهرة التى عرفت فيما بعد بوقعة بانبلونة (٣٥)٠

ذل ملك نفارة بعد أن استبد به الزهو من قبل ، وظل ردحا من الزمن مسلوب القوى ، ولم يكن ثمت ما يخيف عبد الرحمن حينئذ من ناحية ليون فقد مات أردونيو الثانى الشجاع قبل بدء معركة بانبلونة (٣٦) ، ثم خلفه أخوه فرويلا الثانى لكنه لم يلبث غير سنة واحدة لم يساهم فيها قط بحرب ضد المسلمين الا ببعض امدادات أنفدها الى شانجة ملك نفارة ، فلما مات سنة ٩٢٥ م (= ٣١٣ هـ) تنازع التاج ابنا أردونيو الثانى وهما شانجة وألفونسو ، وآل التاج الى الأخير الذى نعت بالرابع ، وكان ذلك بفضل مساعدة حميه شانجة ملك نفارة ، فلم يوهن ذلك من عزم شانجة (بن أردونيو الثانى) بل جمع جيشا جديدا وتوج في كنيسة القديس جاك ثم مضى محاصرا ليون واستولى عليها واسترد العرش من أخيه سنة ٩٢٦ م (= ٣١٤ هـ) الا أنه في

سنة ٩٢٨ م (= ٣١٦ هـ) استعاد الفونس العاصمة بمساعدة النفاريين ولكن شانجة استبقى جليقية فى يده (٣٧) •

لم يشغل عبد الرحمن نفسه بهذه الحرب الأهلية الطويلة بل ترك النصرانية فى نزاعها والتفت الى مصالحه الشخصية مستغلا هذه الفرصة التى تهيأت له لاخماد الثورات التى كانت دائمة الاندلاع فى أرجاء مملكته ، حتى اذا أوشك على تحقيق رغائبه تطلع للحصول على لقب آخر ، ذلك أن أمويى اسبانية كانوا قانعين حتى هذه اللحظة بلقب « السلطان » أو « الأمير » أو ابن الخلائف ، أما الخليفة العباسى الذى كان واياهم فى عداء دائم فلم ينازعوه لقب (٣٨) «الخليفة» لاعتناقهم الفكرة القائلة بأن هذا اللقب هو حق للشخص الذى تدين له مكة والمدينة بالولاء والتبعية(٣٩) ، أما وقد أصبح العباسيون دمى فى أيدى الأمراء (٤٠) ولم يتعد نفوذهم بغداد وما حولها لاستقلال حكام الولايات بمقاطعاتهم فلم يعد ثم حائل يحول بين الأمويين وبين الحصول على لقب هم فى حاجة اليه ليجلبوا لأنفسهم احترام رعيتهم عامة والمغاربة خاصة ، ومن ثم أمر عبد الرحمن فى عام ٩٢٩ م (= ٣١٧ هـ) أن يدعى (٤١) له ابتداء من يوم الجمعة ١٦ ينــاير فى الأدعية والصلوات العامة بلقب « الخليفة » مقرونا بلقب « أمير المؤمنين الناصر لدين الله » •

فى ذلك الوقت بالذات وجه كل همه نحو أفريقية فحالف محمد بن خزر شيخ قبيلة مغراوة (٤٢) البربرية الذى هزم قوات الفاطميين شر هزيمة وقتل بيده قائدهم مصــالة فتم التحالف بين الاثنين وسرعان ما طرد ابن خزر الفــاطميين من المغرب الأوســط (أعنى اقليم الجزائر وهرات) واعترفت هذه الناحية لعبد الرحمن (٤٣) الذى أفلح أيضا فى فصل عضد قوى من الفاطميين هو قائد مكناسة العظيم المسمى (موسى) ابن أبى العافية الذى كان حتى هذه اللحظة ساعدهم الأيمن والذى استولى على سبتة عام ٩٣١ م (= ٣١٩ هـ) لما كان يراه من ضرورة امتلاك حصن على الساحل الافريقى (٤٤) •

والظاهر أن نصارى الشمال أخذوا أنفسهم بعدم مناوأة الخليفة حتى يتفرغ للمشاكل الافريقية وانتهت حربهم الأهلية الأولى بموت شانجة عام ٩٢٩ م [= ٣١٧ هـ] وما أهل ربيع عام ٩٣١ م حتى نشبت حرب أخــرى فقد حزن ألفونس الرابع حزنا شديدا (٤٥) على زوجتــه فى هذه السنة فتخلى من تلقاء نفسه عن العرش لأخيه راميرو الثانى ، وأما هو فقد لبس مسوح الكهنة وأقام فى دير ساهاجون ، لكنه سرعان ما تبين أنه لم يخلق لحياة الرهبانية الرتيبــة فغادر الدير ونودى به ملكا على شلمنقة ، فكان هذا العمل فى نظر رجال الدين جرما لا يغتفر ، وأنذروه

بأهوال الجحيم ان لم يعد الى الرهبانية فأذعن لهم بعد لأى ، لكنه كان ممالئا غير صادق فى عودته اذ لم يلبث أن طرح لباسها عن نفسه مرة أخـــرى .

استغل الفونس فرصة غياب راميرو الثانى الذى كان قد ذهب لنجدة طليطلة (٤٦) التى حاصرها جنود الخليفة فجاء الى ليون واستولى عليها ، فانكفء راميروا عائدا اليها لساعته وحاصر بدوره ليون ودخلها ظافرا ، وأراد ألا يدع مجالا لأخيه بعدئذ للمطالبة بالعرش فسمل عيون الثلاثة من أبناء عمه فرويلا الثانى الذين اشتركوا فى ثورة عام ٩٣٢ م (٤٧) .

* * *

أما من ناحية عبد الرحمن فقد تغير الموقف أمامه عما كان عليه من قبل ، اذا انقضى الوقت الذى كان يتجاهل فيه أمر مملكة ليون ، ولما كان راميرو رجل حرب وبأس فقد أذكى نار الكراهية والبغضاء المتأصلة فى النفوس ضد المسلمين ، وكان همه الأول انقاذ طليطلة تلك الجمهورية الشامخة بأنفها تيها وكبرياء ، والتى انفردت بين جميع ولايات اسبانيا الاسلامية بتحديها جيوش السلطان كما أنها كانت حتى هذه اللحظة حليفة صادقة لمملكة ليون ودرعا واقيـا لها ، ومن ثم فقد شن الحرب وهاجم مدريد التى كانت فى طريقه واستولى عليها (٤٨) ، ومع ذلك فقد عجز عن انقاذ طليطلة حين نهضت لصـده كتيبة من الجيش المحاصر للمدينة وأرغمته على التقهقر والارتداد عنها (٤٩) تاركا اياها وشأنها ثم لم تلبث أن سلمت عام ٩٣٣ م (= ٣٢٣ هـ) . حين فقدت كل أمل لها .

وخان الحظ راميرو اذ أخبره فرديناند كونثالث (أو جونزالتز) كونت قشتالة أن الجيش الاسلامى يهدد وخشمة فنهض لدفعه وأوقع به الهزيمة (٥٠) .

لكن عبد الرحمن أخذ بثاره عام ٩٣٤ م ، وكان يتطلع لأن تشهد سهول وخشمة كبرى انتصاراته كما شهدت عار الهزيمة قبل ذلك بقليل ، فحاول عبثا اخراج راميرو من الحصن ، وحينذاك رأى ملك ليون أن الحكمة تقتضيه عدم المساهمة فى معركة يفرضها المسلمون ، وخلف عبد الرحمن جزءا من جيشه أمام وخشمة لمحاصرتها ، وتابع هو سيره ناحية الشمال وارتكب رجاله ـ لاسيما المغاربة الذين كانوا لا يعرفون الرحمة ـ فظائع جمة فى الطريق وفى أرض العدو ، ففتكوا على مقربة من برغش (عاصمة قشتالة) بجميع رهبان دير بطرس قديس شرطانيس الذين بلغ عددهم حوالى المائتين (٥١) ، ودمروا العاصمة وعددا كبيرا من الحصون (٥٢) .

غير أن الحال لم تلبث أن تطورت فى الجهات الشمالية تطورا مخيفا

فتكون حلف قوى ضد الخليفة ، وكان أشد المحرضين عليه صـــاحب سرقسطة : محمد بن هاشم التجيبى .

أما بنو هاشم الذين نزلوا أرجونة منذ أيام الفتح فقد أدوا خدمات جليلة للسلطان محمد وقت أن كان بنو قصى (٥٣) لا يزالون فى أوج مجدهم فى هذا الاقليم ، كما ظلت أسرتهم تتوارث مناصب الحكم والولاية فى المناطق الشمالية أكثر من أربعين سنة ، وكانت هى العائلة الوحيدة التى أبقى لها عبد الرحمن الثالث مظاهر النفوذ والعظمة ، على حين قد سلبها من جميع الزعماء العرب ، ومع ذلك لم يكن محمد بن هاشم على وفاق مع الخليفة ، ولربما كان مرجع ذلك الرغبة الملحة فى محو الاهانات التى حاقت بجماعته ، أو لعله لم يكن يرى فى عطف عبد الرحمن عليهم ألا ضرورة فرضها عليه خـــوفه منهم ، أو لعل [محمدا نفســه] كان يتمنى (٥٤) العرش لنفسه ولأولاده من بعده فتحالف مع ملك ليون وأبدى استعداده للاعتراف بسيادته عليه ان هو شد أزره ضد الخليفة ، ووجدت عروضه من راميرو أذنا صاغية .

وفى أثناء حملة ٩٣٤ م (= ٣٢٤ هـ) رفع محمد راية العصيان برفضه الانضمام الى الجيش الاسلامى (٥٥) ، ولم تمض غير ثلاث سنوات حتى اعترف بتبعيته لراميرو ، فأبى بعض قواده متابعته فى خيانته واختلفوا عليه فأقبل راميرو برجاله الى الاقليم وحاصر قلاعه واستولى عليها وكانت لا تزال تابعة للسلطان ، واستنزل القواد من معاقلهم وأسلمهم الى محمد ابن هاشم التجيبى ، فلما تم ذلك تحالف راميرو ومحمد مع اقليم نفارة الذى كان يحكمه غرسية تحت وصاية أمه «طوطة» أرملة شانجة الكبير . حينئذ أصبح الشمال كله يدا واحدة ضد الخليفة وبذلك أطل ثانية برأسه الخطر الذى كان قد اختفى ، غير أن الخليفة واجهه بحزمه المألوف اذ قام فى سنة ٩٣٧ م على رأس جيشه وسار توا الى قلعة أيوب التى كان يحكمهـا مطرف (بن منذر) أحد أقارب محمد (بن هاشم التجيبى) وتتألف حاميتها من فريق من نصارى « ألبة » الذين بعث بهم راميرو ، وقتل مطرف فى الواقعة الأولى فخلفه فى القيادة أخوه الحكم الذى طلب الصلح والأمان الشامل لنفسه ولجنده المسلمين حين رأى نفسه مكرها على الجلاء عن البلد والارتداد عنه الى القلعة التى أسلمها الى الخليفة .

أما الليونيون الذين لم يشملهم الأمان فقد قتلوا عن بكرة أبيهم بحد السيف (٥٦) . وقد أدى هذا الفتح الى استيلاء عبد الرحمن على ما يقرب من ثلاثين حصنا ثم وجه جيشه بعد ذلك ضد نفارة وسرقسطة التى وكل حصارها الى قريب له هو الأمير أحمد بن اسحق قائد الفرسان وولاه حكومة الأراضى الشمالية ، الا أن هذا القائد سرعان ما كان سببا فى أمور آلمت النفس .

على الرغم من أن بنى اسحق هؤلاء عاشوا فى اشبيلية أمدا طويلا عيشة خاملة كلها شظف وشدة ولم يتجنبوا مخالطة من هم دونهم مرتبة الا أنه لم يكن لمطامعهم حد تقف عنده ، اذ كان كبيرهم أحمد يتطلع الى ولاية العهد ، بل انه لم يتورع عن اثارة حفيظة الخليفة بأن أنفذ اليه كتابا يفصح له فيه عن قصده ، وفى الوقت ذاته لم يكن صادق العزم فى نيته تجاه سرقسطة ، فاستشاط الخليفة غضبا من هذا السفه ، وكتب اليه - وهو حانق عليه - يقول له :

« أما بعد فانا كنا نرى الاستحماد اليك استصلاحا لك ، فأبى الطبع الغريزى الا ما استحكم منه فيك الا أن استحوذ عليك ... فالفقر يصلحك ، والغناء يطغيك اذ لم تكن عرفته ولا تعودته ... أو ليس أبوك كان فارسا من فرسان ابن حجاج أخسهم ما لا عنده وأنت يومئذ نخاس الحمير باشبيلية ، فأقبلتم الينا فآويناكم ونصرناكم ، وشرفناك ومولناك واستوزنا اباك ، وقلدناك أعنة الخيل أجمع وفوضنا اليك أمر ثغرنا الأعظم فتهاونت بالتنفير لنا وقلة المبالاة بنا ثم مع هذا الترشح للخلافة .... فأى حسب أو نسب وفيكم قال القائل :

أنتم خشار الخشار وليس خز كخيش
ان كنتموا من قريش تزوجوا من قريش
أو كنتموا قبط مصر فذا التعالى لايش ؟

أليست أمك كان حمدون الساحرة (٥٧) ، وأبوك المجذوم ، وجدك بواب حوثرة بن عباس يفتل الحبال في الطوانة ، ويخيط الحلفاء على باب داره ؟

فلعنك الله ولعن من أنشبنا فى الاستخدام بك .

فيا مأبون ويا مجذوم ويا ابن الكلب والكلبة ... أقبل صاغرا (٥٨) » .

فلما عزله مبغوضا قام أحمد بمساعدة أخيه أمية (بن اسحق) يدبران مكيدة للخليفة الذى اكتشف تآمرهما ونفاهما ، فاستولى أمية على شنترين ، وجاهر بالعصيان ، وكاتب ملك ليون عارضا عليه العمل معه ، وموضحا له نواحى الضعف فى الدولة الاسلامية وهى النواحى التى يمكن منها التغلب عليها ، وخرج (٥٩) ذات يوم عن المدينة فقام أحد قواده وأعاد اليها سلطان الخليفة (٦٠) ففر أمية اذ ذاك الى راميرو وظل أخوه (أحمد بن اسحق) مقيما على ما هو عليه من تدبير المكائد والمؤامرات بعزيمة لا يقل غربها ، ورسم خطة يسلم بمقتضاها الأندلس الى الفاطميين الذين اتصل ببلاطهم ، غير أن عبد الرحمن أحبط مسعاه وقبض عليه وحاكمه ورماه بتهمة التشيع وقتله (٦١) .

في هذه الأثناء رافق التوفيق الخليفة في الشمال وحاصر سرقسطة وفيها محمد (بن هاشم) الذى استسلم له ، ولما كان محمد هذا أقوى رجل في الدولة وأبرز شخص بعد الخليفة فقد عفى عبد الرحمن عنه وأقره على ما بيده (٦٢) ٠

أما «طوطة» (٦٣) التى كانت تبنى آمالا جساما فقد جاءت تطلب مساعدة الخليفة وتعتبره حامى نفارة (٦٤) ، ومن ثم أصبح عبد الرحمن السيد المطلق على جميع اسبانيا باستثناء مملكة ليون وجزء صغير من قطالونيا ٠

الفصل الثالث

الناصر يقرب الصقالبة والخصيان لضرب الأشراف — استعداده لغزاة القدرة • خروج بعض القادة العرب عليه • هزيمتا شلمنقة والخندق • النزاع بين ملوك النصرانية الاسبانية • فرناند كونثالث • ثورة أبى يزيد البربرى ضد الفاطميين • انتصاراته • تغير سلوكه وتحول الناس عنه • نهايته • النزاع بين راميرو وفرناند • موت راميرو الثانى والنزاع حول العرش • اشتداد قوة الفاطميين •

الفصـل الثالث

ظهور فرناند كونثالث

كانت الأعوام السابعة والعشرون الأولى من عهد عبد الرحمن الناصر أعوام نجاح موصول ، غير أن الحظ تجهم له فما لبث الزمن أن تغير وحدث في المملكة انقلاب كبير ، ذلك أن القوة الملوكية قضت على ما كان للأشراف في الماضي من صولة كرهها عبد الرحمن الذى كان يرى أن الواجب يفرض على الحاكم أن يسلب ما في يد الأشراف من سلطة حتى لقد قال (١) ذات يوم لسفير بعثه اليه أوتو الأول « اننى أعتقد أن ملككم حاكم مفكر حاذق غير أني أرى في سياسته ما لا يرضينى اذ يترك بعض المسائل لأتباعه يعالجونها بأنفسهم بدلا من أن يأخذ هو مقاليد الأمور جميعها في يده ، ثم انه يترك لهم ولاياته ظنا منه أنه بذلك يستميلهم اليه وتلك هفوة جسيمة منه ، فليس للرعاية التى يبديها نحو الأشراف من عاقبة غير العمل على زيادة تسلطهم ودفعهم الى التمرد » .

ومع أن الناصر لم يقــع قط في الخطــأ الذى عابه على ملك المانيا الا أنه ارتكب حماقة لا تقل عما أخذه عليه ، ذلك أنه على الرغم من أخذه الأمور كلها في يده وعلى الرغم من أنه لم يصطنع غير « الحاجب » (٢) ، الا أنه خلع كثيرا من المناصب الرفيعة على رجال أخساء وطلقاء وأغراب وأرقاء ، وقصارى القول انه جعلها في أيدى رجال ليس لهم ما يزكيهم سوى قرب منزلتهم اليه ، لأنهم كانوا آلات طيعــة لينة العريكة يحركها كيف شاء ، وكان الصقالبة أكبر من خصهم بثقته فلم يظهر نفوذهم الا في عهده دون سواه فلعبوا دورا بارزا في تاريخ اسبانيا العربية ، ومن ثم ينبغى أن نلم بهم في شيء من التفصيل .

كان لفظ « الصقالبة » يطلق في الأصل على الأسرى الذين تأسرهم الشعوب الجرمانية في حروبها ضد الأمم الصقلبية ثم يبيعونهم (٣) الى مسلمى اسبانيا ، ولكن ما لبث هــذا الاسم أن انسحب على أناس من أجناس أخرى (٤) حتى شمل جميع الأجانب الذين كانوا يستخدمونهم في الحريم أو الجيش أيا كان أصلهم .

وهناك شهادة أوردها رحالة عربى فى القرن العاشر للميلاد مؤداها أن بين الصقالبة الذين يستعملهم خليفة اسبانيا كثيرا من الغاليسيين والفرنجة (أى من الألمان والفرنسيين) وبعضا من سكان السواحل الشمالية للبحر الأسود (٥) ، وكان من بين هؤلاء رجال وقعوا فى أسر القراصنة الأندلسيين ومنهم من اشتروا فى موانى ايطاليا اذ كان اليهود يستغلون فرصة فقر الناس ويعمدون الى شراء أطفالهم ــ ذكورا كانوا أو اناثا ــ ويجلبونهم الى الموانى البحرية حيث تأتى سفن الاغريق أو الهنادقة فى طلبهم وتعود بهم الى المسلمين ٠

كما كانت هناك طائفة أخرى تعرف بالخصيان يستعملون للخدمة فى الحريم ويؤتى بهم من فرنسا التى كانت فيها أسواق الخصيان الضخمة التى يصرف أمورها اليهود وأشهرها جميعا سوق « فردان » (٦) وغيره فى الجنوب (٧) ٠

ولما كان أغلب هؤلاء صغار السن عند وصولهم الى اسبانيا فقد كان من اليسير عليهم اعتناق ديانة سادتهم والالمام بلغتهم والتشبه بهم فى طباعهم ، وأصاب الكثيرون منهم حظا وافرا من التعليم المتقن حتى لقد بلغ الأمر بهم ان كانت لهم مؤلفات وفيهم من نظم الشعر ، وهناك كثير من الأدباء الصقالبة منهم صبيب الذى ألف كتابا برمته درس فيه أشعار الصقالبة ورحلاتهم (٨) ٠

كان عدد الصقالبة ضخما فى بلاط أمراء قرطبة وجيوشهم ، غير أنهم لم يبلغوا من الكثرة ما بلغوه فى عهد عبد الرحمن الناصر ، اذ يذكر البعض أنهم بلغوا ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين (٩) رجلا ، ويذكر آخرون أنهم كانوا ستة آلاف وسبعة وثمانين شخصا ، وترفعهم بعض الروايات الى ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين فردا ، وربما كانت هذه الأرقام تشير الى عددهم فى فترات مختلفة من عهد عبد الرحمن ، لأنه من الثابت أن هذا الأمير لم يكف أبدا عن الاستكثار من الصقالبة ، ومع أنهم كانوا رقيقا الا أنهم كانوا يملكون الضياع الواسعة ٠

وقد عهد عبد الرحمن اليهم بالشئون الحربية وقلدهم المناصب الدينية الهامة وذلك لكراهيته الشديدة للطبقة الارستقراطية حتى انه أرغم ذوى الأحساب النبيلة ــ وهم من نسل أبطال صحراء العرب ــ على الخضوع لهؤلاء القوم الجدد الذين كان العرب يحتقرونهم كل الاحتقار ٠

كان هؤلاء الأشراف العرب ناقمين على الخليفة حين أعلن عن رغبته فى النهوض بحملة ضد ملك ليون تشذو سابقتها فى خطرها ، فرصد لها مبالغ طائلة واستدعى تحت لوائه مائة ألف رجل ، ولما كان واثقا من

النصر القشيب فقد بادر الى تسمية هذه الحملة « بغزاة القدرة » (١٠) ، لكنه للأسف اختار لقيادتها صقلبيا يدعى « نجدة » فغضب القادة العرب من هذا الاختيار ، وأقسموا وهم في سورة حنقهم أن يكفر الخليفة عن امتهانه الارستقراطية القديمة بالهزيمة الساحقة ·

فلما كانت سنة ٩٣٩ م [= شوال ٣٢٧ هـ] نهض الجيش قاصدا شلمنقة فخرج لمنازلته راميرو الثانى وحليفته الملكة طوطة الوصية على نفارة ·

وفى الخامس من أغسطس اشتبك الجانبان فى القتال فترك بعض القادة العرب ساحة القتال وارتدوا على أعقابهم ، ولا شك أنهم لم يتبصروا العاقبة ، فقص أهل لون أثر المسلمين حتى اذا أصبحوا على مقربة من ناحية تعرف بالخندق جنوب شلمنقة وعلى ضفاف نهر دويرة جمع المسلمون شملهم ثانية ونازلوا العدو غير أنهم باؤوا كلهم بالهزيمة ، ونجا الخليفة بعد أن أوشك أن يكون نهبا لسيوف النصارى ، وآلت الحال — بعد وقعة الخندق — من ارتداد الى هزيمة فادحة واضطرب النظام ، وعمت الفوضى ، واختلطت الصفوف بعضها ببعض ، وصاح القوم يريدون انقاذ ما يمكن انقاذه ، واختلط الحابل بالنابل والفرسان بالمشاة ، وامتلأت الطرق بجيف القتلى من العسكر والقادة ، وحاق الدمار بكتائب بأكملها ·

كان لانتصار راميرو الهائل وفوزه الزاهى دوى عظيم فى جميع الجهات حتى بلغ ألمانيا وأقصى بلاد الشرق ، وان اختلفت المشاعر ازاءه فى كل ناحية عنها فى الأخرى ، فاهتزت نفوس طربا وامتلأت أخرى غما وحزنا ، ورأى البعض فيما حدث نصرا لقوم ، وعده آخرون نكبة فادحة (١١) ·

أما الخليفة فقد تسرب الوهن الى نفسه بعد أن لاقى « نجدة » مصرعه (١٢) ·

أما عامله على سرقسطة محمد بن هاشم الذى أسر (١٣) فى المعركة الأولى فى وقعة شلمنقة (١٤) فقد ظل يبكى حظه العاثر فى سجن ليون ، وأدت الهزيمة الى القضاء على جيش الخليفة الذى كاد هو نفسه أن يكون بين القتلى أو الأسرى لولا أنه أنقذ بمعجزة ، وكان الذين نجوا معه تسعة وأربعين رجلا فقط ، فكان لكل هذا تأثيره على نفسه فلم يرافق جيشه بعد ذلك أبدا فى أية حرب خرجها الجيش ·

كان من حسن حظ الخليفة أن شبت الفتنة بين النصارى فحالت بين راميرو وبين جني ثمار انتصاره ، اذ تطلعت قشتالة لاقتسام مملكة ليون التي كانت قد شبت فيها ثورة أيام أردونيو الثاني والد راميرو ، وتظاهر الملك برغبته في حسم النزاع فأعلن عزمه على عقد مؤتمر في طليارة (١٥) على شاطيء كريون الذي يفصل ليون عن قشتالة ·

ودعى الملك الأمراء القشتاليين الأربعة للحضور اليه فلبوا الدعوة ، غير أنه ألقى القبض عليهم وضرب أعناقهم ، فاستنكر أهل ليون ــ على بكرة أبيهم ــ هذا المسلك الشاذ البعيد عن العدل ، لكنهم لم يملكوا الا أن يؤيدوا ملكهم (١٦) ·

وأما القشتاليون فلم يوافقوهم فيما ذهبوا اليه ، ولكن لما لم يكن لديهم قادة يسلمون اليهم زمامهم فقــد راحوا يتطلعون الى اللحظــة التي يرون فيها على راسهم رجلا قادرا على الثأر لهم من الليونيين الخونة ·

ثم حانت أخيرا الساعة التي كانوا يترقبونهــا بفارغ الصبر حين وجدت قشتالة أملها في الكونت فرناند كونثالث الذي صار فيما بعد أحد الأبطال المحبوبين عند شعراء العصور الوسطى والذي لازال اسمه يتردد حتى اليوم على السنة القشتاليين بالاكبار العظيم ·

بينما كانت جيوش عبد الرحمن الثالث المروعة تدمر كل ما في طريقها من الأديرة والقلاع غير مستثنية العاصمة نفسها ، كان من المستحيل على فرناندو العظيم Egregius Comes ــ كما كانوا يسمونه حينذاك(١٧) ــ أن يفكر في تخليص وطنه [من نير (١٨)الليونيين] ، لكنه رأى في الوقت ذاته أن ليس هناك ما يخشاه من جانب العرب ، ومن ثم أعلن الحرب على الملك (١٩) واستغل الخليفة هذه الفرصة لاعادة تنظيم جيشه الذي ما وافى شهر نوفمبر ٩٤٠ م (= صفر ٣٢٩ هـ) حتى كان على أتم أهبــة للاغارة على الأراضي الليــونية بحملة جعل قيادتها الى أحمــد ابن يعلى (٢٠) حاكم بطليوس (٢١) ·

والظاهر أن القدر أراد في الوقت ذاته أن يعوض عليه في افريقية ما خسره في اسبانيا ·

الواقع أنه حتى هذه اللحظة كان الخليفة يخرج من نصر الى نصر في افريقية ، غير أن الأقدار أخذت تعاكسه فتوالت هزائم أنصاره ، وفشلت الخطط التي رسمها ليسيروا بمقتضاها ، ومرت لحظات عجز فيها عن أن يمنع القتال من النشوب فيما بينهم ، الا أنه نجح على أية حال في ابقاء

الفاطميين بافريقية والحيلولة دون رسوهم على الشاطىء الأندلسى ، وكان ذلك منتهى غايته وهدفه ، واذ ذاك استطاع أن يتفرغ لجنى ثمار ما أتاحه له هذا الظرف ·

غير أنه حدث أن قام بالثورة ضد الفاطميين عدو يبز فى خطره كل عدو آخر لهم ، ونعنى به أبا يزيد من قبيلة بنى يفرن البربرية ، وهو ابن تاجر اعتنق منذ نعومة أظفاره عقيدة الخوارج الذين كان لا يزال لهم بافريقية أتباع كثيرون وأشياع عديدون ، ثم أنه أملق بعد موت أبيه فراح يتكسب من وراء تعليم صبيان القرى وأصبح داعية كما هو الحال ازاء مؤسس الامبراطورية الفاطمية ، وأخذ يثير البربر باسم الدين والحق والحرية ، ومناهم بتكوين حكومة جمهورية حالما يتخذون القيروان عاصمة لهم ، واتسم توفيقه بما يشبه المعجزة كما حدث لأعدائه من قبل بسنوات فتلاشت جيوش الفاطميين تلاشى الثلج فى الربيع أمام هذا الرجل القمىء القبيح الطلعة ، المتخذ من الصوف الخشن له لباسا ، والمتطى حمارا أشمط ، وكان السنيون قد نقموا على الفاطميين كفرهم ولم تعد لهم قدرة على مطاردتهم فتقاطرت زمرهم أفواجا تحت لوائه ، كما حمل الفقهاء والزهاد السلاح لنصرة هذا القائد الخارجى ، وكأنما أخذ على عاتقه تحقيق أملهم فما وافت سنة ٩٤٤ م (= ٣٣٣ هـ) حتى دخل العاصمة وترحم على الخليفتين الأولين (٢٢) اللذين أمر الفاطميون بلعنهما ، وطلب الى أهل البلد أن يأخذوا أنفسهم بمذهب الامام مالك الذى أبطله الفاطميون ، فقرت نفوس أهل السنة واستطاعوا أن يغدوا ويروحوا آمنين ، وسارت مواكبهم تخفق فوقها الأعلام وتدق أمامها الطبول بعد أن حرموا من ذلك أعواما طويلة ، وأخذ أبو زيد يقودهم بنفسه فى هذه الاحتفالات العامة ، ثم قدم لهم برهانا جديدا على تسامحه فتحالف مع خليفة الأندلس وأوفد اليه وفدا ، ان لم يكن قد اعترف بسلطانه الزمنى فلا أقل من أنه عده صاحب السلطة الروحية على الأقطار الفسيحة التى استولى عليها (٥٣) ·

ويظهر أن الفاطميين أصبحوا على وشك الدمار ، ففى خلال الوقت الذى كان فيه أبو يزيد بالمهدية يضيق الخناق على سلطانهم القائم (٢٤) استطاع حاكم اسبانيا ـ بفضل أتباعه ومواليه الافريقيين ـ أن يستحوذ على الشمال الغربى بأجمعه تقريبا ، وأثار الناس فى كل مكان ضد عدوه ، ثم حالف ملك ايطاليا Hugues de Provence الذى كان يود أخذ الثأر لجنوة التى نهبها (٢٥) أحد قواد الاسطول الفاطمى ، كما عقد

محالفة أخرى مع امبراطور القسطنطينية الذى كان يتلهف لاستخلاص صقلية من يد القائم (٢٦) ٠

لكن سرعان ما تبدلت الأمور ذلك أن أبا يزيد أثملته نشوة انتصاراته فثنى عطفه تيها ولم يقنع بما بلغه من قوة وما حازه من سلطان ، ونسى الطرق التى نهجها حتى بلغ ذلك فتطلع للمظهر والأبهة الكاذبتين ، واستبدل بعباءته الصوفية الخشنة ثوبا من الحرير ، وبحماره الأشمط جوادا مطهما ، فكان دماره فى غفلته هذه اذ تخلى عنه أغلب أتباعه وهم دعاة المساواة والجمهورية فجرحهم هذا الرجل فى ايمانهم ، وغادره بعضهم الى بلادهم وانضم آخرون الى عدوه ، فأيقظ ذلك أبا يزيد من غفلته ، فنبذ ظهريا مظاهر البلهنية والترف وعاد الى عباءته الخشنة والى حياته الأولى البسيطة الجافة ، لكن الصيف كانت قد ضيعت اللبن فقد تلاشى ما كان له من نفوذ ، ولعله كان لا يزال معتمدا على معونة أهل السنة لو لم يفتح أعينهم — فى لحظة من تعصبه الوحشى — على حقيقة هذا التسامح المزعوم ذلك أنه فى عشية احدى المعارك أمر رجاله بترك جند القيروان — وهم اخوانهم فى السلاح — يلاقون وحدهم نقمة الفاطميين ، فاستجابوا لأمره وقتل الكثيرون من أهل السنة الذين اشتد خوفهم منه منذ ذلك الحين ، وأخذوا يوازنون بين طاغية وطاغية ، وبين هرطيق وهرطيق فآثروا الركون الى الخليفة الفاطمى ٠

وكان المنصور الذى خلف أباه ، أقدر أسلافه على تصريفه الأمور ، فرفع أبو زيد الحصار عن المهدية رغم أنفه ورجع الى القيروان التى تآمر أهلها عليه فلم ينج من كيدهم الا بكل مشقة ، وظل يحارب جند الفاطميين ردحا طويلا سقط بعده أسيرا فى أيديهم مثخنا بجراحه فوضعوه فى قفص من حديد ، ولما مات سنة ٩٤٧ م (= ٣٣٦) حشوا جلده تبنا وطافوا به شوارع القيروان ، ثم علقوه على أسوار المهدية ، وظل على هذه الحال حتى تناثرت أوصاله اربا اربا (٢٧) ٠

كان فشل الخوارج صدمة عنيفة لعبد الرحمن الثالث لا تقل فى ألمها عما لاقاه فى من هزيمة فى شلمنقة والخندق ، وسرعان ما استعاد الفاطميون فى الغرب أراضيهم التى فقدوها وأرغموا رجال عبد الرحمن على اللجوء الى طرطية ٠

أما فى الشمال فكانت الحال على غير ما هى عليه هنا ، فقد جرت الأمور وفق مشيئة عبد الرحمن أو بعبارة أخرى كان هذا الاقليم فريسة للفتنة الطخياء ، فنشبت الحرب — كما رأينا — بين راميرو الثانى وبين فرناند كونثالث وخرج الأول منها ظافرا اذ باغت خصمه وألقى به فى

أحد سجون ليون (٢٨) ، ثم جعل حكم قشتالة ــ بادىءذى بدء ــ في يد ليونى اسمه أسور فرماندز Assur Fernandez كونت مونزن (٢٩) ، ألقى بها من بعده الى ابنه شانجة (٣٠) (سانشو) ، وصــادر أملاك فرناندو ان لم يكن اعتبرها ملكا له ، ثم أراد التقرب الى الشعب فوهب بعضها لذوى النفوذ القوى في الاقليم من الفرسان ورجال الدين (٣١) ، لكنه لم يبلغ هدفه اذ استفاد القشتاليون من تساهل الملك راميرو وظلوا باقين ــ قلبا وروحا ــ على ولائهم لمولاهم الأسير ، ولم يروا فيما منحهم راميرو الا اختــلاسا ، فكانوا فى صكوك البيــع والمهاداة وما شاكلها من الأمور التى يذكرون فيها بعد التاريخ اسم الملك والكونت يذكرون ــ فى بعض الأحيان ــ الكونت الذى فرضه عليهم الملك (راميرو) ، لكنهم كانوا لا يعمدون الى ذلك الا حينما لا يجدون مهربا ، والا حين يكون للسلطة تدخل فى الأمر • وكانوا فى العادة يذكرون اسم فرناند كونثالث •

كذلك أوضحوا بطريقة أخرى ما يكنونه له من الحب حيث أقاموا له تمثالا وأدوا شعائر الاحترام لهذه الكتلة الصخرية (٣٢) ، ولما عيل صبرهم من طول أسر فرناند كونثالث أجمعوا العزم على الانتقام له ، ولندع ذلك للقصة الجميلة (٣٣) المعروفة باسم Turamento LLevan التى تقول :

« لقد أقسم الجميع فى صوت واحد على ألا يرجعوا الى قشتالة من غير سيدهم الكونت فنصبوا تمثاله الحجرى فى مركبته ، وآلوا على أنفسهم الا يعودوا بدونه • لقد أقسموا رافعين الأيدى على ألا يترك الصفوف أحد ما منهم دون أن يصحبهم(٣٤) الكونت •• ولتأدية فروض الطاعة له ركزوا علمه الى جانب تمثاله وقبل الجميع ــ صغيرهم وكبيرهم ــ يد النصب وغادروا برغش وأرباضها المجاورة ، ولم يتخلف بها غير النساء والأطفال » •

خاف راميرو من تقدم القشتاليين فأذعن بعد لأى وأطلق سراح فرناند بعد أن أخذ عليه المواثيق الغلاظ والشروط المهينة ، فأقسم فرناند كارها على الولاء والخضوع له والتخلى عن أملاكه ، وتعهد أن يزوج ابنته أوراك Uraque من أردونيو أكبر أبناء الملك (٣٥) ، وبذلك استرد فرناند كونثالث حريته ، وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يمتنع بتاتا عن مد يد المعونة الى ملك أكرهه على امضاء معاهدة كهذه المعاهدة •

أما القشتاليون الذين فشلوا فى استرجاع السلطة الى من لازالوا يسودونه عليهم فما زالوا ناقمين على راميرو الذى فقد بذلك مساعدة أبسل رجاله ومعونة قومه الصناديد مما أضاع بأسه ، فشن المسلمون

الغارة عليه فى سنة ٩٤٤ م (٣٣٣ هـ) وقاموا بإثنتين غيرهما (٣٦) خلال عام ٩٤٧ م (٣٢٦ هـ) ، ولم يستطع أن يمنعهم من اعادة بناء وتحصين مدينة سالم التى أضحت منذ ذلك الحين حصن الامبراطورية العربية ضد قشتالة (٣٧) ٠

أصبح (راميرو) صاحب انتصار شلمنقة والخندق (٣٨) فى موقف الدفاع بعد أن كان فى موقف الهجوم ، ولم يقم بأية غارة جديدة على الأراضى الاسلامية بعد ذلك الا سنة ٩٥٠ م (= ٣٩ هـ) فلازمه النصر فيها على مقربة من طلبيرة ، لكنه كان آخر انتصار أحرزه اذ ما وافى شـــهر ينـــاير من العـام التالى [= ٩٥١ م / شعبان ٣٣٩ هـ] حتى قبضه (٣٩) الموت ٠

مات راميرو فنشبت الحرب اثر وفاته من أجل العرش ، ذلك أنه كان قد تزوج مرتين فأنجب من زوجته الغاليسية الأولى ابنا سماه أردونيو ، ومن الثانية وهى أوراك (أخت غرسية ملك نفارة) ولدا آخر سماه شانجة ، وكان اردونيو هو الابن البكر فطالب بطبيعة الحال بالعرش ، غير أن شانجة نافسه اعتمادا على معاونة النفاريين (٤٠) له ، وجهد أن يجذب اليه كلا من فرناند كونثالث والقشتاليين ، وبذلك لم يكن من الصعب على فرناند أن يختار الانضمام الى أحد الجانبين ٠

حقيقة أن أردونيو كان زوج ابنته ، لكن كيف يساعده وهو ممقوت اليه مبغوض عنده ؟ ثم انه الى جانب ذلك لايشعر فى نفسه بأدنى ميل اليه؟ ولذلك فانه أيد شانجة لما بينهما من وشيجة القربى (٤١) وبدافع من مصلحته الشخصية ، وكانت الى جانبه طوطة ملكة نفارة وهى حماة فرناند الذى كان لو تردد لتغلبت هدايا شانجة العظيمة على تردده ، فوعده الأمير بارجاع كل أملاكه المصادرة اليه وكذلك امارة قشتالة ، ومن ثم انضم فرناند الى جانبه ودعى رجاله الى حمل السلاح واستصحب شانجة وجيشا نفاريا وتكاتفوا جميعا على مدينة ليون لاستخلاص التاج من أردونيو الثالث (٤٢) ، ويقول أحد المؤرخين العرب (٤٣) انه جرى بين أردونيو ابن أردونيو وبين غرسية اختلاف من الله به على المسلمين » ، والواقع أنه بينما كان النصارى يقتل بعضهم بعضا أمام أسوار ليون كان قواد عبد الرحمن يخرجون من نصر الى نصر فى كل خطوة يخطونهـــا عند الحدود ، ولم يكن رسول يفد من الشمال الا ويحمل الى القوم فى قرطبة نبـأ غزوة موفقة ، أو خبر انتصـــار جـديد حازه المسلمون ، حتى لقد استطاع الخليفة أن يرى الشعب أكواما من النواقيس والصلبان والرؤوس المقطوعة التى عدوها ذات مرة فى سنة ٩٥٥ م (= ٣٤٤ هـ) فكانت

خمسة آلاف رأس معظمها لرجال من قشتالة سقطوا فى ميدان الوغى الذى خاضوا غماره وحملوا لواءه (٤٤) ٠

واذا كان فرناند كونشالت قد انتصر على مقربة من شنت اشتيبن دى جرمان (٤٥) فان أردونيو الثالث رد أخاه وثار من لشبونة بتدميرها ، وأرغم أهل جليقية على الطاعة له بعد أن كانوا من الثائرين (٤٦) عليه ، غير أن هذا لم يكن غير تعويض تافه للخسارة التى أنزلها المسلمون بالنصارى ٠

أما أردونيو الذى كان يخشى قيام ثورات أخرى فقد كان يتلهف على السلام ، وقد أوفد من أجله سفيرا الى قرطبة عام ٩٥٥ م [٣٤٤ هـ] ٠ ولما كان عبد الرحمن راغبا هو أيضا فى السلم كى يوجه جيوشه شطر ناحية أخرى فقد لبى رغبات أردونيو ، وبعث فى العالم التالى (٣٤٥ هـ) الى ليون جماعة من رجاله فيهم محمد بن حسين والعالم اليهودى حسداى بن شبروط (٤٧) ، وكان حسداى هذا هو المشرف على الخراج ٠

لكن هذا التحالف لم يعمر طويلا ٠

ولما كان أردونيو قد أبدى استعداده للمفاوضة عارضا التنازل أو هدم بعض حصون معينة فقد توصل الفريقان الى خطوط معاهدة بينهما قفل بها الرسل الى قرطبة ليصدق عليها الخليفة ٠

وعلى الرغم من أن المعاهدة المقترحة كانت مشرفة لعبد الرحمن وفى صالحه الا أنه لم ير فيها كل ما كان يرجوه ، ولما كان قد نيف على السبعين ولم يعد له أمل فى الغد فقد رأى أن المسألة تتعلق بابنه الحكم أكثر مما تتعلق به هو ذاته ، فاستشاره وسأله الرأى ٠ فأفضى اليه ابنه — وكان هادىء الطبع محبا للسلم — بوجوب امضائها (٤٨) ، ولم ينقض غير قليل من الوقت حتى أقر اتفاقا آخر مع فرناند كونثالث (٤٩) ٠

بذلك لم يبق من خصوم اسبانيا الاسلامية سوى النفاريين ٠

* * *

اذا كان عبد الرحمن قد أبدى فى هذه المرة كثيرا من اللين عن ذى قبل فمرجع ذلك هو رغبته فى الانصراف الى محاربة الفاطميين الذين أخذ بأسهم فى التزايد يوما بعد يوم ، ولما كانوا يتحرقون للثأر من حكام أوربا الذين كان لهم ضلع فى محاولة ابادتهم فقد بدأوا فى الانتقام منهم فى شخص امبراطور القسطنطينية وذلك بتخريب قلهورية (٥٠) ٠

ثم جاءت سنة ٩٥٥ م (= ٣٤٤ هـ) تحمل كل مظاهرها أن تفكير الخليفة الفاطمى الرابع كان منصبا على مهاجمة الأندلس ٠

وحدث اذ ذاك أن بعث الناصر بمركب شديد الضخامة محملة بالبضائع الى الاسكندرية فالتقت في البحر بسفينة قادمة من صقلية وعلى ظهرها رسول موفد من قبل حاكم هذه الجزيرة الى المعز (لدين الله الفاطمي) ، والظاهر أن هذا الأمر لم يكن مجهولا عند ربان السفينة الأندلسية ، وربما ارتاب عبد الرحمن فى أن تكون فى الرسائل التى حملها المبعوث خطة مهاجمة اسبانيا ، ومن ثم أنفذ أمره الى الربان بمعارضتها • ومهما يكن الأمر فقد هاجم ربان السفينة المركب الصقلية وسلبها واستولى على ما فيها من الرسائل •

لكن سرعان ما انتقم المعز اذ أمر حاكم صقلية أن يبحر بالأسطول الى المرية ويستولى أو يحرق كل ما يجده من السفن بهذا الثغر ، فاستولى على نفس المركب التى كانت سببا فى تلك الحملة والتى كانت راجعة من الاسكندرية وعلى ظهرها جماعة من المغنيات والبضائع النفيسة الى الخليفة ، فلما أنجز البحارة الصقليون ما عهد به اليهم من تخريب المرية عادوا الى مراكبهم (٥١) •

ولقد عزم عبد الرحمن على الرد على هذه الحملة فأمر بلعن الفاطميين كل يوم فى الصلوات العامة (٥٢) كما بعث بقائده غالب أمير البحر (٥٣) الى سواحل افريقية كى يخربها ، الا أن تلك الحملة لم تصادف من النجاح ما كان يؤمله الخليفة الناصر — ذلك أنه على الرغم مما أصابه الأندلسيون من الغنائم فى بادىء الأمر الا أنهم ارتدوا على أعقابهم أمام القوات التى كانت تحرس تلك الناحية والتى أكرهتهم على ركوب البحر ثانية •

كان عبد الرحمن قد وصل الى هذا الحد فى محاربة الفاطميين فى الوقت الذى دارت المفاوضات فيه بينه وبين ملك ليون ، وطبيعى أنه كان يتلهف على مسالمة مسيحيى الشمال حتى يوجه كل قوى دولته وثرواتها لمحاربة افريقية ، فكان ذلك مدعاة لعدم تشدده فى فرض شروطه الخاصة •

وما كاد عبد الرحمن يحقق الموادعة حتى ركز كل اهتمامه ضد افريقية ، فأعد حملة كثيفة لم تدع للعمال فى المصانع دقيقة واحدة من الراحة ، وكانت الكتائب تفد من جميع البقاع شطر الموانى وسجلت أسماء الملاحين • غير ان مشاريع الخليفة لم تلبث أن توقفت مرة واحدة حينما مات أردونيو الثالث فى ربيع (٥٤) سنة ٩٥٧ م [٣٤٦ هـ] •

* * *

لقد رأينا آنفا أن أردونيو لم يحصل على السلام المنشود الا بعد أن قدم عروضا معينة ليس من شك فى أن أهمها هو أن يسلم الى عبد الرحمن

حصونا معينة أ ويهدم بعضها ، غير أن شانجة ـ منافس أخيه القديم ـ الذى ولى العرش بعده دون أى عقبة رفض تنفيذ هذا الشرط ، لذلك وجه عبد الرحمن ضد ليون كل ما كان قد جهزه لغزو افريقية ، وأغرى قائده الصنديد أحمد بن يعلى حاكم طليطلة (٥٥) فقام بهذه الحملة ، وما وافى شهر يوليو حتى ظهر ظهورا مؤزرا على ملك ليون (٥٦) ، فكان هذا النصر من غير شك عزاء للخليفة الذى لم يكن راغبا قط في هذه الحرب الجديدة والذى لم يكن يتأخر عن تفاديها لو أنه وجد سبيلا الى ذلك ليس فيه ما يخدش شرفه ، وسرعان ما شعر بالراحة تغمره حين وجد عدوه فى موطىء قدميه .

الفصل الرابع

شانجة بن راميرو • خلعه عن العرش • اختيار أردونيو الرابع مكانه • استنجاد شانجة بجدته طوطة التى قامت ببعث سفارة الى الناصر لمعاونة حفيدها • سفارة حسداى بن شبروط اليهودى • طوطة وحفيدها فى بلاط الناصر • شانجة يسترد عرشه ويعترف بفضل الناصر عليه • موت الناصر سنة ٣٥٠هـ • تقدير أعماله • ضبطه لأمور المملكة • تأسيسه الزهراء •

الفصل الرابع

شانجة وموت الناصر

يقول أحد المؤرخين العرب (١) أن شانجة كان محاربا أجوف فارغا ، وليس من شك فى أنه استعار هذه العبارة من مؤرخ ليونى (٢) معاصر ، ويقصد الكاتبان الاشارة الى أن شانجة جعل هدفه تحطيم نفوذ الأشراف واسترجاع ما كان لأسلافه من السلطان المطلق عليهم مما جعلهم يحسون بالمقت له والكراهية دون أن تتوفر له القدرة التى كان عليها أسلافه ·

والواقع أن شانجة أضاع كل الكفاءات التى هيأت له فى بادىء الأمر تقدير رعيته العظيم ، فأصبح هذا الأمير المنكود مكتظ البدن عاجزا عن امتطاء جواده ، وكان اذا سار فلابد له من مرافق يعتمد عليه ، مما لم يلبث معه أن أصبح مثار السخرية ، وأخذ الناس يتهامسون فيما بينهم بوجوب عزل هذا الملك المضحك العاجز (٣) ·

أما فرناند كونثالث الذى كان يطمع أن يكون صانع الملوك والذى حاول ذلك من قبل ذات مرة ولم يفلح فقد ألهب حفيظة الليونيين ضد الملك (شانجة) وأثارهم عليه (٤) ، مما أدى برجال الجيش لتدبير مؤامرة ضده أفلحت اذ خلعته فى يوم صافى الأديم من ربيع (٥) سنة ٩٥٨ م [= ربيع الثانى ٣٤٧ هـ] وأخرجته من مملكته ·

وبينما كان هذا الملك المخلوع ميمما - والحزن يملأ نفسه - شطر بنبلونة حيث يقيم خاله (٦) غرسية كان فرناند كونثالث مجتمعا برهط من الأشراف لانتخاب ملك جديد غير شانجة ، فوقع اختيارهم على ابن عمه (٧) أردونيو الرابع بن أذفونش (الرابع) الذى لم يكن هناك ما يزكيه عندهم سوى مولده ، فقد كان قميئا أحدب (٨) مداهنا ممتهنا (٩) ، قد بلغ من لؤم الطبع حدا تعارف معه القوم على تسميته بأردون الخبيث (١٠) ، وزوجه أمير قشتالة بابنته « أوراك » أرملة (١١)

أردونيو الثالث التي أصـــبحت اذ ذاك ـ وللمرة الثـانية ـ ملكـة (١٢) على ليون •

في اللحظة التي اجتمع فيها القوم لانتخاب خليفة لشانجة كان هذا الأخير في بنبلونة يقص نبأ الخطب الذى ألم به على جدته العجوزة الطامحة « طوطة » التي كانت تدير دفة الأمور في نفارة باسم ولدها على الرغم من بلوغه سن الرشد منـذ زمن بعيد ، وقد آلت طوطة على نفسها أن تقف الى جانب حفيدها وأقسمت لتعيدنه الى العرش مهما كلفها ذلك من ثمن ، ولم يكن هذا الأمر مبسرا حينذاك اذ لم يكن لشانجة في مملكته القديمة من صديق ذى نفوذ يستطيع الركون اليه والاعتماد عليه ، ناهيك بما كانت عليه نفارة من الضعف الذى يستحيل عليها معه أن تهاجم بمفردها لبون وقشتالة معا ، فكان لزاما على طوطة حينئذ أن تنشد لها حليفا قويا ، أضف الى ذلك أنه كان ينبغي على شانجة ـ وهو يريد استرداد عرشه المسلوب ـ أن يستأصل ما جعله هزأة بين الناس ومدعاة لسخريتهم به ، وهو أن يعالج كرش بطنه الذى لم يكن طبيعيا عنده ، بل نشأ من علة جثمانية كان لابد لها من أن تزول لو توفر لها الطبيب الحاذق والنطاسي الباهر ، غير أن هذا الحكيم المرتجى كان في قرطبة التي كانت وقتئذ مجتمع العبقريات ، ولم يكن من العسير عليه أن يجد فيهـا بغيته ، لذلك رأت طوطة أن تبحث في قرطبة عن الحليف المنشود فعزمت على أن تسأل الخليفة أن يرسل لها أحد الأطباء لعلاج حفيدها ، وأن يمدها بجيش لارجاعه الى عرشـه ، ولا مشاحة في أن هـذا العمل كان جرحا لكبريائها ، كما كان من أنكى الأمور على نفسها أن تجد نفسها مكرهة على التماس المعونة من « كافر » ظلت تناصبه العداء والحروب أكثر من ثلاثين سنة ، كما انه هو نفسه لم يكن يدع عاما يمر دون أن يغير على مملكتها فيخرب سهولها ويحرق قراها ، غير أن حبها لحفيدها ورغبتها الملحة في أن تراه على العرش ثانية وغضبها لما عومل به من مذلة••• كل ذلك كان أقوى من حقدها الطبيعي على الخليفة ، فأوفدت سفارة (١٣) من لدنها الى قرطبـــة •

ولما أفضى السفراء الى الخليفة بما جاءوا اليه فيه أجابهم بأنه سعيد اذ يرسل الى شانجة مطببا ماهرا وانه على استعداد لمعاونته بالرجال حتى يسترد عرشه المسلوب ، ولكن على شروط خاصة سيحملها أحد وزرائه الى بنبلونة •

وعاد المبعوثون النفاريون ، وأرسل عبد الرحمن في طلب اليهودي حسداى وزوده بتعاليمه ثم أذن له في الشخوص الى بلاط نفارة ، وكان الخليفة موفقا كل التوفيق في اختياره حسداي لما كان يجمعه في شخصه

من كل الصفات التى تؤهله لمثل هذه المهمة ، فقد كان يجيد الحديث بلسان النصارى اجادة تامة ، كما كان في الوقت ذاته طبيبا عظيما وسياسيا محنكا ، وكان الجميع يثنون على آرائه ومواهبه وفطنته ومقدرته البالغة ، كما أنه حدث قبل قليل أن وفد رسول من ألمانيا فذكر أنه لم ير قط رجلا باغ من الحنكة والدهاء ما بلغه حسداى (١٤) بن شبروط ، الذى ما كاد يبلغ بنبلونة حتى اكتسب ثقة شانجة لما أخذه على نفسه من ابرائه من علته ووعده بالصحة العاجلة ، ثم أخبره أن الخليفة يطلب منه ثمن وقوفه الى جانبه وهو أن يتخلى له عن عشر قلاع ، فوعده شانجة باجابة طلبه حالما يتبوأ العرش ·

لم يكن هذا كل ما طلبه حسداى بل سأل طوطة الحضور الى قرطبة فى صحبة ابنها غرسية وحفيدها شانجة ، وأصر الخليفة على هذا الطلب ارضاء لكبريائه ، ورغبة منه فى أن يرى شعبه مشهدا لم يسبق له أن أبصر مثيله أبدا حين تركع عند قدميه ملكة نصرانية وملكان مسيحيان متوسلين اليه أن يعينهم بجيوشه ·

ويحق للمرء أن يتوقع الرفض من ناحية طوطة المتكبرة ، اذ الواقع أن رحلتها الى قرطبة كانت أكثر اذلالا من أن تكون مصافاة مع عدوها القديم ، لذلك كان هذا الجانب من مهمة حسداى أكثر جوانب سفارته دقة وحساسية وكان أمر تأدية هذه المهمة ــ لاسيما اقناعها بالسفر الى قرطبة ــ يتطلب حنكة كبيرة ومهارة فائقة ، غير أن حسداى أثبت ما عرف عنه من أنه من أمهر رجالات عصره اذ استطاع التغلب على ملكة نفارة المتكبرة بسحر حديثه ونضج تفكيره وسعة دهائه ، وقوة مكره كما يقول أحد شعراء هذا العصر من اليهود ، فاقتنعت طوطة أن ليس من ثمن غير هذا لارجاع حفيدها الى ملكه ، وجاهدت نفسها جهادا عنيفا حتى رضيت بالرحلة التى أرادها عليها اليهودى حسداى ·

حينذاك أبصرت اسبانيا الاسلامية مشهدا غريبا حيث سارت ملكة نفارة فى وناء ميممة شطر قرطبة ، ووراءها جمع غفير من الأشراف والقسس ، وفى صحبتها غرسية وشانجة التعس الذى لم يكن قد استرد عافيته تماما ، والذى كان يسير متكئا على حسداى ·

واذا كان هذا المشهد قد أرضى كبرياء المسلمين الوطنى فقد كان أكثر ارضاء لكبرياء اليهود الذين رأوا أن تمام الأمر انما كان على يد رجل من بنى جلدتهم فتبارى شعراؤهم فى تمجيد عودته ، وقال أحدهم :

طأطئى الهام أيها الجبال فهذا سيخ يهوذا حيالك ·

ولتمتلىء جميع الأفواه بالضحك والفرحة ·

ولتغن الأرض الجدباء ولتبتسم الصحراء ولتزدهر الورود ··· فقد

جاء شيخ الجميع ...
لقد جاء وفي ركابه الطرب والغناء
لقد كانت المدينة العظيمة هنا — وقت غياب حسداى عنها — تعاو...
مبانيها الرائعة الكآبة ويلفها كلها الظلام .
أما نفراؤها الذين لم تعد عيونهم تكتحل بمرآه الوضاء كالنجوم ...
فقد علتهم غبرة ..
واستبد بنا المتجبرون وأخذوا في بيعنا وشرائنا كما لو كنا عبيدا .
وتلمظوا لازدراد ثرواتنا ، وزأروا زئير الليوث
فاكتنفنا الفزع وتملكنا الرعب لأن المدافع عنا لم يكن موجودا .
لقد وهبنا الله اياه زعيما ، وقربه من الملك مكانا عليا .
فسماه بالأمير ورفع منزلته على كثيرين غيره .
فهو ان سار لم يجرؤ أحد على فتح فمه
وقد أمن ضراوة خنازير الغابات والمدن بفضل لسانه وحده .
لا اعتمادا على الحراب والسيوف (١٥) .

ولما بلغت الملكة والملكان وأتباعهم قرطبة تلقاهم الخليفة في قصره بمدينة الزهراء (١٦) لقاء رائعا كان له وقعه على الغرباء ، وكان ذلك مناسبا كل المناسبة لاعطائهم فكرة بالغة عن سلطانه وثرائه ، ولا شك أنها كانت لحظة سرور بالغ لعبد الرحمن حين أبصر عند قدميه ابن عدوه اللدود راميرو الثانى (١٧) الذى انتصر في وقعتى شلمنقة والخندق ، كما سره أن يرى الملكة الشموس المتكبرة التى قادت بنفسها الجيوش الغالبة في هاتين الوقعتين الخالدتين ، ولكن مهما كان شعوره الداخلى فقد كتمه واصطنع البشاشة في لقاء ضيوفه فجدد له شانجة ما كان قد قطعه على نفسه لحسداى من تسليمه القلاع العشر التى أرادها الخليفة ، كما تم الاتفاق على أن يهاجم الجيش الاسلامى مدينة ليون في الوقت الذى يهاجم فيه النفاريون قشتالة استدراجا لقوات فرناند كونثالث للخروج من هذه الناحية (١٨) .

في هذه الأثناء لم يكن عبد الرحمن قد حول بصره عن افريقية ، بل كان مجدا كل الجد في تجهيز قواته واعدادها ، وفي نفس السنة التى وصلت فيها ملكة نفارة الى قرطبة أبحر (١٩) أحمد بن يعلى بجيش كثيف قوامه سبعون سفينة .

ولازم التوفيق هذه الحملة فأحرقت مرسى الخزر المعروف اليوم باسم La Calle وخربت أرباض سوسة وطبرقة (٢٠) .

كذلك لم ينصرم غير وقت قليل حتى زحف الجيش الاسلامى على مملكة ليون وفى صحبته شانجة الذى تخلص من بدانته المفرطة بفضل عناية حسداى له ، وأصبح – كما كان فى سالف أيامه – سريع الحركة نشيطا (٢١) .

كانت سمورة أول بلد سقط فى يد المهاجمين (٢٢) . وما جاء شهر ابريل ٩٥٩ م (= صفر ٣٤٨ هـ) حتى كان كثير من جهات المملكة قد دانت بالطاعة لشانجة (٢٣) ، ومع ذلك فقد ظلت العاصمة فى يد أردونيو الرابع ، لكنه ما لبث أن ولى عنها مدبرا طلبا للنجاة عند الاشتوريين (٢٤) ، ومن ثم خلصت فى النصف الثانى من سنة (٢٥) ٩٦٠ م (= ٣٤٩ هـ) لشانجة الذى ما كاد أن يستردها ويسترد مملكته حتى أنفذ وفدا الى الخليفة شاكرا له يده عليه ومعاونته اياه، وكتب فى الوقت ذاته الى جميع جيرانه يعلن اليهم نبأ استرداده عرشه ، وأخذ – فى كتبه هذه – يسلق بألسنة حداد كونت قشتالة (٢٦) لغدره به ، وغير بعيد أنه كان لا يزال يخشى جانبه ، بيد أنه اذا كان هذا صحيحا الا أنه سرعان ما تلاشت مخاوفه فقد شن النفاريون الغارة على قشتالة وفق ما تم الاتفاق عليه من قبل ، وفى هذه السنة ذاتها – أعنى سنة ٩٦٠ م (= ٣٤٩ هـ) – أوقعوا الهزيمة بالكونت ، وأسعدتهم ظروفهم فأخذوه أسيرا ، ومنذ ذلك الوقت حاق الفشل بأردونيو (أرذون المراجع العربية) وأصبح ممقوتا محتقرا فى عيون الجميع اذ لم يستطع التمكن من العرش حتى ذلك الوقت الا بفضل نفوذ فرناند الذى أوجده وصنعه (٢٧) ، ومن ثم طرده الأشتوريون من اقليمهم ودانوا بالطاعة لشانجة فلاذ أرذون ببرغش (٢٨) ، وسنلتقى به فيما بعد .

★ ★ ★

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى الشمال اذا بالخليفة يخاطر بنفسه من غير تبصر وسط رياح مارس الهوجاء ، فطرقته علة خيف عليه منها ، الا أن أطباءه نجحوا هذه المرة فى انقاذه ، فلما كان شهر يوليو (ربيع الآخر) نقه من مرضه واستقبل كبار رجاله ، لكن عافيته لم تكن الا أمرا ظاهريا فما لبث المرض أن عاوده فلفظ نفسه الأخير فى السادس عشر من أكتوبر (٢٩) سنة ٩٦١ م [الثالث من رمضان ٣٥٠ هـ] ، وقد أوفى على السبعين من عمره بعد أن حكم تسعة وأربعين عاما .

ليس ثمة اعتراض فى أن عبد الرحمن الثالث كان أعظم خلفاء بنى أمية الذين حكموا الأندلس ، وكانت أعماله آية الاعجاز فى انجازها ، فقد جاء فى وقت كانت الأندلس فيه نهبا للفوضى والحروب الأهلية ، كما أنها كانت قد تفرقت أحزابا وتقاسمها رهط من الأمراء من مختلف

الجنسيات ، كما كانت عرضة لغزوات مسيحيي الشـــمال المســـتمرة بلا انقطاع ، وكان البلد على وشك أن يذهب لقمة سائغة لليونيين أو [لفاطميى (٣٠)] افريقية •

ولقد تخطى عبد الرحمن كثيرا من العقبات الكأداء التى اعترضت طريقه ، فأنقذ بلاد الأندلس من أوصابها الداخلية ومن السيطرة الأجنبية على السواء ، وجعلها أقوى مما كانت عليه فى الماضى ، وبوأها مكانة لم تشغلها قط من قبل ، فانتظمت أمورها بفضل سياسته ؛ وعمها الرخاء ، كما بلغت الدولة من الهيبة والاحترام فى الخارج مبلغا عظيما وزادت ماليتها بعد أن كانت مشرفة على الافلاس وقت توليه الحكم ، حتى أوقف على الجند ثلث جباية الامبراطورية الذى كان يبلغ فى العام الواحـد (٦٢٤٥٠٠٠) ستة ملايين ومائتين وخمسة وأربعين ألف دينار) وادخر الثلث الثانى لوقت الحاجة وخصص الباقى للعمارة (٣١) ، حتى اذا كان عام ٩٥١ م (= ٣٤٠ هـ) بلغ مجموع ما فى خزائنه عشرين مليون دينـــار •

ويؤكد أحد الرحالة المسلمين — وكان خبيرا بالشئون المالية — أن عبد الرحمن الثالث والحمدانى — حاكم الجزيرة اذ ذاك — كانا أغنى أمراء هذا العصر (٣٢) •

ولقد عم الرخاء الأندلس وأصـــبح الناس فى ســـعة ، وازدهرت الصناعة والزراعة والتجارة والفنون والمعارف ، وكان نظر الغريب لا يقع فى البلاد الا على حقول مخضرة ، تروى وفق نظام دقيق قائم على أسس علمية ثابتة أحال الأراضى الى جنات مثمرة دانية القطوف ، كما استرعى انتباه (ابن حوقل) هذا النظام (٣٣) الكامل الذى كان سـائدا فى الأقاليم البعيدة والذى كان الفضل فيه راجعا الى سياسة عبد الرحمن اليقظة ، كما أدهشه رخص أسعار الغلال والفواكه اللذيذة ، وأعجبه ما كان ينعم به الناس من فاخر الثياب ومن الثراء الذى كان يسمح لكل فرد بركوب البغال بدلا من الترجل (٣٤) •

وشهدت قرطبة والمرية وغيرهما من البلدان كثيرا من الصناعات ، وتقدمت التجارة فكانت رسوم الصادر والوارد تؤلف الجزء الأعظم من دخل الدولة كما جاء ذلك فى تقرير رئيس الجمارك (٣٥) •

ولم يكن يدانى قرطبة فى كثرة سكانها الذين بلغوا نصف مليون نسمة،ومساجدها التى بلغت ثلاثة آلاف مسجد،وقصورها الفخمة التى أربت على ثلاثة عشر ألف بيت ، وحماماتهـا الثلاثمائة وأرباضهـا الثمانيـة والعشرين (٣٦) •••• أقول لم يكن يضاهى قرطبة فى ذلك كله وفى سعتها وبهائها غير بغداد التى يميل أهلها لمقارنتها بها (٣٧) • وشرق

صيت قرطبة وغرب حتى بلغ أقصى ربوع ألمانيا فسماها القاضى السكسونى رزفينا « زينة الدنيا » (٣٨) وهو الكاهن الذى ذاع اسمه فى النصف الثانى من القرن العاشر بما نظمه من القصائد وألفه من المسرحيات اللاتينية،ولم تكن المدينة المنافسة لها [وهى الزهراء] التى بناها عبد الرحمن بأقل منها بهاء ، فلقد سألته احدى محظياته يوما أن يوصى لها بمبلغ جسيم كان قد نحاه جانبا لافتداء من وقع من المسلمين أسرى فى يد العدو فأنبأه عماله أنهم لم يجدوا أسيرا واحدا فى مملكة نفارة أو ليون بعد أن جاسوا خلالهما تفتيشا عن الأسرى ، فلما سمعت جاريته الزهراء ذلك قالت له : « اشتهيت لو بنيت لى مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة بى » . فوقعت هذه الفكرة عند الخليفة موقع الرضا ، وكان يهوى اقامة العمائر شأنه فى ذلك شأن جميع الأمراء العظام .

فلما كان يوم ١٩ نوفمبر (٣٩) سنة ٩٣٦ م [أول المحرم سنة ٣٢٥ هـ] وضع فى الشمال منقرطبة أساس مدينة سميتبالزهراء ، ولم يأل جهدا فى جعلها آية فى الفخامة وجعل فى بنائها عشرة آلاف عامل واستعمل ألفا وخمسمائة دابة . واستغرق انشاؤها ربع قرن من الزمان .

ومع ذلك فقد مات منشؤها قبل أن يتم الفراغ منها ، وكان الخليفة قد وعد كل مقيم بها أربعمائة درهم ، فتقاطر الناس لسكناها .

وأما قصر الخليفة الذى اجتمعت فيه عجائب الشرق والغرب معا (٤٠) فقد كان بالغ الضخامة ، كما كان يوجد فى حريمه ست آلاف امرأة (٤١) .

لقد كانت قوة عبد الرحمن مكينة فمكننه عمارته البحرية الفخمة من منافسة الفاطميين فى سيادة البحر الأبيض المتوسط ، وضمنت له الاستحواذ على سبتة مفتاح بلاد المغرب — كما كان عنده جيش كثيف كامل السلاح لعله أحسن جيوش عصره (٤٢) ، وهو الجيش الذى أتاح له الغلبة على نصارى الشمال ، فخطب وده الملوك الشامخون بأنوفهم تيها ، وجاءته رسل امبراطور القسطنطينية وملوك ألمانيا وايطاليا وفرنسا تنشد صداقته .

وطبيعى أن تؤدى هذه الحال الى خير النتائج ، غير أن الذى يبعث الباحث على الاعجاب والدهشة حين يدرس هذه الفترة العظيمة هو الفاعل نفسه أكثر من العمل ، وكذلك ألمعية هذا الذكاء اللوذعى الذى كانت لا تفوته شاردة الا وعاها ، ولا واردة الا حفظها ، والذى أبدى اهتماما عظيما بكل ما يعرض مهما دقت تفاصيله .

وليس من شك فى أن هذا الرجل الطلعة الحكيم الذى تبلورت فيه وحدة الأمة والقوة ، والذى استطاع أن يوجد نوعا من توازن القوى بفضل محالفاته ، والذى بلغ من تسامحه أنه كان يستشير الرجال أيا كان دينهم ٠٠٠٠ أقول ليس من شك فى أن هذا الرجل كان يعد من حكام العصور الحديثة المثاليين أكثر من أن يكون ملكا من ملوك العصر الوسيط ٠

الفصل الخامس

أوليات خلافة الحكم بن عبد الرحمن • وصول أردونيو الخبيث الى مدينة سالم وترحيب الخليفة به • أردونيو فى الزهراء • الحكم يعد بالتأييد والنصر وهو يعد بالوفاء • شانجة يخاف الموادعة بين الحكم وبين أردونيو فيبعث فى طلب تجديد الاتفاق الذى كان بينه وبين عبد الرحمن الناصر • ثم يتراجع لموت أردونيو • الحكم يؤدب الكونتات فيعودون للموادعة • شانجة يهاجم جليقية ثم موته مسموما • ابنه راميرو الثالث يخلفه تحت وصاية عمته الراهبة • اهتمام الحكم بالكتب والمكتبات • طلبه كتاب الأغانى • المدارس بالمجان • جامعة قرطبة وعلماء المشرق بها •

الفصـــل الخامس

خلافة الحكم بن عبد الرحمن

مات عبد الرحمن الثـالث فلم يحزن لموته أحـد فى بـلاط ليون ولا بنبلونة على الرغم من الخدمات الجليلة التى أداها لهما ، بل الذى حدث فعلا هو أن كلا منهما رأى فى موته الفرصة المتاحة لنقض الاتفاقيات التى كانت بينه وبين المسلمين للتخلص من السيادة الاسلامية التى رأى فيها كلاهما غلا ثقيلا له بعد أن لم يعد له صالح ما فى بقائها منذ زمن بعيد ، وخيل الى رجال هذين البلاطين أن هذه خير فرصة ينبغى عليهم انتهازها للخلاص من كل ما التزموا به للمسلمين لاسيما وأن الحكم الثانى خليفة الناصر كان رجلا أميل الى السلم والموادعة ، وكان الظن به عندهم أنه لن يصر على تنفيذ معاهدة عقدها أبوه · وعلى أية حال فقد كان من الحكمة التريث حتى تشب حرب تكشف عن مقدار نجاحه بالنســـبة لســـلفه ·

وسرعان ما تهيأت الظروف لأن يستلفت الحكم انتباه جيرانه ، ذلك أنه لما طولب شانجة بالوفاء بتسليم القلاع المتفق عليهـا أخـذ يماطل ويسوف ويتحايل لتأجيل الوفاء بهذا الوعد (١) ، كما رفض غرسية سؤاله بتسليمه أسيره فرنانده كونثالث (٢) ، بل لقد ذهب أبعد من ذلك فرد عليه حريته بعد أن وعده أن يكون معه فى مصاولة صهره أردونيو الرابع ، وبر له بوعــــده فأمر بأن ينتزع أردونيو فى فظاظة من بين زوجتـــه وابنتيـــه فكـــان له ما أراده وانتزعـــوه من بينهم ، ثم ســـار به حرس قـــوى الى الاقليـــم الاســـلامى (٣) ، وحينئـــذ قـــام فرناند ــ ولم يكن مقيـــدا قط بمعاهـــدة كملكى نفارة وليــــون ــ وجاهر المسلمين بالعداء (٤) مما دفع الحكم فى فبراير ٩٦٢ م (= ٣٥١ هـ) للكتابة الى قواده وعماله بالتأهب للحرب (٥) ·

فى هذه الأثناء وصل أردونيو الخبيث الى مدينـة سالم يصحبه العشرون نبيلا الذين ظلوا وحدهم مقيمين على الولاء له ، فشاهدوا فى هذه المدينة ما أعده المسلمون للحرب ، فنضرت هذه الحال الأمل فى نفس

أردونيو ، ولما كان ابن عمه قد استرد العرش على يد عبد الرحمن فقد فكر في أن يكون رجوعه هو الآخر الى عرشه على يدى ولده الحكم ، فأبدى لغالب والى مدينة سبتة رغبته في الشخوص الى قرطبة ليسأل الخليفة حمايته اياه ، فشاور غالب الخليفة الحكم ماذا يكون رده عليه واجابته ايـــاه .

أما الخليفة الذى لم يسخطه أن يكون تحت يده مدع والذى لم يبت في الموضوع نهائيا فقد أجاب بأن في استطاعة غالب أن يسوق أردونيو وحاشيته الى قرطبة ، وخرجت للقائهم كوكبة من الفرسان بعث بها الحكم لمصاحبتهم ، كما لقيتهم كوكبة أخرى أكثر من سابقتها عددا عند أرباض العاصمة ، ولم يدخر أردونيو وسعا في اكتساب العطف الجميل من عسكر الخليفة الذين أخذ يتملقهم ، فما كاد يدخل قرطبة حتي سـأل القوم أن يأخذوه الى قبر الناصر فلما أوقفوه عند القبر تقدم نحوه في خشوع والتفت اليه وجثى على ركبتيه واستمطر الرحمة على روح السلطان الذى خلعه عن العرش قبل موته بقليل ، لكن كان الأمل في استرداد الصولجان قد ملك عليه نفسه فأنساه كل شيء فلم يعد يحجم عن قبول أية اهانة تلحقه مادامت تبلغه هدفه وتحقق له بغيته .

وقضى أردونيو يومين في قصر (٦) فخم أعد لنزوله ، ثم جاء الاذن بالتوجه الى مدينة الزهراء لمقابلة الخليفة فتدثر برداء وعباءة من الحرير الأبيض ، وكان ذلك بطبيعة الحال دليلا جديدا على ولائه للأمويين فقد كان البياض شعارهم ، ووضع على رأسه قبعة رصعت بالأحجار الثمينة وأقبل عليه أمراء الأندلس النصارى كالوليد بن خيزران قاضي نصارى قرطبة وعبيد الله بن القاسم مطران طليطلة ليمضوا به الى الزهراء ويوقفوه على آداب اللقاء ومراسيمه التى كان بلاط قرطبة يوليها غاية اهتمامه .

وسار أردونيو ورفاقه الليونيون بين صفوف الجند الذين اصطفوا على جانبي الطريق الى مدينة الزهراء ، فظهرت الدهشة على الأمير النصرانى ورجاله ، وعلتهم الرهبة من هذه المظاهر الحربية فغضوا من أبصارهم ورسموا الصليب على صدورهم ، حتى اذا بلغوا أول باب من أبواب القصر ترجلوا جميعا سوى أرذون ورجاله الليونيين ، فلما بلغوا الباب المسمى بباب « الســدة » ترجل الأخيرون ، ولم يبق على الخيل ســـوى أردونيو والقائد ابن طملس فقد ظلا على جواديهما حتى صارا على مقربة من ايوان صفت فيه الأرائك ليتخذ منها هو ورجاله مجلسهم . ولقد شاهد هذا الايوان من قبل شانجة ينتظر الاذن له بالمثول بين يد الخليفة حينما جاءه ملتمسا مساعدته .

ومضت فترة من الوقت أذن بعدها لليونيين بدخول قاعة الاستقبال .

فلما بلغ أردونيو بابها نزع قبعته من فوق رأسه وخلع عباءته وبرنسه دليلا على الاحترام ، ثم تقدم حين أمر بالتقدم حتى صار قبالة العرش الذى كان الخليفة جالسا عليه وحوله اخوته وأقاربه ووزراؤه وقاضيه وفقهاؤه ، وجثى عدة مرات ، وكان كلما تقدم خطوة خر ساجدا حتى واجه الخليفة فمد هذا اليه يده فقبلها أردونيو ثم تراجع الى الوراء بظهره وجلس على أريكة من الحرير المشجر على بعد خمسة عشر قدما من العرش ، ثم أقبل السادة الليونيون وفعلوا فعل مولاهم مع الخليفة وقبلوا يده ثم عادوا الى مكانهم مصطفين وراء سيدهم الذى كان يقف على كثب منه الوليد بن خيزران (٧) الذى قام بالترجمة بين الطرفين .

وأطرق الخليفة لحظات حتى أفرخ روع الملك السابق مما شاهده من لقاء رائع لم يكن يدور قط بخلده ثم قال الخليفة له « ليسرك اقبالك ، ويغبطك تأميلك فلدينا من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته » ، فلما ترجمت هذه الكلمات العذاب لأردونيو تهلل وجهه بالبشر وهب واقفا وتقدم فقبل البساط الذى يغطى سلالم العرش وقال : « أنا عبد أمير المؤمنين مولاى المتورك على فضله ، القاصد الى مجده ، المحكم فى نفسه ورجاله ، فحيثما وضعنى من فضله وعوضنى من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة » ، فقال الخليفة : « أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا ، وسينا لك من تقديمنا لك وتفضيلنا اياك على أهل ملتك ما يغبطك وتعرف به فضل جنوحك الينا واستظلالك بظل سلطاننا » .

فلما فرغ الخليفة من كلامه هذا عاد أردونيو فخر ساجدا وابتهل داعيا له ثم أفصح عن مرماه بقوله : « ان شانجة ابن عمى تقدم الى الخليفة السابق مستجيرا به منى فكان من اعزازه اياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم ، وكان قصده قصد مضطر قد شنأته رعيته وأنكرت سيرته واختارتنى مكانه من غير سعى منى — عام الله ذلك — ولا دعاء عليه ، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا ، فتطول عليه — رحمه الله — بأن صرفه الى ملكه وقوى سلطانه وأعز نصره ، ومع ذلك لم يقم بفرض النعمة التى أسديت اليه ، وقصر فى أداء المفروض عليه فى حقه وحق مولاى أمير المؤمنين من بعده . وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة من قرارة سلطانى وموضع أحكامى ، محكما له فى نفسى ورجالى ومعاقلى ومن تمويه من رعيتى ، فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة » .

فقال الخليفة : « قد سمعنا قولك ، وفهمنا مغزاك ، وسوف يظهر من اقراضنا اياك على الخصوصة شأنه ويترادف من احساننا اليك به أضعاف

ما كان من أبينا رضى الله عنه الى ندك ، وان كان فضل التقدم بالجنوح الينا والقصد الى سلطاننا فليس ذلك مما يؤخرك عنه ولا ينقصك مما أنلناه ، وسنصرفك مغبوطا الى بلدك ونشد أواخى ملكك ونعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك نقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك ، وسيترادف عليك من أفضالنا فوق ما احتسبته ، والله على ما نقول وكيل » ٠

فكرر أردونيو الخضوع وأسهب فى الشكر ثم انتصب واقفا وغادر الغرفة مستدبرا ، فلما دخـل الحجرة المجاورة أفضى لمن كان يتبعه من الخصيان عما بهره وأذهله من جلال المشهد الذى أبصرته عيناه حتى لقد خر ساجدا أمام مقعد اعتاد الخليفة الجلوس عليه ، ثم أخذوه بعد ذلك الى جعفر الحاجب فأظهر أردونيو له الاحترام وهم بتقبيل يده لولا أن جذبها الحاجب وعانقه ثم أجلسه الى جواره ، وأكد له أن الخليفة لابد وأن يبر له بكل ما قطعه على نفسه من عهد له ، ثم ناوله الخلع التى خلعها الخليفة عليه وعلى من معه ، كل قدر استقامته ومرتبته ، وخرج الجميع مع ملكهم بعد توديعهم الحاجب قاصدين البهو فوجد أردونيو فرسـا قطوانا فى سرجه ولجامه أخرجوه من أجله من اسطبل الخليفة فامتطاه ، وعاد والأمل يملأ جوانحه مع رجاله الليونيين والقائد ابن طملس ومضوا الى القصر النازلين به (٨) ٠

ولم ينقض زمن طويل حتى أسلموه معاهدة ليمهرها قاطعا فيها على نفسه العهد أن يعيش فى سلم دائم مع الخليفة ، وأن يسلمه ابنه غرسية رهينة لتأكيد العهد ، وألا يحالف أبدا فرناند كونثالث ، فأمضى أردونيو ذلك كله واذ ذاك وضع الحاكم تحت تصرفه فريقا من الجيش بقيـادة غالب (٩) ، ولم يكتف بهذا بل جعل له بعض المستشارين كالوليد قاضى نصارى قرطبة ، وأصبغ (١٠) بن عبد الله بن نبيل كاثوليكها (١١) وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة (١٢) بعد أن أمر الذين وكل اليهم العناية بغرسية أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لارجاع الليونيين الى طاعة أردونيو (١٣) ٠

كان لهذه الاستعدادات دوى عظيم فى كل مكان ، ولم يكن القوم مخطئين حين طمعوا أن يدب الخوف فى نفس شانجة الذى أدرك حرج مركزه وصعوبة موقفه ، اذ كانت جليقية تنكر عليه مكانته ولا تعترف به (١٤) ، لذلك لم يكن من العسير على أردونيو الاعتماد على معونة هذا الاقليم له ان هو دخله بالجيش الاسلامى ٠ أما أقاليم المملكة الأخرى التى خضعت مكرهة لشانجة فقد توقع الجميع أنها سوف تؤثر خلعه للمرة الثانية بدلا من أن تغامر بنفسها في حملة من أجله ٠

كذلك استعد شانجة من جانبه فأرسل (١٥) فى شهر مايو الى الخليفة بقرطبة بعض الأشراف والمطارنة مجددين له البيعة التى قطعها على نفسه فى تنفيذ كل ما تقضى به المعاهدة (١٦) ، لهذا لم يفكر الحكم — وقد نال كل ما ابتغى — فى الوفاء بالعهود التى قطعها لأردونيو ، وذهب أدراج الرياح كل ما أبداه أردون الأمعة التعس من التذلل المعيب ، والظاهر أنه لم يستطع تحمل ضياع آماله بذا فلم يعد اسمه يجرى على ألسنة الأندلسيين اذ يقال انه ما لبث أن مات (١٧) بقرطبة ، وكل ما هناك يحمل على الاعتقاد أنه مات قبل نهاية سنة ٩٦٢ م • وبموته تلاشت مخاوف شانجة الذي ما لبث أن أعلن استقلاله ونكث (١٨) بعهوده اعتمادا منه على مساعدة (خصمه فرناند) كونت قشتالة وملك نفارة والكونتين القطلونيين بوريل وميرون له • وحينذاك اضطر الحكم الى شن الحرب على النصارى فزحفت جيوشه أولا على قشتالة مستولية على حصن شنت اشتيبن دى جرمان سنة ٩٦٣ م (= ٣٥٢٠ هـ) فأرغمت بذلك كونت فرناند على طلب الصلح (١٩) الذى نكثه قبل أن ينعقد ، فحاربه غالب وكانت المعركة بينهما فى أنتيسة وكان النصر لغالب ، كما أن يحيى بن محمد التجيبى — حاكم سرقسطة — هزم الملك غرسية الذى فقد مدينة قلهرة الهامة التى أحاطها الحاكم باستحكامات جديدة (٢٠) ، كما أعاد فى نفس الوقت ترميم ما تهدم من حصن شنت اشتيبن فى قشتالة وشحنه بالرجال والمقاتلة •

وقصارى القول أنه على الرغم من كراهية الحكم للحرب التى قامت رغم أنفه الا أنه أبلى فيها البلاء الحسن حتى اضطر أعداءه للسعى فى الصلح ، فكان أولهم شانجة ملك ليون سنة (٢١) ٩٦٦ م (= ٣٥٧ هـ) واقتفى أثره بوريل وميرون اللذين حاقت بهما المصائب الجمة فتكفلا بهدم أسوار قلاعهما القريبة من التخوم الاسلامية (٢٢) ، وبعث غرسية ملك نفارة — بعض الأمراء والقسس إلى قرطبة ، كما أن شريفا جليقيا هو الكونت رزريق فولسك أنهض أمه رسولا من قبله الى الخليفة فى طلب الصلح فلقيها الحاكم بالترحاب العظيم ووصلها بخلعة (٢٣) ثمينة •

كان السلام الذى عقده الخليفة مع جل جيرانه طويل المدى اذ كان الحكم نفسه يميل للسلم بكل جوانحه ، كما أصبح النصارى فى حال من الفوضى الشاملة فلم يعودوا للتفكير فى امتشاق السيف من جديد ضد المسلمين •

بينما كانت المفاوضات جارية بين الخليفة وبين شانجة قام الأخير بمهاجمة جليقية التي كانت دائمة الثورة عليه ، فى اخضاع كل النواحى

الواقعة الى الشمال من نهر دورو ، ثم حدث أن الكونت جونزالف — الذى جمع جيشا ضده بالجنوب من هذا النهر — طلب مقابلته وتمت المقابلة غير أن جونزالف الخائن دس للملك فاكهة مسمومة ما كاد يأكلها حتى غشى عليه وعلى الرغم من تأثير السم على قلبه الا أنه لم يمت لساعته ، وأخذ شانجة يفضى الى جماعته — آنا بالاشارة وآنا بالكلمات المتقطعة — برغبته فى أن يذهبوا به الى ليون ، لكنه مات فى اليوم الثالث وهو فى الطريق (٢٤) •

* * *

مات شانجة فخلفه على العرش ولده راميرو الثالث الذى كان فى الخامسة من عمره فقامت بالوصاية عليه عمته « ألفيرة » الراهبة بدير سان سافادور دى ليون ، غير أن وجوه المملكة عز عليهم أن يخضعوا لامرأة وطفل لم يشب بعد عن الطوق فبادروا الى اعلان استقلالهم (٢٥) وبذلك أصبحت المملكة نهب جماعة من الأمراء الصغار ناهيك بما آلت اليه من الضعف الشديد ، ومضت ثلاث سنوات (٢٦) على جليقية يخرب أرباضها جيش قوامه ثمانية آلاف دانيمركى كانوا بادىء ذى بدء فى خدمة ريتشارد الأول دوق نرمنديا الذى بعث بهم بعد ذلك الى اسبانيا حين أصبح فى غير حاجة اليهم ، ومن ثم لم تعد ألفيرة الوصية تحلم بشن غارة على المسلمين (٢٧) •

استمرت الغارات تتوالى على قشتالة فترة من الزمن (٢٨) ، غير أن موت فرناند كونثالث عام ٩٧٠ م (= ٣٦١ هـ) أتاح للخليفة هدوء البال من هذه الناحية ، ومن ثم استطاع التفرغ لرعاية الآداب والعناية بتقدم بلده ورخائه •

والحق أن اسبانيا لم تشاهد من حكامها حاكما مثله ، وعلى الرغم من ان جميع أسلافه كانوا أهل ثقافة ميالين لملىء مكتباتهم بالكتب الا أنه لم يكن فيهم من عنى عنايته الكبيرة باقتناء الكتب القيمة والنادرة ، فكان له وكلاء فى القاهرة وبغداد ودمشق والاسكندرية يتصيدون له الكتب القديمة والحديثة على السواء وينسخونها أو يشترونها له دون التفات الى ارتفاع أثمانها ، فازدحم بها قصره ، وكان به جناح لا تقع العين فيه الا على النساخ والمجلدين والمنمقين • كما أن فهرست مكتبته وحده كان يقع فى أربع وأربعين كراسة ، ويقول البعض انه كان فى كل كراسة عشرون ورقة ، ويقول آخرون بل خمسون اقتصر فيها على عناوين الكتب ولم تشمل وصفها — ويذكر بعض الكتاب أن مجلداتها بلغت أربعمائة ألف مجلد قيل انه قرأها وعلق على الكثير منها ، وكان يكتب فى أول الكتاب أو نهايته اسم مؤلفه ولقبه وينسبه الى عائلته وقبيلته مع الاشارة الى عام مولده وسنة وفاته وذكر أخباره ، وكانت هذه ملاحظات قيمة ولم

يكن هناك من أحد يجارى الحكم فى إلمامه بالتاريخ الأدبى حتى لقد كان جلة علماء الأندلس يعدون تعليقاته مرجعا موثوقا ، وطالما ألم بالكتب الموضوعة فى فارس والشام قبل أن تطالع فى الشرق ، ولم يكد يسمع بخبر عالم من علماء العراق (وهو أبو الفرج الأصفهانى) وأنه وضع كتابا جمع فيه بين دفتيه أخبار الشعراء والمغنين العرب حتى أرسل اليه ألف دينار سائلا اياه أن يبعث اليه بنسخة منه حين الفراغ من وضعه ، فبادر أبو الفرج - وقد استخفه السرور - بتلبية طلبه قبل اذاعة مجموعته الفائقة المسماة بالأغانى التى ما زالت حتى اليوم محل اكبار الأدباء ٠

وكانت النسخة التى بعثها الى خليفة الأندلس متقنة وقد أرفقها بقصيدة فى مدحه وببحث عن نسب الأمويين - فوصله الحكم بصلة أخرى (٢٩) ٠

ومجمل القول انه لم يكن هناك حد لعطف الحكم على العاماء من أهل الأندلس والأجانب على السواء ، فازدحم بهم بلاطه ، وامتد عطفه فشمل الجميع وأفاء عليهم ظل رعايته لم يستثن من ذلك أحدا حتى الفلاسفة الذين حينما لاذوا الى كنفه انما لاذوا بكهف منيع استطاعوا فى ظله أن يتابعوا دراساتهم دون أن يخشوا نقمة الأتقياء أو غضبهم عليهم أو قتلهم اياهم (٣٠) ٠

وطبيعى أن تزدهر جميع فنون العلم فى عهد أمير مثقف كهذا الأمير ، فكثرت المدارس وآتت أكلها ، وكاد جميع أهل الأندلس أن يكونوا ملمين بالقراءة والكتابة فى الوقت الذى كانت فيه أوربا النصرانية - بجميع رجالها ذوى المكانة الرفيعة عدا القسس - فى حالة من الجهالة طخياء ٠ وقامت المدارس (٣١) بتدريس النحو والبيان ٠

ومع ذلك فان الحكم كان يرى أن التعليم غير منتشر كما ينبغى أن يكون ، وقد دفعته الرغبة فى تثقيف الطبقات الفقيرة لأن ينشىء فى عاصمته سبعا وعشرين مدرسة ينال فيها أبناؤ العامة حظا من العلم من غير أجر يدفعونه ، متكفلا هو بدفع رواتب المدرسين من جيبه الخاص (٣٢) ٠

وطبقت الخافقين يومذاك شهرة (٣٣) جامعة قرطبة ، فجلس للحديث بها أبو بكر (٣٤) بن معاوية القرشى ، كما أملى بها أبو على القالى - وهو من أهل بغداد - مجموعة كبيرة طريفة فى الغريب من أخبار العرب القدماء وأمثالهم وأشعارهم ، وقد طبعت هذه المجموعة فيما بعد تحت اسم « الأمالى » (٣٥) ٠

وقام بتدريس النحو ابن القوطية الذى كان أبو على يعده أكبر علماء الأندلس فى هذا الفن (٣٦) ٠

وبرز في العلوم الأخرى رجال أفذاذ لا يقلون عن هؤلاء شأنا ، فوفد على دروسهم آلاف من الطلاب الذين كان أكثرهم شديدى الولع بدراسة الفقه الذى يؤهل صاحبه لأرفع المراتب شأنا (٣٧) .

وفى أحضان هذه الجماعة الجامعة الفتية ظهر رجل لم يقتصر شهرته على اسبانيا وحدها بل دوت فى جميع أنحاء العالم أجمع وينبغى أن نلم بأمره فى هذا الصفحات (٣٨) .

الفصل السادس

أوليات المنصور بن أبى عامر • أحلامه العظيمة • أصله • التحاقه بالقصر وتعرفه بصبح البشكنسية • تقدمه عندها وعند حريم القصر • تدفق الأموال بين يديه • حب الناس له • خروجه لمحاربة ابن طملس القائد الأندلسى والحسن بن كنون الأدريسى • حملة غالب أمير البحر ضد ابن كنون • اخضاعه الادراسة •

ابن طملس القائد الأندلسى والحسن بن كنون الأدريسى •

حملة غالب أمير البحر ضد ابن كنون • اخضاعه الأدارسة •

المنصور قاضى قضاة المغرب • مراقبته الجيش هناك • محاصرة ابن كنون فى صخرة النسر واستسلامه • ظهور الوزير المصحفى • وموقفه من ابن كنون • انشغال الحكم باستخلاف ولده عبد الرحمن ثم هشام • أخذه البيعة لهشام • وفاة الحكم •

الفصل السادس

المنصور بن أبى عامر

فى مستهل ولاية الحكم الثانى جلس خمسة من الطلاب يتناولون غداءهم فى حديقة بضاحية من ضواحى قرطبة ، واستبدت النشوة بهم فمضوا يتفكهون بالحديث ، غير واحد منهم لزم الصمت واستغرقه التفكير ، وكان شابا غرانقا طويل القامة ترتسم على وجهه امارات النبل ومخايل العظمة وسمات الكبرياء وتدل جميعها على أنه خلق للزعامة (١) ، ثم استفاق أخيرا من تفكيره وصاح فيهم على غرة منهم : « ماذا ترون ان صارت مقاليد أمور هذا البلد فى يدى يوما ما ؟ » ، فضحك أصحابه لهذا الخاطر ، غير أن الشاب تابع كلامه قائلا فى هدوء : « ليختر كل منكم خطة أوليه اياها اذا أفضى الى الأمر » .

فقال أحدهم : « تولينى حسبة السوق فانى أحب هذا الأسفنج » (٢) .

وقال آخر : « تولينى كورة (رية وهى) مالقة وطنى وأعمالها ، فانى يعجبنى هذا التين الذى يجىء منها » .

وقال الثالث : « انى أوثر قرطبة ، وأقصى ما أتمناه أن أصير واليا عليها » .

لكن رابعهم لاذ بالصمت اذ أسخطه تفكير اخوانه العجيب ، فقال له : « وأنت أما طلبت ما تتمنى ؟ » فهب واقفا وأمسك بلحيته وقال : « اذا أفضى اليك الأمر فمر أن يطاف بى قرطبة كلها على حمار ووجهى لذنبه وأنا مطلى بالعسل ليجتمع على الذباب والنحل » .

فتفرسه السائل مليا وحدجه بنظرات يتطاير منها الغضب ولكنه كظم غيظه ثم قال : « ليكن ما أراده كل منكم ، وسيأتى الزمن الذى تتذاكرون فيه هذا اليوم وستجاب طلبة كل منكم » (٣) .

ولما فرغوا من طعامهم ذهب كل لطيته ، أما الفتيى المستسلم لأحلامه وآماله الضخمة فقد عاد الى بيت أحد أقاربه لأمه حيث كان يستضيفه ، فأخذه صاحب الدار الى حجرة بالطابق الأعلى وحاول أن يجاذبه الحديث ، غير أن الشاب كان غارقا فى لجة أفكاره فكان رده كلمات متقطعة ، فلما رأى الآخر فشله فى حمله على الكلام حياه وانصرف ، فلما جاء الصباح لم يحضر الفتى للافطار فظنوه لايزال نائما ، فمضى المضيف الى حجرته ليوقظه وكم كانت دهشته عظيمة حينما أبصر الفراش لم يمس ، والطالب جالسا على الأريكة وقد تدلت رأسه على صدره ، فقال له : « ما أراك نمت الليلة ؟ » (٤) ٠

قال : كلا ! ٠٠

قال : « فى ماذا كنت تفكر ؟ وما أسهرك ؟ » ٠

قال : « فكرة عجيبة ، لقد فكرت اذا أفضى الى الأمر ومات محمد بن بشير القاضى (٥) فمن استبدله ومن ذا الذى يقوم مقامه ؟ فجلت الأندلس كلها بخاطرى فلم أجد رجلا الا واحدا » ٠

فقال له : « لعله محمد بن السليم » (٦) ٠

فأجابه : « هو والله ٠ لشد ما اتفق خاطرى وخاطرك » (٧) ٠

كانت هناك فكرة استولت على الشاب فشغلته نهاره كله ، وحرمته رقاده بالليل ٠

فمن كان هذا الشاب الضائع بين جمهور العاصمة اللجب ؟ ٠

ومن هذا الذى تضطرب نفسه بمثل هاتيك الآمال الجسام ، والذى كان يؤمل فى قرارة نفسه بأنه سيغدو يوما المتصرف فى شئون البلد على الرغم من أنه لم يكن له سند فى البلاد ؟

كان هذا الفتى يدعى أبا عامر محمد من بنى أبى عامر ، وهى أسرة تنتمى الى قبيلة معافر اليمنية ، ومع أنها لم تكن من الأسر البارزة الا أنها كانت شريفة المحتد ، فجده السابع عبد الملك أحد أولئك العرب القلائل الذين كانوا فى الجيش المغربى الذى خرج به طارق الى اسبانيا ، ثم ذاع صيته حينما قاد كتيبة من الجند استولت على قرطاجنة الى كانت أول مدينة أسبانية تقع فى أيدى المسلمين فأرادوا مكافأته على انتصاره فأقطعوه حصن طرش الواقع على نهر الوادى الكبير باقليم الجزيرة وما حوله من الأراضى ، ولكن قل أن سكن أبناؤه من بعده هذه الناحية

الا نادرا ، اذ جرت العادة أن يقضوا أيام شبابهم بقرطبة ليسعفهم ذلك بأن يكونوا من رجال البلاط أو القضاء ، وهذا ما فعله مثـلا أبو عامر محمد بن الوليد الحفيد الأكبر لعبد الملك ، وكذلك ابنه عامر الذى شغل كثيرا من المناصب ، وأحبه السلطان محمد حتى أمر بنقش اسـمه على السكة وتطريزه على الأعلام ـ كما تقلد محمد ـ جد صاحبنا ـ قضـاء اشبيلية مدة ثمانية أعوام زمن السلطان عبد الله (٨) ، كما كان أبوه عبد الله فقيها مبرزا شديد الورع والتقوى ، حج الى مكة (٩) ، ومن ثم كانت هذه العائلة تطمح على الدوام للاتصـال بذوى الشرف ، فتزوج جد محمد من ابنة العلج يحيى بن أسحق النصرانى (١٠) طبيب عبد الرحمن الثالث ثم أصبح وزير بطليوس وعاملا عليها ، وكانت أم أبى عامر تدعى « بريهة » وهى ابنة القاضى ابن برطل التميمى (١١) ٠

وعلى الرغم من قدم أسرة بنى عامر وما تتمتع به من الاحترام الا أنها لم ترق الى مرتبة الطبقة العليا فلم يكن لها من النبل غير ثوبه ان جـاز استعمال هذا التعبير ، ولم تصل الى هذا بحد السيف ٠

واذا استثنينا عبد الملك الذى صحب طارق بن زياد لم نجد عامريا سواه مارس الحرب وولج ميدان الوغى الذى هو أشرف منازل الحياة(١٢)٠ فكان العامريون جميعهم اما قضـاة أو موظفين فى القصر ٠ وقد قدر لمحمد ـ هو الآخر ـ أن يسلك سبيل القضاء ، ففى ذات يوم فى صدر شبابه ودع هذه الحصون المنيعـة وذلك القصر الموروث وشـخص الى العاصـمة فى طلب العلم حيث سـمع من أبى بكر بن معاوية القرشى وأبى على القالى وابن القوطية (١٣) ، وكان شابا ذكى الفؤاد ، سريع الفهم، مشبوب العاطفـة ، مرهف الحس سريع الغضب ، يؤثـر من الكتب الحوليات القديمة عن تاريخ (١٤) أمته ، وكان أهم ما يسترعى انتباهه فى هذه الأخبار الغابرة صور المخاطرات التى قام بها أولئك الرجـال الذين نشأ أغلبهم بين طبقات دون طبقته بكثير وتدرجوا فى المناصب حتى بلغوا أسمى المراتب ، فاتخذهم مثلا يحتذيه ، وكان لا يكتم مطامحه عن أقرانه لذلك طالما اتهموه بالجنون وليس به مس منه ، والواقع أنه لم يكن يسيطر عليه غير فكرة راحدة شغلت كل تفكيره لكنها لم تكن ضربا من الجنون بل ترجع الى العبقرية ، كمـا كان على جانب كبير من المواهب العظيمة ، فكان خصب التفكير ، شديد البأس ، جريئا حيث تنبغى الجرأة ، كما كان لين العريكة مدبرا ، يحتال للأمر أن دعت الحال الى ذلك ٠ أضف الى هذا أنه كان قليل التشكك فيمـا هو بسبيله من الطرق التى تمهد له الوصول الى هدفه العظيم ، كما كان قوى الثقة فيها

جميعا . وكان جم النشاط يتابع الفكرة المرموقة في ونباء وتمهل ، وكان اذا استهدف هدفا وجه اليه همنه وآلى على نفسه الا أن يبلغه مهما كلفه الأمر . ثم يمضى قدما اليه لا يتنيه عنه ثان ، ولا يرده عنه راد .

ولقد بدأ حياته مغمورا مجهولا فلما أتم دراسته دفعه السعي لكسب العيش الى فتح مكتب بجوار باب القصر لكتابة الرقاع التى يرفعها الناس الى الخليفة يسألونه شيئا (١٥) .

ثم شغل بعد ذلك وظيفة صغيرة في محكمة قرطبة ، لكنه لم يحظ بعطف رئيسه القاضي ، وكان الذى يشغل منصب القضاء يومئذ ابن السليم الذى كان محمد يجله عن حق وينزله من نفسه أرفع منزلة لبروزه في العلم والشرف ، كما كان من احسن القضاة الذين شهدتهم قرطبة (١٦) ، غير أنه كان في الوقت ذاته جاف المعاملة منطويا على نفسه شديد البعد عمن ليسوا على شاكلته ، فغاظه أكبر الغيظ آراء مرؤوسه الشاب الغريبة وذهوله الدائم ، فكان لايتمنى شيئا سوى الخلاص منه ، وشاءت الصدفة وحدها أن تؤدى الكراهية التى يحسها القاضى لمحمد (بن أبى عامر) لأن ينال هذا الأخير ما اشتهاه من الالتحاق بالبلاط ، فقد شكاه القاضى الى الوزير المصحفى سائلا اياه الحاق هذا الشاب بمهنة أخرى فوعده المصحفى بتحقيق طلبه ، ولم يلبث الحكم الثانى ان طلب وكيلا ماهرا لادارة أملاك ابنه البكر عبد الرحمن الذى كان فى الخامسة من عمره (١٧) اذ ذاك ، فحبب المصحفى اليه محمدا بن أبى عامر وزكاه عنده ، ولم يقع هذا التعيين موقع الرضى من الخليفة وحـده فحسب بل ومن الجارية السلطانة صبح أيضا ، وكانت « صبح » بشكنسية المولد لها دالة كبيرة على زوجها ، وتقدم اليها كثيرون لم تقبل منهم غير ابن أبى عامر فقد راقها منه حسن طلعته ولطف معاملته ، فاختير دون سواه ، وفى يوم السبت (١٨) ٢٢ فبراير ٩٦٧ م عين مشرفا على أملاك عبد الرحمن بمرتب شهرى قدره خمسة عشر دينارا ، وكان له من العمر يومذاك ستا وعشرين سنة .

لم يكن ابن أبى عامر يدع فرصة الا ويغتنمها كى يزداد اعجـاب صبح به ، وصاحبه التوفيق فاختارته لادارة أملاكها الخاصة هى أيضا ، ولم تنقض سـبعة أشـهر على التحاقه بالقصر حتى اختير مديرا للشئون المالية (١٩) . فهيأ له هذا المنصب الأخير الفرصة لتوفير المال الجم بين يديه ، فتوسل به لأيجاد أصدقاء له من بين الكبار ، فكان اذا أشرف أحدهم على الافلاس (وتلك حال كان يؤديهـم اليهـا فى الواقع اسرافهـم) هب محمد بن أبى عامر لنجدته ، ويقال ان محمد بن أبى أفلح ــ أحد موالى الخليفة وموظفى البـلاط (٢٠) ــ كان قد استدان مبالغ طائلة لتجهيز

ابنته فمضى الى بيت المال وقدم الى ابن أبى عامر حلقة مرصعة بالجواهر الكريمة رهنها عنده لقاء مبلغ يريده قائلا له انها الشيء القيم الوحيد الذى بقى له ، فلم يكد يفرغ من كلامه حتى أمر ابن أبى عامر أحد مرؤسيه بأن يزن له زنتها فضة ، فأخذها ابن أفلح وأذهله هذا الكرم لتقل الحديد والجلد اللذين صنعت منهما الحلقة ، ولم يصدق ابن أفلح أذنيه فيما أمر به صاحب بيت المال ، غير أنه آمن أن أذنيه لم تخوناه حين جاؤه بعد لحظات طالبين اليه بسط عباءته مكدسين فيها قدرا كبيرا من الفضة لاتكفى لسد ديونه فحسب بل ولتجعله فى بسطة من العيش ، فانطلق لسانه قائلا (٢١) : « أحببت ابن أبى عامر حتى لو دعانى الى معصية الحكم ــ وهو مالك رقى وامامى ــ لما قعدت عنه » ٠

بهذه الوسيلة استمال ابن أبى عامر الى جانبه كثيرا من الناس فكانوا مؤيدين له ، غير انه كان يرى أن واجبه الأول انما هو تلبية كل رغبات السلطانة (صبح) واغراقها بهدايا لم يسبق أن رأت لها قط مثيلا من قبل ، ونجحت خطتـــه بطبيعة الحال ، من ذلك مثلا ما حدث ذات مرة من أنه بذل كثيرا فى صنع قصر صغير من الفضة فلما تم كما أراد أمر بحمله على رؤوس الخدم الى القصر الخليفى ، فاستبد العجب بأهل العاصمة الذين لم يروا أبدا مثل هذا العمل الفخم ، وكان هذا (القصر) هدية لصبح التى لم تكتم اعجابها الشديد به ، ومنذ ذلك الوقت لم تكن تدع فرصة تمر دون أن تمتدح مواهب وكيلها وتطلب زيادة راتبه (٢٢) ٠

وتمكنت أواصر المودة بينهما تمكنا عظيما أتاح لبعض الوشاة أن يلغوا بالقول السيء ٠

كذلك أغدق ابن أبى عامر هداياه على غيرها من الحريم فأسرهن كرمه، وأعجبتهن رقة حديثه وجميل خصاله ، ولم يفهم الخليفة العجوز شيئا حتى لقد قال ذات يوم لخاصة أصدقائه (٢٣) : « ما الذى استلطف به هذا الفتى حريمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن حتى صرن لا يصفن الا هداياه ولا يرضيهن الا ما أتاه ؟ ٠٠ انه لساحر عليم ، وخادم لبيب ، وانى لخائف على ما بيده » ٠

والواقع أن المدير الشاب لاقى الأخطار الجسام من تلك الناحية ، فلقد كان يبسط يده بالمال من بيت المال الى أصدقائه ، ولما كان تدرجه السريع فى مدارج العلياء داعيا بطبيعة الحال الى ايجاد حســاد له فقد اتهمه أعداؤه ذات يوم عند الخليفة بالسرقة ، فطلب ان يحضروه اليـــه لساعته ليسؤل عما بيده من المال الذى استؤمن عليه فوعد بالمنول ، لكنه

أسرع في البحث عن وزيره ابن حدير وصارحه بحرج موقفه وما يحيق به من الخطر ، وتوسل اليه أن يقوم بسداد ما يحتاجه من المال ليدفع الخطر الوشيك أن يلم به . فأعطاه ابن حدير للحظته ما سأله ، ومضى ابن أبى عامر الى الخليفة وأطلعه على التقارير المالية وعلى المال الذى ينبغى أن يكون فى بيت المال بين يديه ، فأفحم مناوئيه وألجم ألسنتهم ، وبدلا من الشر الذى أرادوه له فانهم مهدوا له سبيل النجاح العظيم فعاملهم الخليفة معاملة النمامين ، وراح يمتدح مهارة وكيل بيت المال وأمانته (٢٤) ، وعهد اليه بمهام أخرى ، ذلك أنه فى مستهل ديسمبر ٩٦٨ م اختاره ناظرا لبيت المال ، ثم جعله بعد أحد عشر شهرا قاضى اشبيلية ولبلة ، ولما مات عبد الرحمن الصغير وكان طفلا أختير ابن أبى عامر مشرفا ومدبرا لأملاك هشام الذى صار ولى العهد فى يوليو ٩٧٠ ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد اذ أنه فى فبراير ٩٧٢ م اختير مديرا للقسم الثانى من الشرطة الذى كانت مهمته المحافظة على المدينة (٢٥) ، ولما بلغ الحادية والثلاثين من عمره كان فى يده خمس أو ست وظائف هامة مربحة (٢٦) ومن ثم تقلب فى بلهنية من العيش قل أن كان يتقلب فيها غير الأمراء .

ولم يكن هناك قصر يضارع فى الأبهة قصره الذى شيده فى الرصافة لما احتشد فيه من الكتبة والموظفين الذين اختيروا من أرفع طبقات المجتمع ، ولم يجعل حجابا بينه وبين أى طارق لبابه الذى كان مفتوحا على الدوام لطلاب الحاجات غير مسدود فى وجوههم ، أضف الى ذلك أنه لم يكن يدع فرصة تمر دون أن يتقرب فيها الى الشعب ونجح فى ذلك كل النجاح ، فأجمع الكل على امتداح كرمه ، وتغنوا بعطفه ، ولهجت ألسنتهم بالثناء على رحمته وكريم طباعه ، ولم يختلف فى ذلك اثنان(٢٧) .

وعلى الرغم من أن تلميذ طرش كان قد بلغ مرتبة رفيعة الا أنه كان يطمح فيما فوقها ، وجعل ذلك الهدف نصب عينيه ورأى الضرورة تحتم عليه مصادقة القواد ، وقد أتاحت له أحوال المغرب تلك الفرصة .

لم تضع الحرب أوزارها لحظة فى هذا القطر بين أتباع الفاطميين وبين الموالى الأمويين الا أنها اتخذت أسلوبا آخر ، ذلك أنه اذا كان عبد الرحمن الناصر قد حارب الفاطميين لحفظ بلده من غارة أجنبية فان هذا الخطر لم يعد له وجود ابان الفترة التى نتكلم عنها الآن ، فقد وجه الفاطميون جيوشهم نحو مصر ففتحوها عام ٩٦٩ م (= ٣٥٩ هـ) ، وبعد ذلك بثلاث سنوات غادر خليفتهم المعز المنصورية عاصمة دولته وأقام على ضفاف النيل ، واستعمل على بلاد المغرب وأفريقية الأمير الصنهاجى أبا الفتوح يوسف بن زيرى ، فأمنت الأندلس منذ ذلك الحين عادية من

يسمون أنفسهم بالعلويين ، وربما كان الحكم مصيبا فى عزمه على ترك هذه الأقطار الافريقية التى كانت ترهقه مالبا أكثر مما تفيده ، الا أنه رأى فى هذا الترك ما يثلم شرفه فأخذ فى توسيع حدوده بدلا من ترك هذه الممتلكات ، فخرج غازيا أمراء الدولة الادريسية الذين كانوا يدينون بالولاء للفاطميين .

كان أحد هؤلاء الأمراء هو الحسن بن كنون (أو جنون الادريسى) حاكم طنجة وأرزيلة وبعض الأماكن الساحلية الأخرى ، وكان ابن كنون يميل تارة الى الأمويين وتارة الى الفاطميين وان كان الى الأخيرين أكثر ، اذ كان يخيل اليه أنهم أقل خطرا من الأمويين الذين تتاخمه ممتلكاتهم ، وكان (الحسن) أول من انضم الى جانب أبى الفتوح حينما دخل ذلك الوالى بلاد المغرب فاتحا ، فنقم عليه الحكم بسبب تمرده ، وبعد أن غادره أبو الفتوح أغرى الحكم قائده ابن طملس (٢٨) للقصاص من ابن كنون ورده الى طاعته .

وفى مستهل أغسطس ٩٧٢ م (= شوال ٣٦٢ هـ) أبحر ابن طملس على رأس جيش عرمرم بعد أن انضم اليه عدد كبير من عسكر سبتة التى كان ابن كنون مقيما بها فخرج لطرده غير أنه منى بهزيمة نكراء حتى انه لم يستطع الرجوع الى طنجة التى تركت بمفردها وسرعان ما استسلمت وخضعت للقائد الأموى الذى حاصر ميناءها . أما الجيش البربرى فقد احتل ناحية أرزيلة (٢٩) . وكانت العساكر الأموية حتى ذلك الوقت ظافرة منتصرة ، غير أن الحظ أخذ فى مناوأتها اذ جمع ابن كنون تحت رايته جنودا آخرين وزحف بهم على طنجة (٣٠) وهزم ابن طملس الذى خرج لصده فلقى حتفه فى هذه المعركة ، واذ ذاك شق جميع الأمراء الأدارسة عصا الطاعة وجاهروا بالثورة ، كما كتب قادة الحكم الذين عادوا الى طنجة ينبئونه بضياع الممتلكات الأموية فى بلاد المغرب ويسألونه أن يسرع الى نجدتها بالامدادات .

شعر الحكم بفداحة الخطر فعزم على ارسال أحسن جنده الى افريقية فى التو واللحظة وجعل القيادة فيها الى أعظم قائد عنده وهو غالب العجوز فاستدعاه الى قرطبة وقال له : « امض يا غالب ولا تعودن الا غالبا ، فان لم تستطع فخير لك أن تلقى منيتك على ظبا السيوف ، ولا تدخرن مالا بل فرقه فى الثوار ، واخلع جميع بنى ادريس واستنزلهم الى الأندلس » .

وعبر غالب المضيق وفى صحبته نخبة من عساكر الأندلس ، وأرسى عند قصر مصمودة بين سبتة وطنجة ، وراح يتقدم فحاول ابن كنون

تعويقه ، ومع ذلك فلا يمكن أن يقال انه جرت موقعة ما بل كان القتال مناوشات استمرت بضعة أيام حاول غالب أثناءها زشوة زعماء جيش عدوه ، ونجح في مقصده ، فانضم معظم قواد ابن كنون الى الراية الأموية بفضل ما قدم اليهم من مال وما خلع عليهم من الثياب الفخمة وما أصابوه من السيوف المحلاة بالجواهر التى خطف بريقها أبصارهم ، وحينذاك لم يجد الأدارسة بدا من الاعتصام بقلعة قائمة على قمة جبل قريب من « سبتة » تسمى باسم يطابق الواقع ألا وهو « صخرة النسر » (٣١) أو « حجر النسر » (٣٢) ·

تلقى الخليفة نبأ هذا النصر الأول بالغبطة والارتياح لكنه لما علم بما بذله غالب من المال فى سبيل استمالة زعماء البربر وجد أن قائده لم يتصرف بالحكمة ، وسواء أكان مال الدولة قد بعثر فى المغرب أم امتدت اليه يد النهب والسرقة فالواقع أن النفقات التى تحملها الخليفة جاوزت كل تصور ، وأراد الحكم وضع حد لهذا الاسراف أو تلك اللصوصية فآلى على نفسه أن يبعث الى بلاد المغرب رجلا محنكا ليكون مراقبا للشئون المالية فندب لذلك ابن أبى عامر وجعله قاضى قضاة المغرب وعهد اليه بمراقبة جميع أعمال القادة لا سيما المالية ، كما أنهى أمره الى ضباطه الحربيين ورجاله المدنيين فى الوقت ذاته ألا يباشر أحدهم عملا الا باستشارة ابن أبى عامر وموافقته ·

وهكذا وجد ابن أبى عامر نفسه — ولأول مرة فى حياته — على صلة بالجيش وزعمائه وكان ذلك أقصى ما يتمناه ، غير أنه كان بلا شك يرجو أن يكون هذا الحدث فى ظروف غير هذه الظروف ، فكانت المهمة التى وكل اليه القيام بها شاقة شائكة ، فدفعه صالحه الخاص لتوثيق علاقاته بالقادة ، وان لم تغفل عينه فى الوقت ذاته عن مراقبتهم ، وفى هذا نجاحه أو فشله ، ومع ذلك فيرجع الفضل كل الفضل الى مهارته البارعة فى أداء واجبه ومعرفته لأهدافه ، وكان قيامه بكل ما عهد به الخليفة اليه خير قيام حاملا الخليفة على الرضاء عنه كل الرضا ، كما أنه أحسن معاملة الموظفين الذين كان يخشى كراهيتهم له فانطلقت ألسنتهم بمدحه والثناء عليه ، كما أكد فى الوقت ذاته أواصر الصداقة بينه وبين الأمراء الافريقيين وشيوخ القبائل البربرية ، تلك الصداقة التى عادت عليه فى النهاية بخير ما يحب ، وألف حياة المعسكرات واكتسب محبة الجند الذين ألهمتهم غريزتهم أن فى مسوح هذا القاضى جنديا ·

بعد أن تم لغالب اخضاع جميع الأدارسة الآخرين ظل محاصرا ابن كنون في صخرة النسر ، واذ كان من العسير اقتحام هذه القلعة

لحصانتها فقد بعث الخليفة الى المغرب عسكرا جديدا أخذهم من الكتائب التى كانت تحرس حدود الامبراطورية الشمالية ، وجعل على رأسهم الوزير يحيى بن محمد التجيبى نائبه فى الثغر الأعلى ، وفى أكتوبر ٩٧٣ م ، وصل هذا المدد واشتد الحصار واتسم بالوحشية والضراوة التى أرغمت ابن كنون على التسليم فى الأيام الأخيرة من شهر فبراير ٩٧٤ ، وحينذاك سألهم الابقاء على حياته وحياة عائلته وجنده ، وترك أمواله لهم ، فأجيب الى ما طلب ، ويقال انه سلم حصنه ومضى الى قرطبة .

واستقرت الحال فى المغرب، وعبر غالب المضيق ثانيــة عائدا الى الأندلس وفى صحبته جميع الأمراء الأدارسة ، وخف الخليفة وجميع أشراف قرطبة لاستقبال الغازى فكان دخوله ظافرا يوم ٢١ سبتمبر ٩٧٤ (= ٢ محرم ٣٦٤ هـ) من أفخم المناظر التى شهدتها عاصمة الأمويين ، وأظهر الخليفة عطفا كبيرا على المغلوبين لاسيما ابن كنون ، ووصلهم بالعطايا الجمة ، وضم جندهم ــ وهم زهاء سبعمائة فارس ــ لخدمته ، وأثبتهم فى ديوان جنده لما شهد به لهم من الشجاعة (٣٣) .

كان دخول غالب العاصمة آخر أيام السعادة فى حياة الخليفة ، فما وافى شهر ديسمبر حتى داهمـــه مرض خطير هو الصرع (٣٤) ، فلما أحس بدنو أجله انصرف لأعمال البر فأعتق رقاب مائة من عبيده ، وتنازل عن سدس الجباية الخليفية فى الأقاليم الاسبانية التابعة للدولة ، وأمر أن يوقف ما جبى له من حوانيت سروجية قرطبة على تعليم الأطفال الفقراء (٣٥) . أما أعمال الدولة التى لم يكن يستطيع الالتفات اليها الا قليلا فقد وكل القيام بها الى وزيره المصحفى (٣٦) ، وكان من الواضح أن يدا أخرى كانت هى التى تسير الأمور .

ولما كان المصحفى أكثر اقتصادا من مولاه فقد وجد أن ادارة الولايات الافريقية والاحتفاظ بالأمراء الادارسة يكلفان الدولة كثيرا لذلك بعث بهم الى تونس ومنها الى الاسكندرية (٣٧) بعد أن أخذ عليهم المواثيق الغلاظ الا يدخلوا المغرب ، ثم بعث فى استدعاء الوزير يحيى بن محمد التجيبى الى الأندلس وكان التجيبى نائبه على الممتلكات الافريقية منذ رحيل غالب ، وعهد المصحفى بادارة هذه الأقاليم الى أميرين من أهلهـــا هما جعفر ويحيى ابنا على بن حمدون (٣٨) ، ولم يكن الاقتصاد وحده هو الذى أملى على المصحفى هذه الخطة بل دفعه اليها الرغب الذى قذفه فى قلبه نصارى الشمال الذين شجعهم ما ترامى الى سمعهم من نبأ مرض الخليفة وغياب أحسن جنـــده فعادوا فى ربيع ٩٧٥ م (= ٣٦٦ هـ) يجاهرونه بالعداء ، وحاصروا كثيرا من قلاع (٣٩) المسلمين بفضل مساعدة

أبي الأحمس (٤٠) معن لهم ، وهو من عائلة التجيبي المقيمة في سرقسطة ، فآمن المصحفي أنه ينبغي عليه في مثل هذه الظروف أن يعني قبل كل شيء بالدفاع عن البلد ، فما كاد البطل يحيى بن محمد يعود حتى أسرع فولاه ولاية الثغر الأعلى (٤١) ٠

أما الخليفة فلم يكن يشغل باله طوال هذه الأشـــهر الأخيرة من حياته سوى شاغل واحد ذلك هو ضمان اعتلاء ابنه العرش من بعده وان كان لايزال طفلا ، وكان قبل توليه الحكم لايرى أن أمنيته الغالية قد تحققت وهي أن يكون أبا لاسيما وقد تقدم به العمر تقدما كاد أن ييأس معه حتى اذا وافت سنة ٩٦٢ (٣٥١هـ) ولدت له صبح ولدا سماه عبد الرحمن، ثم أنجبت له بعد ثلاثة أعوام ولدا ثانيا هو هشام ، فكان سرور الخليفة بقدومهما عظيما ، ومنذ ذلك الحين تزايد نفوذ صبح على زوجها (٤٢) [الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر] تزايدا ما له من حد ، غير أن سروره لم يتم اذ مات ابنه البكر (عبد الرحمن) معقد رجائه ولم يبق سوى هشام ، ولم يعد يشغل بال الحكم الا الخوف من أن تقوم الرعية فتسوق العرش الى واحد من أعمامه ايثارا له على طفل حدث ، ولم يكن من المستغرب أن يسيطر عليه ذلك الخاطر ، فلم يحدث قط أن اعتلى عرش قرطبة سلطان صغير كهذا السلطان هشام ، أضعف الى ذلك كراهية العرب لفكرة الوصاية ، وكان قصارى أمل الحكم أن يخلفه ابنه فقد كان القوم يؤمنون بنبوءة قديمة تقول ان أسرة بني أمية ستزول من الحكم اذا ما خرج العرش عن البيت (٤٣) ٠

لم ير الخليفة أمامه من وسيلة لضمان العرش لولده الا أن يسارع بأخذ البيعة له ما وسعه الاسراع ، ومن ثم استدعى كبار رجال مملكته الى مجلسه ، واجتمعوا يوم الخامس من فبراير ٩٧٦ م ، حيث أفضى اليهم بقصده داعيا اياهم جميعا للتوقيع باعتباره ولي عهده من بعده ، فما استطاع أحد أن يرفض طلب الخليفة ٠

حينذاك كلف الحكم ابن أبي عامر وكاتبـــه ميســـورا — وكان ممن حررته (٤٤) صبح — أن يستنسخا عدة صـور من هذا القرار ، وبعث بها الى جميع ولايات الأندلس وأفريقية ودعى الاشراف والعـامة للتوقيع على هذا القرار (٤٥) ٠

وأنجز الأمر في ساعته وبادر الجميع الى تحقيق ما طلبه الخليفة دفعا لسخطه أن ينزل بهم ٠

أضف الى هذا أن اسم هشام أصبح منذ ذلك الحين يذكـــر فى الصلوات العامة ، فلما وافى الموت الحكم (٤٦) يوم أول أكتوبر ٩٧٦ م (= ٢ صفر ٣٦٦ هـ) حمل الى قبره وهو مطمئن الى أن ولده هشاما سيخلفه لاسيما وان ابن أبى عامر والمصحفى ـ الذى أصبح حاجبا (٤٧) ـ لابد وأن يحملا أهل الأندلس على احترام العهد الذى قطعوه على أنفسهم •

الفصل السابع

الخصيان الصقليان فائق وجوذر يخفيان خبر موت الحكم لتدبير من يحكم بعده • تقريرهما صرف الخلافة عن هشام الى عمه المغيرة • ظهور المصحفى على مسرح الأحداث • ايثاره هشام بن الحكم • ابن ابى عامر يتعهد للمصحفى بالتخلص من المغيرة • الحلفاء الأعداء فى القصر • اخذ البيعة لهشام وتضخم نفوذ المصحفى وابن أبى عامر • حوادث الاغتيال •

الحملة لمحاربة نصارى الشمال بقيادة ابن أبى عامر • نجاحها وأثر ذلك على ابن أبى عامر •

الفصل السابع

أحداث استخلاف هشام بن الحكم

لفظ الحكم المستنصر نفسه الأخير بين بين أذرع كبيرى خصيانه : فائق (١) وجوذر ، فلم يعلم أحد سواهما بنبأ موته الذى آليا أن يبقى سرا مكتوما حتى يتم الاتفاق بينهما على الخطة التى يسلكانها ٠

وعلى الرغم من أنها كانا عبدين اذ كان أحدهما يلقب بصاحب البرد والطراز والآخر بصاحب البياذرة الا انهما كانا أصحاب شأن ضخم يتمتعان بسلطان كبير ونفوذ غير منكور ، وكان فى خدمتهما ويعيش على حسابهما الخاص جمع من الخدم المسلمين الذين لم يكونوا خصيانا ولا عبيدا ، زد على ذلك أنه كان تحت امرتهما قرابة ألف صقلبى من موالى الخليفة لكنهم كانوا بالغى الثراء لما يملكون من الأراضى الفسيحة والقصور الجميلة ، وكان رجال هذا الجيش من الخدم ينعمون بكثير من الامتيازات ، كما كان ينظر اليهم بأنهم زينة البلاط وأبهى حلل المملكة ، لكنهم جاروا على القرطبيين وأساءوا السيرة معهم كل السوء ، وعلى الرغم مما أثر عن الخليفة من ايثاره العدل وحرصه على تطبيقه الا أنه كان دائم الاغضاء عن قبائحهم وجرائمهم فاذا حاول أحد تنبيهه الى ذلك أجاب : « هم أمناؤنا وثقاتنا على الحرم ، فينبغى للرعية أن تلين لهم وترفق فى معاملتهم فتسلم من معرتهم ، اذ ليس يمكننا فى كل وقت الانكار عليهم » (٢) ٠

ولم تكن المعاملة الحسنة لتريد أولئك الصقالبة الا صلفا وعتوا ، فكانوا أكثر هيئات الحكومة قوة ، حتى خيل الى زعيميهما فائق جوذر أن اختيار خليفة جديد أمر موكول اليهما وحدهما فحسب لايشاركهما فيه أحد ما ٠ ولقد ترتب على هذا الظن أن انصرف كل منهما عن هشام لما أدركاه فى اعتلاء هذا الطفل العرش من ظهور نفوذ المصحفى (٣) الوزير الذى يكرهانه ويودان لو تقلص نفوذه الشخصى (٤) ٠ والواقع أن العامة كانت

قد أقسمت يمين الولاء لهشام بن الحكم لكن الخصيين لم يكونا يقيمان وزنا ليمين سياسية ، ادراكا منهما أن معظم من أقسموه انما أقسموه قسرا ، كما كانا يعرفان أن الشعب لايميل لفكرة الوصاية وأن هناك ثلة من الناس لا ترغب أن ترى العرش يساق الى حاكم طفل لايتجاوز الثانية عشرة من عمره ويكون له الحكم الزمني والروحي · كما أنهما كانا من ناحية أخرى يطمعان في استبقاء البقية الباقية من حب الشعب لهما بأيسط طريق وذلك بعقد الامامة لأمير بالغ عاقل ، ثم انهما يعلمان أن مثل هذا الأمير لابد وأن يشكر لهما يدهما عليه اذ أخذا به الى العرش ومن ثم يستطيعان التصرف في أمور الدولة باسمه من غير معارضة لهما من جانبه ، لذلك صمما على المبادرة الى اقصاء هشام وصرف الخلافة الى عمه المغيرة وكان في السابعة والعشرين من عمره آنذاك واشترطا عليه أن يعلن ابن أخيه خليفة له ، كراهية منهما في أن يظهرا بمظهر المعارض لرغبات مولاهما الراحــل ·

فلما اتفقا على هذا القرار قال جوذر لصاحبه : « ينبغى أن نحضر جعفر بن عثمان [المصحفى] ونضرب عنقه فيتم بذلك أمرنا » ·

لكن فكرة القتل هذه أفزعت فائقا الذى كان أقل دهاء من صاحبه كان أكبر منه مقاما ، ومن ثم اعتزما على كتساب المصحفى باللين فبعثا مولانا وشيخ من مشيختنا دون ذنب ولعله لا يخالفنا شيئا نريده مع افتتاحنا الأمر بسفك الدم ؟ » ·

لم يكن جوذر يؤيد هذه الفكرة لكنه تخلى عما قال مرغما لأن فائقــا كان أكبر منه مقاما ، ومن ثم اعتزما على اكتساب المصحفى باللين فارسلا فى طلبه الى القصر فلما جاء أفضيا اليــه بموت الخليفة وأطلعــــاه على المشروع الذى أجمعا العزم عليه ، ثم طلبا اليه معونته ·

كانت خطة الخصيين تخالف تمام المخالفة رأى الحاجب ولكنــــه تظاهر بقبولها خوفا من بطشهما به ، وقال لهما : « هذا والله أســـد رأى وأوفق عمل ، والأمر أمركما ، وأنا وغيرى فيه تبع لكما ، فاعزما على ما أردتما واستعينا بمشورة المشيخة فهى أنفى للخلاف ، وأنا أسير الى الباب فأضبطه بنفسى وأنفذ أمركما الى بما شئتما » (٦) ·

ولما أدرك المصحفى نجاح خطته فى خدع الخصيين واطمئنانهما اليه استدعى أصحابه ، وأعلم بالأمر ابن أخيه(٧) هشاما وابن أبى عامر(٨) وزياد بن أفلح (٩) أحـــد موالى الحـــكم وقاسم بن محمد (بن القائد

ابن طملس الذى لاقى حتفه فى افريقية فى محاربة ابن كنون) وبعض الشخصيات الأخرى ذات المكانة البارزة ، كمـــا أحضر كذلك قوات الكتائب الاسبانية ورؤساء الكتائب الافريقية التى كان جل اعتماده عليها ألا وهم بنو برزال ، وعندما تكامل عقد الجميع أفضى اليهم بنبأ موت الخليفة وبما دبره الخصيان ثم ختم كلامه اليهم بقوله :

« ان نحن حبسنا الدولة على هشام أمنا على أنفسنا وصارت الدنيا فى أيدينا ·

« وان انتقلت الى المغيرة استبدل بنا وطلب شفاء أحقاده » ·

واتفقت ميـــول الحاضرين وميول المصحفى ، فأجمع هو واياهم فيما بينهم على احباط مشروع الخصيين وذلك بقتل المغيرة قبل أن يعلم بموت أخيه ، واستصوب المصحفى هذه الفكرة لكنه لم يجد من يقوم بهذا القتل حين طلب من القوم رجلا ينفذه ، اذ لم يشأ أحد أن يخضب يديه بدم المغيرة أو أن يتحمل تبعة هذا العمل ·

حينذاك تقدم ابن ابى عامر وقال : « ياقوم انى أخاف فساد أمركم ونحن تبع لهذا الرئيس فينبغى الا تختلفوا عليه ، وأنا أتحمل ذلك عنكم ان هو أنفذنى ·· فخفضوا عليكم » ·

أثارت هذه الكلمات دهشة الجميع اذ لم يكن أحد يتوقع أن يرى موظفا مدنيا يتقدم لانجاز القتل فى الوقت الذى أحجم فيه رجال مارسوا الحرب وألفوا رؤية الدماء واعتادوا سفكها ، فبادروا الى قبول عرضـه وقالوا له : « أنت أحق بتولى كبره لخاصتك بالخليفة هشـام ومحلك فى الدولة » ·

سرعان ما امتطى ابن أبى عامر جواده مستصحبا القائد بدرا أحد موالى عبد الرحمن الثالث ومائة محارب وكوكبة اسبانية ويمموا جميعا ناحية قصر المغيرة فلما بلغوه أوقف ابن أبى عامر الحراس بالباب واقتحم هو بالآخرين الدار فلما صاروا فى ردهته دخل وحده البهو فوجـــد به الأمير فأفضى اليه بموت أخيه الخليفة الحكم المستنصر وخبر اعتلاء ابنه هشام العرش وقال له : « انهم خشوا خلافك فأنفذونى لامتحان القصة » ·

فامتقع الأمير حين سمع هذه العبارة وأدرك ما وراءها ، ورأى السيف مصلتا على رأسه فقال فى صوت مرتجف : « لقد استوجعت بالموت أخى ولكنى استبشرت بملك ابنه ، فأعلمهم أنى سامع مطيع ، ووافٍ ببيعتى ، فتوثقوا منى كيف شئتم » ·

ثم أقبل يستلطف ابن أبي عامر ويناشده الله في دمه ويســـأله المراجعة في أمره (١٠) ٠

وعطف ابن أبي عامر على شبيبته وخلاه لطيبة قلبه واعتقد وفاءه فيما تعهد به ، وما كان له أن يتراجع عن قتله ان قضت بهذا القتل سلامة الدولة وأيدته مصالحه الخاصة ، ولكنه لم يشأ أن يخضب يديه بدم رجل لا يراه مدعاة خوف ومن ثم كتب للمصحفي منبئا اياه أنه وجد الأمير وفق ما يهوى ولم يقف على ما يخشاه منه ، وعلى ذلك فانه يطلب منه الاذن في الابقاء على حياة المغيرة،وبعث بهذه الرسالة الى الوزير مع أحد الجند الذى عاد اليه بعد قليل حاملا رد المصحفي وقد جاء فيه « غررتنا من نفسك فانفذ لشأنك أو فانصرف نرسل سواك » ٠

أظهر ابن أبي عامر للمغيرة هذه المقالة التي تتضمن الأمر بقتله ، ولما كان ابن أبي عامر راغبا عن مشاهدة هذا الحدث الفظيع الذى لابد من تنفيذه فقد غادر البهو وأمر رجاله بالدخول مكانه ، فعرفوا ما هو المطلوب منهم ، فخنقوا الأمير وعلقوا جثته في حجرة مجاورة لمكان خنقه وأسروا الى الخدم بأنه قتل نفسه حينما عرف أنهم مرغموه على الذهاب الى ابن أخيه لقطع يمين الولاء له ومبايعته ، وسرعان ما أمرهم ابن أبي عامر بادخال الجثة الى البهو وتسوير الأبواب ٠

ولما أنجز ابن أبي عامر هذا العمل عاد الى الوزير المصحفي وأخبره بتنفيذ أمره ،فشكره المصحفي شكرا حارا وأجلسه الى جانبه اظهارا منه لعرفانه يده عليه ، ولم يلبث فائق وجوذر أن أدركا أن المصحفي مسقطهم وأنه أحبط مشروعهم فخافاه لاسيما جوذر الذى قال لصاحبه : « نصحت لك بقتل المصحفي فلم تسمع منى » ، ومن ثم كانا مضطرين للتكفير عن زلتهما فدخلا على المصحفي معتذرين ذاكرين له انهما تنكبا محجة الصواب وأن ما فعله هو الأمر الصحيح وانه خير مما فكرا فيه (١١) ٠

كانت الكراهية متبادلة بين الطرفين غير أن الوزير لم يكن قادرا في هذه اللحظة على الانتقام منهما فتظاهر بتصديقهما وعاد الســـلام بينه وبينهما (١٢) ٠

وفي صباح اليوم التالي ، أعنى الاثنين ٢ أكتوبر [= ٣ صفر] نودى في أهل قرطبة بالشخوص الى القصر فما بلغوه حتى وجدوا الخليفة الغلام في قاعة العرش وعلى كثب منه المصحفي ، ورأوا فائقا على يمينه وجوذر على يساره ، أما بقية رجال الدولة ففي أماكنهم ٠

وتقدم القاضي ابن السليم فاستحلف أعمام الخليفة وأبناء عمومته ثم الوزراء فرجال القصر فالزعماء القرشيين فوجوه أهل العاصمة ، وتم ذلك بمساعدة ابن أبي عامر وبقية الجماعة ولم يكن ذلك بالأمر اليسير لوجود المعارضين ، غير أن ابن أبي عامر تمكن بطلاقة لسانه وقوة اقناعه من الوصول الى ما يشتهي ، فلم يبق على الرفض سوى اثنين أو ثلاثة ، وأثنى الجميع على هذه الخطة وامتدحوا قدرة صاحب دار الضرب في تلك الفرصة (١٣) ·

* * *

كان كل شيء قد تم حتى هذه اللحظة وفق هوى المصحفي ورهطه ، ولم يبد في سماء المستقبل ما يعكرها فان في ظهور الشعب بمظهر الهادىء الراضي بما تم دليلا على قبوله فكرة الوصاية التي كانت تفرعه ويكرهها ولا يهضمها ، لكن مظهره هذا لم يكن سوى خديعة اذ كان يخفي الحقيقة في سره خفاء النار تحت الرماد اذ راح يلعن في الخفاء أولئك الجشعين أصحاب القوة الذين استهلوا عهدهم بقتل المغيرة البائس ، كما راح الخصيان يعملان من جانبهما على اثارة روح التذمر بين أهل العاصمة ، فلم تنقض غير فترة وجيزة حتى سرت هذه الروح بين الجميع وحتى أوشكت أن تضرم الثورة ، ولم يفت ذلك ابن أبي عامر لذلك بادر بالاشارة على المصحفي أن يرهب الأهلين بمظاهرة توقظ فيهم ما كانت تنطوي عليه صدورهم من الحب لحكامهم وذلك بأن يظهر لهم الخليفة الصغير وأن يسقط عنهم بعض الخراج ، فاستصوب الوزير رأيه ، وعزم على أن يركب الخليفة في الناس فركب يوم السبت ٧ أكتوبر (= ٨ صفر) ·

وجاء المصحفي في ذلك اليوم ، ولم يكن ينعت حتى هذه اللحظة الا بالوزير ، فلقب نفسه بالحاجب ، ورفع ابن أبي عامر — كما شاءت صبح (١٤) — الى مرتبة الوزير ، فشارك المصحفي بذلك في ادارة دفة شئون الدولة ، وخرج هشام الثاني (بن الحكم) ممتطيا صهوة جواده ، واخترق شوارع العاصمة محاطا بثلة كبيرة من الجند وفي صحبته ابن أبي عامر ، ثم أذيع في نفس الوقت منشور سقطت بمقتضاه ضريبة الزيتون وكانت من الضرائب المقوتة كما كانت عبئا فادحا لا سيما على كاهل الطبقات الدنيا ، وقد أدت هذه الأعمال — لاسيما الأخيرة منها — الى النتيجة المأمولة فنسب أنصار ابن أبي عامر اليه ابطال هذه الضريبة لما شاهدوه من حرصه على ذلك فتظاهرت العامة بالمظاهرات وأعلنته الصديق الحقيقي للفقراء (١٥) ·

لكن على الرغم من ذلك فقد استمر الخصيان في بث الدسائس ، كما حمل جواسيس المصحفى اليه أن بعضا من الأشخاص المشكوك فيهم يقومون بدور الوسيط بين الخصيين وأصدقائهما فى الخارج وانهم يدخلون ويخرجون عبر « باب الحديد » فأمر الحاجب بسده وألا يكون دخول القصر الا عن الطريق المعروف « بباب السدرة » ، وزاد المصحفى على ذلك بأن طلب الى ابن أبى عامر أن يبذل قصارى جهده ويعمل غاية ما فى وسعه حتى يقصى من حول فائق وجوذر من الخدم المسلحين من غير الخصيان والعبيد ٠

وأخذ ابن أبى عامر على عاتقه القيام بذلك العمل الذى نجح فيه غاية النجاح اذ لم يقصر فى وصل البعض بالمال يغدقه عليهم ، وبذل المواعيد لغيرهم حتى نجح فى حمل خمسمائة منهم على التخلى عن خدمة الخصيين والانضمام اليه فعظم بأسه وضخم نفوذه حتى فاق ما كان لمنافسيه وذلك أيضا بفضل استطاعته الاعتماد على معونة قوات بنى برزال الافريقية ، ولم يخف ذلك على جوذر فخاف مغبة الأمر فقدم استعفاءه من بيزرته سائلا السماح له بمغادرة القصر الخليفى ، ولم يكن ذلك كله منه الا مناورة فقد ظن أنهم لن يستطيعوا الاستغناء عن خدماته ، واعتقد أنهم سوف يرفضون طلبه هذا ومن ثم تتاح له الفرصة لأن يملى على خصومه الشروط التى يريدها لقاء استمراره فى الخدمة ، لكن تبدد أمله هباء فقد قبل استعفاؤه ، فاشتد حنق أنصاره غضبا له واندفعوا يسبون المصحفى وابن أبى عامر ويتوعدونهما ، وكان أحد زعمائهم واسمه : « الفتى الصغير الدرى » قد عرف على الأخص بذلاقة لسانه ، لذلك أوعز المصحفى الى ابن أبى عامر بالبحث عن أية طريقة للتخلص منه ، ولم يكن ذلك صعبا أو مستحيلا ، ذلك أن الدرى كان صاحب الأمر فى « بياسة » التى ضج أهلها بالشكوى منه لبطشه واستبداده بهم ، كما تذمروا من جنسح عماله ، فاغتنم ابن أبى عامر هذه الفرصة ودس الى أهل « بياسة » من أفهمهم انهم سف يجدون فى الحكومة انصافا لهم واستماعا لشكواهم ان هم رفعوها اليها ، فلم يترددوا عن الاقدام على ذلك ، وفعلوا الذى أوحى به اليهم واذ ذاك صدر أمر خليفى للدرى بالتوجه الى دار الوزارة لمواجهة مواليه فلبى الأمر لكنه ما كاد يصل الى هناك حتى هاله ما أبصر من العسكر الكثير ، وتبين الشر فى وجوه القوم فأراد الرجوع سالما فمنعه ابن أبى عامر وأمسكه من رقبته ، وجرت مشادة بينهما جذب فيها الدرى ابن أبى عامر من لحيته فدعى ابن أبى عامر الجند لنجدته ولكنهم لم يتحركوا احتراما منهم للدرى ٠

أما بنو برزال الذين لم يكن عندهم مثل هذا التوقير له فقد هطعوا مسرعين للنداء وأمسكوا بالدرى وضربوه ضربا موجعا ، وأطارت ضربة سيف رأسه فبادروا بحمله الى مخدعه حتى يطلع الصباح .

على أن الوزيرين توجسا شرا جسيما من جانب الصقالبـــة (١٦) وأدركا أنهما غير قادرين على دفعه ، ومن ثم شرعا فى الحال فى تدبير خطة حاسمة اذ بعثا الى فائق وأصدقائه أمرا خليفيا بمغادرة القصر ، على أن يستدعيا بعد ذلك للتحقيق فى شـــأن خيانتهما ، وحكم عليهم بديات ضخمة جدا .

كان فائق معدودا أخطر الجميع وكان لا يزال شديد البأس ، لكنه لم يلبث أن مات بعد قليل من نفيه الى احدى جزر البليار .

أما الخصيان الذين كانوا دونه خطرا فقد ظلوا فى وظائفهم ، وتقلد أمر القصر والخدم واحد منهم اسمه « ســـكر » .

وعلى الرغم من أن الدافع على هذه الاجراءات كان الصالح الشخصى الا أنه رفع ابن أبى عامر والمصحفى فى أعين العامة وقربهما منها وذلك لشدة كراهية أهل قرطبة للصقالبة (١٧) الذين كانوا قد أسرفوا فى ايذاء الناس بصورة تمنى لهم الناس فيها الهلاك (١٨) .

زد على ذلك أن الحكومة — من ناحية أخرى — أثارت همهمة قويه بتقاعدها تجاه نصارى الشمال الذين رأيناهم يعاودون العداء وقت أن كان الحكم الثانى (المستنصر) نهب المرض ، وبلغت الجرأة بهم أن طرقت حملاتهم أبواب قرطبة ، ولم يكن المصحفى يعوزه المال ولا الرجال ، لكن كانت تنقصه الدراية بشئونه فسكت عن الدفاع عن البلد سكوتا أزعج السلطانة صبحا لما جره ذلك من تقدم المسيحيين وغضب الأندلسيين ، ففزعت الى ابن أبى عامر وأسرت اليه بمخاوفها ، وكان هو قد أسخطه منذ وقت بعيد تهاون رفيقه وعجزه عن تصريف الأمور ، لكن ابن أبى عامر طمأن خاطر السلطانة مؤكدا لها أنه واثق من ضرب العدو لو كان فى يده المال وقيادة الجيش (١٩) .

ولما فرغ من حديثه هذا صارح رفيقه بأن الأمر سيفلت من يده عما قريب من جراء تهاونه وتقاعده ، وأن الواجب ومصلحته الذاتية يحتمان عليه القيام بعمل حاسم فى الحال ، فلما تبين المصحفى مكانة الصدق فى كلامه جمع كبار الرجال وأشار بانفاذ جيش لمحاربة النصارى فاستصوب معظمهم

الأمر وعارضه نفر قليل ، لكن الذى شغلهم جميعا على وجه الخصوص هو موضوع قيادة الجيش ، فقال ابن أبي عامر :

« أبادر اليه على أن أختار من يخرج معى من الرجال ، وأتجهز لغزوة بمائة ألف دينار » •

فاستكثر أحدهم ذلك القدر من المال فرد عليه ابن أبى عامر قائلا :

« خذ ضعفها وامض وليحسن غناؤك » •

فأفحمه كلامه فوجم ولاذ بالصمت ، ثم اتفقت الكلمة على تسليم الى ابن أبى عامر وتجهيزه بما يحتاج اليه من المال •

واذ ذاك أخذ فى اختيار من يصحبه من خيرة قوات الدولة ، ونهض بحملته فى شهر فبراير ٩٧٧ م [= ٣ من رجب سنة ٣٦٦ هـ] وعبر الحدود وحاصر قلعة « لوس يانيوس » (٢٠) المعروفة بحصن الحامة وهى احدى القلاع التى أعاد ترميمها راميرو الثانى بعد انتصاره العظيم فى شلمنقة • ونجحت الحملة ودانت الناحية لابن أبى عامر فأصاب منها غنيمة ضخمة ثم انكفا عائدا الى قرطبة فى منتصف ابريل [رمضان] ومعه أسرى كثيرون •

على الرغم من تفاهة هذه الغزوة الا أنها أدت بطبيعة الحال الى موجة من الفرح الشامل اجتاحت العاصمة التى كانت ترقب الأمور دون أن تميل الى هذا وذاك ، وحق لها أن تفرح فقد أصبح الجيش الاسلامى لأول مرة مهاجما ولقن العدو درسا قاسيا حتى لايعاود التفكير فى ازعاج بال القرطبيين وهو أمر لم يكن بالتافه الضئيل فى أعينهم ، ولم يكونوا يطلبون اذ ذاك فوق الذى أدركوه •

لكنهم اذا كانوا قد بالغوا فى تقدير النجاح الذى أتيح لهم فانه من المستحيل تجاهل الأهمية الكبرى التى تمخضت عنها هذه الحملة بالنسبة الى ابن أبى عامر نفسه الذى أسرف فى بذل ما عنده من المال بقصد المدد•

لقد بسط ابن أبى عامر يده طوال فترة الحملة فوسعت مائدته كل وافد عليه رغبة منه فى استجلاب محبة الجيش (٢١) الذى ربما لم يكن واثقا تمام الثقة من ذلك القاضى يتولى قيادته الحربية ، ولكن نجحت خطته كل النجاح واطمأن الضباط والعسكر الى بشاشة ذلك الوزير وكرمه والى مهارة طباخيه ، ومن ثم استطاع فيما بعد الاعتماد على اخلاصهم لقاء ابقائه على مكافآتهم لخدماتهم ، فكانوا له الجسد وكانوا له الروح (٢٢) •

الفصل الثامن

أصل المصحفي • سوء سياسته خوفة من غالب صاحب الثغر الأعلى • ابن أبى عامر يدس بين الرجلين ويحظى بالتقدير عند كل منهما • انتصار ابن أبى عامر حربيا وأثره • الخليفة يخلع المصحفي ويحل ابن أبى عامر مكانه • المصحفي يسعى لمصالحة غالب فيفسد ابن أبى عامر عليه سعيه ، ويتزوج من أسماء بنت غالب الذى يلقب بذى الوزارتين • تدهور نفوذ المصحفي والقبض عليه وعلى اهله • محاكمته ومصادرة أملاكه والتطاول عليه •

الفصل الثامن

تضارب نفوذ المصحفى وابن ابى عامر

كان نجم المصحفى يتضاءل كلما ازداد نجم ابن أبى عامر فى التألق والسطوع ، ذلك أن المصحفى كان قليل الكفاءة وضيع المنبت وكان أبوه بربريا من اقليم بلنسية اختير لتأديب الحكم فرعى له الحكم ذلك فأدنى اليه ابنه منذ الصغر وحباه بعطفه وتقديره وزاد فى تقديره فى عينيه ما لديه من المواهب ، فقد كان أديبا وشاعرا حسن الخط (١) .

استكتبه الحكم أولا ثم جعله مديرا للشرطة فحاكما لجزيرة ميورقة ثم استوزره (٢) لكنه لم يوفق أبدا فى تكوين أصدقاء له اذ كان مطبوعا على تجبر المحدث النعمة ، كما أن غطرسته غير المحتملة جرحت كبرياء الأشراف الذين كانوا يحتقرونه .

والظاهر أنه لما تقلد الوزارة أراد تدارك هذه الهفوة لكنه سرعان ما عاد اليها والى ما كان عليه من تجبر (٣) ، كما أن عدله بين الناس كان موضع ريبة وهو عيب شائع لم يسلم منه غير قلة من الموظفين ، وربما كان القوم يتجاوزون عن اختلاساته الضخمة لو تقاسمها مع سواه بيد أنه احتجن كل شىء لنفسه : الأمر الذى لم يغفره له أحد قط (٤) ، وأخذ عليه الناس استعماله أقاربه فى ادارة دفة الأمور ووضعه المناصب الهامة فى يد أبنائه واخوته (٥) . وقصارى القول انه كانت تعوزة صفات الرجل السياسى ، كما كانت تبهم عليه المسالك اذا خرجت الأمور التى يعالجها عن الاسلوب المالوف فلا يعرف اذ ذاك ما يبرم منها وما ينقض ، فكان هناك رجال يفكرون له وينفذون الخطط ، ومن ثم كان من الطبيعى أن يتوجه بالسؤال الى ابن أبى عامر .

. . لكن هل كان ابن أبى عامر يرضى أن يظل قائما طول المدى بدور الاخلاص والمشورة الذى يبتغيه المصحفى ؟ .

لقد شك أهل البصيرة في ذلك ، وأحسوا احساسا صادقا أن قد دنت اللحظة التي يوشك فيها ابن أبي عامر أن يتقلد الوزارة حين عزم على اسقاط المصحفي ، نشط لذلك مستعينا بالكتمان وان لم يتبدل ظاهر مسلكه ازاء صاحبه وزميله بل استمر على اظهار نفس الاحترام الذي كان يظهره له فيما مضى ، ولكن أبطن مخالفته في كل شيء ، ولم يكن يدع فرصة تمر دون أن يوجه نظر صبح عدم صلاحية المصحفي وبيان أخطائه (٦) ٠٠ كل ذلك والمصحفي لايشك فيه ولا يرى فيه ما يثير مخاوفه بل يحسبه أوفى الأصدقاء له ٠

أما قاذف الرعب في قلبه فهو غالب صاحب الثغر الأدنى الذي كان نفوذه عظيما جدا على الجند (٧) ، والواقع أنه كان يحقد على المصحفي ويزدريه ولم يحاول ان يخفي ازدراءه اياه ، زد على ذلك أن أكاليل الفخر كانت تجلل هامته لما خاضه من المعارك الجمة ، فلا عجب ان غاظه أن يتولى الوزارة نكرة لم يسبق له أبدا أن جرد الحسام ، ومن ثم ذهب للقول بأن هذه المرتبة انما هي له (وليست للمصحفي) وأنه أحق بها منه ٠

أما من الناحية النظرية فقد كان غالب خاضعا للمصحفي واستطاع بخطته الماكرة أن يفهم الحكومة عدم تمكنها من الاعتماد عليه ، ذلك أنه لم يستعمل الشدة في محاربة النصارى منذ موت الحكم مما يخالف تمام المخالفة ما عرف عنه من العنف والحمية ، ومع أنه لم يجاهر بالثورة ولم يطلب من النصارى مساعدتهم اياه الا أن سلوكه فتح مجالا للظن بأن هذه الأمور واقعة عما قريب ، وفي هذه الحال يكون سقوط الوزير أمرا لامفر منه ، اذ كيف يكون في قدرة المصحفي مقاومة أحسن قائد في الدولة وأمهر قوادها الذين قد ينضم اليهم أهل قشتالة وليون ، ومن ثم فان أعداء المصحفي الكثيرين كانوا لايحجمون عن اغتنام أول مصيبة تصيبه لخلعه من وظيفته وتجريده من ثروته بل والفتك به أيضا ٠

لم يكن المصحفي من الغباء بالدرجة التي تعميه عن رؤية الخطر الذي يهدد ، وفي وسط هذا الغم سأل وزراءه المشورة لاسيما ابن أبي عامر فكان الجواب أن لابد له من أن يخطب ود غالب بأي ثمن فاقر هذا الجواب ، وكان ابن أبي عامر الوسيط في ذلك فقال له ان الحملة الخارجة للفتح تقدم الفرصة لمفاوضة حاكم الثغر الأدنى على شروط الموادعة التي ينشدها المصحفي ٠

كانت هذه هي أقوال ابن أبي عامر •

لكنه كان يسعى لأمر جله هدفه الأكبر غير مبال بالخطة التي ينتهجها لتحقيق أطماعه ، فهو لم يعمل على تهدئة ما بين الخصمين بل كان يفكر فيما يزيد الجفوة بينهما شدة والهوة اتساعا ، وراح يتصرف بما تمليه عليه ظروف لحظته ثقة منه بوقوف المصحفي الى جانبه وتأييده لمصالحه ، فكان يثني — أمام صبح — الثناء الجميل على غالب ومواهبه العالية، ومضى يكرر في كل لحظة أن المرء لايستطيع أن ينسى أعمال هذا القائد وانه يجب السعي لضمه الى جانبها بتلقيبه بلقب يفوق كل الألقاب التي نالها •

وأتت حيل ابن أبي عامر أكلها فرقي غالب — بفضل نفوذ صبح — ولقب بذي الوزارتين (٨) ، وألقيت اليه قيادة جيش الحدود ، ولم يعارض المصحفي هذه الفكرة وسرعان ما بادر الى تحقيقها تصديقا منه لقول ابن أبي عامر انها أول خطوة في سبيل الوفاق بينهما •

وفي الثالث والعشرين من مايو (أول شعبان ٣٦٦ هـ) — أعني بعد شهر واحد فقط من العودة الى قرطبة قام ابن أبي عامر — وقد وكل اليه تدبير جيش الحضرة — بحملته الثانية ، والتقى بغالب في مجريط وأقام على خدمته مظهرا له الاكرام والامتثال لأوامره ، واستماله اليه بما حدثه به من اعتباره المصحفي غير أهل أبدا لما في يده ، وسرعان ما قام تحالف قوي بين القائدين اتفقا فيه على اسقاط المصحفي ، ثم عبرا الحدود وتم الاستيلاء على حصن « موله » (٩) فأصابا كثيرا من السبي والغنيمة ، وانتهت الحملة ، وأخذ كل واحد يستعد لمفارقة صاحبه ، وحينذاك قال غالب لصديقه الجديد :

« سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل حتى ليشغل الناس السرور عن الخوض فيما تحدثه من قصة ، فاياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلدها أنت منه » (١٠) •

فوعده ابن أبي عامر باتباع هذه الوصية ثم انطلق في طريقه ميمما وجهه شطر قرطبة ، أما غالب فقد عاد الى مقر ولايته •

والواقع أن فخر هذه الحملة يعود الى غالب فهو الذي دبرها ورسم جميع خططها ، وما كان ابن أبي عامر غير تابع له في تنفيذها حربيا ، كما كان حريصا على ألا يعارض أبدا قائدا مدربا كهذا القائد الذي تمرس بشئون الحرب ووضع أفاويقها •

ولما كان غالب في الوقت ذاته يرمي الى تضخيم شأن حليفه الصغير لأنه كان ينظر الى الأمور من ناحية أخرى فقد بادر بالكتابة الى الخليفة منبئا اياه بما جاء به ابن أبي عامر من الأعاجيب ونسب اليه وحده الفضل فيما حازه العسكر من انتصارات باهـرة ، وان الواجب يقضي أن يكافأ مكافأة قيمة •

جاء هذا الخطاب الذى تسلمه البلاط قبل عودة ابن أبى عامر بخير النتائج ، مما ترتب عليه أن وكلت اليه شئون العاصمة بدلا من المصحفى ، اذ كيف يتأتى لأحـد ما أن يرفض مثـل هذا الطلب لقائد رد المغير مرة ثانيـة •

ولم يقتصر الأمر على أن يكون غالب وحـده مصدر الثنـاء على ابن أبى عامر بل امتدح أبطـال هذه الحرب جميعهم كفـاءة العامرى ومواهبه •

أضف الى هذا أنه لم يكن فى استطاعة المصحفى أن يرقى الى ما رقى اليه لولا نفوذ أبيه ، واذا خلينا جانبا سـلوكه الشخصى فان المصحفى برهن على عدم أهليته لما نيط به (١١) ، والواقع أنه كان شديد الجشع الى درجة أن الرشوة التافهة كانت كافية لدفعـه الى اغماض عينيه عن كل شيء وعن أفظع الجرائم ، ولقد صدق الناس فيما قالوه من انه لم يعد للشرطة وجود فى قرطبة فاندفع اللصوص ــ سواء أكانوا من علية الناس أم سفلتهم ــ الى السلب ، وأصبح الناس يسهرون لياليهـم مخافة أن يصابوا وهم فى دورهم بمن يقتحمها عليهم قاتلا أو سارقا ، وقصارى القول أن سكان أى مدينة من مدن الحدود كانوا أكثر أمنا واطمئنانا على نفوسهم من سكان البلد الذى يقيم فيه الخليفة •

عاد ابن أبى عامر يحمل أمر التولية ويرفل فى رداء الشرف الذى خلع عليه ، وقصد توا الى مقر الرياسة فوجد محمد بن المصحفى جالسا تحوطه مظـاهر الأبهـة الجديرة بمن هو فى مكانته ، فاطلعه على أمـر الخليفة وأخبره أن فى اسـتطاعته الانصراف ، فانصرف حزينا وأطاعه مهموما •

لم يكد ابن أبى عامـر يستقر فى عمله الجديد حتى اتخذ جميع الاجراءات العظيمة لاقرار الأمن فى العاصمة ونشر الطمأنينة ، فأفهـم الشرطة أنه سوف يضرب بيد من حديد لا تعرف الرحمة كل من تحدثه نفسه بالشر ، لاينظر فى توقيع العقوبة الى مكانته ، وهددهم بأقصى ضروب الشدة والعنف ان مدوا أيديهم للرشوة ، فلما أدركوا مكانة الصدق فى قوله وأيقنوا صلابة عوده وتأكد لديهم أنه متعقبهم بعينه النفاذة اهتموا

بأداء واجباتهم ، وسرعان ما تبينت العاصمة أثر ذلك بعد فترة وجيزة ، فقلت السرقات قلة واضحة ، وندر الاغتيال ندرة بالغة واستقر النظام واستتب الأمن بعد غياب ، وأمن الناس على نفوسهم فناموا هادئين وعين الشرطة لاتنام عن رعايتهم . وضرب ابن أبى عامر لهم مثلا حيا فى أنه كان جادا كل الجد حين قال انه لن يرفق بأحد ما ، فقد ارتكب ابنه جرما ووقع فى أيدى الشرطة فأمر أبوه بجلده ، وما لبث هذا الشاب أن مات بعد قليل من توقيع الحد عليه .

وانحسرت الغشاوة عن عينى المصحفى ، ذلك أن خلع ابنه الذى تم فى غيبته وبغير مشورته لم يترك له مجالا للشك فى رياء ابن أبى عامر . لكن ما الذى يستطيع أن يفعله لمحاربته ؟ .

لقد أصبح خصمه أشد قوة منـــه وأعظم شكيمة اذ كان يستطيع الاعتماد على السلطانة التى يقال انه كان عشيقها ، كمـــا كان يستطيع الاعتماد على العائلات الكبيرة التى ترتبط بالأمويين برباط الولاء ، وهى الأسر التى ورث فيها الأبناء عن الآباء وظائف البلاط ، والتى تؤثر أن ترى على رأس الدولة رجلا من بيت عريق النسب (١٢) ، يستطيع الاعتماد على الجيش الذى أخذ ميله اليه يزداد شيئا فشيئا ، كما يستطيع الثقة بسكان العاصمة الذين شكروا يده عليهم فى اعادة الأمن الى نصـــابه . فهل يستطيع المصحفى مقاومة ذلك كله .. ؟ كلا !!

والسبب فى ذلك أنه لم يكن يعتمـد الا على أفراد قـلائل ربطـوا أنفسهم بمصيره وربط هو نفسه بهم ، ومع هذا فهو لايستطيع الاعتماد كثيرا على تأييدهم له ، وهكذا كان الصراع بين طرفين غير متكافئين ، أعنى بهما العبقرية والذكاء الضحل ، ولقد عـــرف المصحفى ذلك ، وعـرف أن لم يعد له غير سبيل واحد للأمان هو التودد الى غالب مهما كلفه ذلك الأمر من ثمن .

كاتب [المصحفى غالبا] وأسرف فى بذل العهود الزاهية له وهى عهود تشتاقها النفس ، وأراد تدعيم تحالفهما فخطب ابنته أســـماء لابنه عثمان ، وجازت الحيلة على القائد وتناسى حقده على الوزير وقبل عروضه ووافق على الزواج المقترح ، وبادر المصحفى الى اتمام عقد الزواج ، فلما علم ابن أبى عامر بكل هذه المكائد التى تفسد عليه جميع مشاريعه بادر الى العمل بكل ما وسعه الجهد لاحباط خطط زميله وافساد مشاريعه ، فحث ذوى النفوذ من رجال البلاط على تأييده فأجابوه وكتبوا الى غالب لافساد ما أراده المصحفى ، كما كتب ابن أبى عامر الى غالب يقول له

ان المصحفى ينصب الشراك لضربه ، ويحيى فى نفسه جميع الأحقـــاد المترسبة في صدره ضد هذا الوزير ، ورجاه أن يبقى على الوفاء على عهوده التي قطعها على نفسه في الحملة الأخيرة •

أما عن الزواج المقترح فقد قال انه ان يرد لابنتـه رجلا شريفـــا فيما يجوز أن يزفها الى رجل محدث نعمة ، لكن اليه هو ذاته ، يقصـــد بذلك ابن أبى عامر نفسه •

آمن غالب بأنه كان مخدوعا فى المصحفى فأفهمه أن يعتبر الزواج الذى يتباحثون فيه غير ذى موضوع ، وما وافى شهر أغسطس أو سبتمبر ٩٧٧ م (= محـــرم ٣٦٧ هـ) حتى عقد عقـد جديد زفت به أسماء الى ابن أبى عامر •

* * *

ما وافى يـوم ٨ سبتمبر حتى نهض ابن أبى عامـر بحملة جديدة زحف بها الى طليطلة وضم قواته الى قوات حميه الجديد ، وافتتحا حصنين من حصـون النصـارى وبعض ضـــواحى شلمنقة ، ثم عاد فلقب بذى الوزارتين ، ورفع راتبه الى ثمانين دينارا فى الشهر ، ولم يكن الحاجب يتناول أكثر من هذا المرتب •

وفى الموعد المضروب لعقد الزواج قام الخليفة ـ أو بمعنى أدق أمه التى لم يظهر عليهـا شىء من الغيرة رغم ما كان يتقوله القوم من أنها عشيقة المنصور ، وأرسل الخليفة الى غالب يستدعيه للحضور الى قرطبة مع ابنتـــه أسماء ، فلمـــا قدم أكرمت وفادته وأضاف الى ألقابه لقب « ذى الوزارتين » وهو نفس لقب الحاجب (١٣) • الذى كان حتى هذه اللحظة للمصحفى وحـده ، فكان جمع غالب لهذين اللقبين جاعلا ايـاه أكبر رجال الدولة ، وغدت له الصدارة فى الاحتفالات ، فكان يجلس والى يمينه المصحفى ، وابن أبى عامر الى يساره (١٤) •

وافق زواج ابن أبى عامر من أسماء بنت غالب عيـد رأس السنة الميلادية الذى كان المسلمون يشاركون فيه أيضا ، وتحمل الخليفة نفقات العرس لها ، وكانت الموائد بالغة الأبهة ، ولم يسبق للقرطبيين أن رأوا مثل هذا الموكب الفخم الذى أحاط بالعروس أســـماء حين غادرت القصر الخليفى ميممة قصر زوجها •

وأيا كان الدافع له على هذا الزواج فقد كان زواجا موفقا ، اذ كانت أسماء فتاة مهذبة بارعة الجمال اســـتولت على فؤاد زوجهـــا الذى كان يؤثرها على نسائه الأخريات •

أدرك المصحفي ـ منذ أن رد غالب طلبه ـ أنه مشرف على الضياع ووجد نفسه منبوذا قد انفض عنه جميع صنائعـــه والتفوا حول خصمه يحرقون البخور بين يديه وهم الذين كانوا يرون الشرف كل الشرف في مصاحبته اذا مشى الى القصر ، أما اليوم فانه يغدو اليه حين يغدو اليه وحيـــدا لا رفيق له ، وتلاشت سطوته ، وأصبحت الأمور ـ جليلها وصغيرها ـ تدبر من غير علمه ، وهكذا رأى هذا الشيخ التعس اقتراب العاصفة فانتظرها في صبر وان كان كارها لها ، ثم وقعت النكبة المروعة أسرع مما كان ينتظر ففي يوم الاثنين ٢٦ مارس ٩٧٨ م [رجب ٣٦٧هـ](١٥) صرف هو وأبناؤه وأبناء اخوته عن كل ما بيدهم من الوظائف والأعمال ، وصدر الأمر بالقاء القبض عليهم والتحوط على أملاكهم حتى تثبت براءتهم من الاختلاس الذى رموا به (١٦) ٠

وعلى الرغم من أن هذا الحادث لم يكن مفاجـــأة للمصحفي الا أنه كان ذا أثر كبير ووقع شديد على نفسه فقد تأثر كل التأثر فأرقه ضميره الذى أثقلته وضايقته المظالم التى ارتكبها خلال حياته الطويلة ، فلما أخذ في توديع أسرته قال لها : « هذا وقت اجابة الدعوة ، وأنا أرتقبه منـــذ أربعين سنة » ، فلما سألوه عما يعنيه من قوله العجيب هذا قال لهم :

« رفع على أحـدهم أيـــام عبد الرحمن وسعى به الى فأشرفت على أعماله ، فآل أمره الى ضربه وتغير نعمته واطالة حبسه ، فبينما أنا نائم ذات ليلة اذ أتانى آت فقال لى : أطلق فـلانا فقـد أجيبت دعوته فيك ، ولهذا أمر أنت لابد ملاقيه ، فانتبهت مذعورا وأحضرت الرجـل وسألته احلالى فامتنع على ، فاستحلفته على اعلامى بما خصنى به من الدعاء فقال : نعم ، دعوت الله أن يميتك في أضيق السجون كمـــا أعمرتنيه حقبة ، فعلمت أنه قد وجبت دعوته ، وندمت حيث لاينفع الندم ، وأطلقت الرجل ولم أزل أرتقب ذلك » (١٧) ٠

سبق المتهمون الى سجن الزهراء وبها سجن الحكومة ، وكان القائد هشام المصحفي ابن أخى الوزير قد آذى ابن أبى عامر لما ناله من الفخر بانتصاراته في الحملة الأخيرة ، لذلك كان هشام أول ضحية لغضب هذا الرجل القوى ، فما كاد يبلغ المطبق حتى قتل (١٨) ٠

ووقف المصحفي أمام مجلس الدولة فحاكموه محاكمـــة طال أمدها ولم تعوزهم الأدلة على ادانته ورميه بالاختلاس أيام وزارته ، وقضـــوا بمصادرة أملاكه ، وبيع قصره الفخم بضاحية الرصافة (١٩) بالمزاد ، وانهالت الاتهامات بعضها على بعض عليه واستمع اليها الوزراء الذين أرادوا التقرب الى ابن أبى عامر ، ورمى المصحفي بكل جريرة ، فاستصفوا

كل ما ملكته يمينه ، ومع ذلك لم يسلم من التشديد عليه والمضايقة يلقاها من جانب كبار رجال المحاكمة الذين كانوا يظنون أن لازال عنده شيء (٢٠) .

ولما وقف آخر مرة أمام قضاته كان تقدم السن وطول الحبس وشدة الغم قد تعاونت كلها في الحط من قواه حتى كاد أن يعجز عن قطع المسافة من الزهراء الى حيث كان قضاته ، كل ذلك وحارسه لا يخف عن الشدة عليه وحثه على الاسراع حتى لايطول انتظار المجلس له ، واذ ذاك قال له الشيخ العجوز : « رفقا بى يا بنى فستدرك ما تحبه وتشتهيه ، ويااليت أن الموت يباع فأغلى سومه حتى يرده من قد أطال عليه حومه » ، ثم أنشد (٢١) :

لا تأمنن من الزمان تقلبا	ان الزمان بأهله يتقلب
ولقد رآنى والليوث تخافنى	وأخافنى من بعد ذاك الثعلب
حسب الكريم مذلة ومهانة	ألا يزال الى لئيم يطلب (٢٢)

فلما دخل على قضاته انتحى زاوية من المجلس دون أن يحيى أحدا منهم ، فصاح به الوزير محمد بن حفص بن جابر الذى كان يتودد الى ابن أبى عامر ويتزلف اليه : « بئس الأدب لأدبك ، أما خبيت !! » فلم يقل المصحفى شيئا ولازم الصمت .

فعاد ابن حفص يلومه ويعنفه فقال له المصحفى : « يا هذا جهلت المبرة فاستجهلت صانعها ، وكفرت اليد فقصدت الأذى ولم ترهب مقدمها ، ولو أتيت نكرا لكان غيرك أدرى .. لقد نسيت الأيادى الجميلة والمبرات الجليلة » .

فبهت ابن حفص لهذه العبارة لكنه سرعان ما تمالك نفسه وقال : « هذا هو البهت بعينه ، وأى أياديك الغر مننت بها ؟ » .

ثم أخذ يعدد له أمورا أنكرها عليه فلما فرغ من كلامه رد عليه المصحفى قائلا : « هذا ما لايعرف ، والحق الذى لايرد ولا يصرف رفعى القطع عن يمناك ، وتبليغى لك الى مناك » .

فأقسم محمد بن حفص على بطلان هذه التهمة ، فانفجر الشيخ غاضبا وقال : « أنشد الله من له علم بما أذكر الا اعترف به فلا ينكره » .

فقال الوزير ابن عياش : « قد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسن ، وغيرك أولى بك وأنت فيما أنت فيه من محنتك وطلبك » .

فقال المصحفي : « أحرجني الرجل فتكلمت ، وأحوجني الى ما به أعلمت » •

وكان هناك وزير آخر هو ابن جهور حاضرا المجلس يستمع النقاش في تقزز لم يخفه ، وعلى الرغم من كراهيته للمصحفي وسعيه في اهلاكه الا انه عرف أنه ينبغي على المرء أن يرعى حرمة خصمه لاسيما اذا استذل ، وكان ابن جهور من أسرة قديمة بارزة كأسرة الحاكم نفسه فتكلم وقال لابن جابر في صوت صاحب السلطة الذي ينطقه طول ممارسته اياها : « أو ما علمت يا ابن جابر أن منكوب السلطان لايسلم على أوليائه لأنه ان فعل ألزمهم الرد ، فان فعلوا أحاق بهم من سخط السلطان ما يخشى ويخاف ، وان تركوا الرد أسخطوا الله وتركوا ما أمر به الله تعالى (٢٣) فصار الامساك أحسن ، ومثل هذا لايخفى على أبي الحسن » ، فخجـــل محمـــد بن حفص بن جابـــر من هذا الدرس القاسي واعتصم بالصمت ، بينما ارتسمت فرحة باهتة في عيني الشيخ التعس •

وتابع القوم محاكمتهم اياه وراحوا يكيلون له كل جديد من التهم ليسلبوه كل ما لديه فصاح بهم : « والله قد استنفدت ما عندي من الطارف والتليد ، ولا مطمع لي في درهم ، ولو قطعت أربا أربا » •

فتركوه وأمروا بصرفه الى محبسه (٢٤) •

أخذ المصحفي منذ هذا الوقت يتنقل بين الحرية والأسر ، لكنه كان تعيســـا في كلا الحالين ، وبدى ابن أبي عامر وكأنه يستأنس بازعاجه ويرتاح الى مضايقته ، وانه لمن الصعب على انسان أن يفسر الـكراهية الشديدة التي أبداها تجـــاه هذا الرجل العادي الذي لم يعد له شيء من الحول ولا القوة ، وانما كل ما يمكن به تبرير هذا المسلك أنه لم يسامحه على الجريمة التي اضطره الى ارتكابها وهي قتله المغيرة •

ومهما يكن الأمر فقد كان يستصحبه معه أنى ذهب دون أن يعطيه ضرورياته القصوى •

وقد قص أحد كتابه أنه رأى المصحفي أثناء احدى الحملات راقدا بالليل قرب فسطاط ســـيده وابنـــه عثمان الى جانبه يسقيه خليطا من الدقيق والماء العكر (٢٥) ، وهو كل ما تمكن عثمان من الحصول عليه •

لقد أمض الأسى المصحفي وأضعفه اليأس فنفس عن ألمه وشجونه بقصائد رقيقة رائعة النسج ، بديعة الديباج ، ومع أنه قال ذات يوم لحارسه انه يتشهى الموت الا أنه كان شديد التعلق بالحياة •

وكما كانت تنقصه رجاحة العقل والشجاعة أيام حكمه فقد كانت تعوزه كذلك الكرامة أيام محنته ، فقد كان يسعى لاستعطاف (٢٦) « الثعلب » سعياً نزل به الى أحقر الأساليب ، وحدث ذات مرة أن توسل الى ابن أبى عامر أن يكل اليه تأديب أولاده ، ولم يكن المنصور ليتصور أن المرء قد تهون عليه كرامته فيتدنى الى هذا الدرك ، وظن أن المصحفى يريد الاحتيال عليه وقال : « ان هذا الرجل يريد أن يحط من قدرى عند الناس لأنهم طالما رأونى بدهليزه خادما ومسلما ، فكيف يرونه الآن بدهليزى معلما » (٢٧) .

ظل المصحفى خمس سنوات يحيا حياة محزنة قاسية ، فلما ظهر تشبثه بالعيش رغم تقدم العمر ورأوا ما ألم به من النكبات الكثيرة ، وعرفوا فيه كراهيته للموت أوردوه هم حياض الردى فقتلوه خنقا أو سما اذ لم يتفق الكتاب العرب على الصورة التى مات بها (٢٨) ، فلما علم ابن أبى عامر بهلاك خصمه العجوز عهد الى اثنين من عماله بدفنه ، كان أحدهما كاتبه (٢٩) محمد بن اسماعيل الذى قص لنا الحادث كما شاهده فقال :

« نظرت اليه ولا أثر فيه ، وليس عليه شيء يواريه غير كساء خلق لبعض البوابين ستره به ، فدعي له محمد بن مسلمة بغاسل فغسله — والله — على فرد باب اقتلع من ناحية الدار ، وأنا أعتبر من تصرف الأقدار ، وخرجنا بنعشه الى قبره وما معنا الا امام المسجد المستدعى للصلاة ، وما تجاسر أحد على النظر اليه ، وان لى فى خبره لشأنا ما سمع بمثله طالب وعظ ، ولا وقع فى مسمع ولا تصور لحظ ، وقفت للمصحفى فى طريقه أيام تهيه وأمره ، أروم أن أناوله قصة كانت به مختصة فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة لكثافة موكبه ، وكثرة من حف به ، وأخذ الناس السكك وأفواه الطرق عليه ينظرون اليه ويسلمون عليه ، حتى ناولت قصتى بعض كتابه الذين نصبهم على جناحى موكبة لأخذ القصص . » وانصرفت ونفسى من الشرق بحاله والغصص » (٣٠) .

الفصل التاسع

ظهور ابن أبى عامر وستبداده بالأمر • الصقالبة يدبرون ما يشينه ويقدح فى السلطانة صبح • جوذر الخصى يتآمر على قتل هشـــام بن الحكم لكنه يفشل • تحديد اقامة الشـــاعر الرمادى المتآمر • الغيرة من ابن أبى عامر • حركة مناهضة الفلسفة وكتبها • محاولة وأد ملكات هشام • انشاء مدينة الزاهرة شرقى قرطبة • منع هشام من تصريف أمور الدولة • ابن أبى عامر ينظم الجيش • تفكيره فى التخلص من غالب • بلجين الفاطمى • الاكثار من البربر فى الجيش الأندلسى • استخدام النصارى فيه • مصرع غالب • الزحف على ليون • تلقيب ابن أبى عامر بالمنصور • فتكه بجعفر أمير زاب •

الفصل التاسع

ابن أبى عامر صاحب الأمر فى الحكومة

رفع ابن أبى عامر الى مرتبة الحجابة (١) يوم عزل المصحفى والقبض عليه ، ومنذ ذلك اليوم أخذ هو وحموه (٢) يتقاسمان السلطة العليا فيما بينهما ، وبلغ هو من القوة درجة خيل للناس معها أن ليس هناك أحد يقادر على مقاومته ولكنه قووم اذ كانت لا تزال فى الوجود تلك الجماعة التى كانت تود أن تسوق الخلافة الى رجل آخر غير هشام بن الحكم الثانى ، وكان جوذر هو روح تلك الجماعة ومحركها ، وذاعت أشعار الهجاء التى كان الناس يتناشدونها فى شوارع قرطبة تحت سمع الشرطة ، ولم يكن ابن أبى عامر ليتسامح أبدا فى أتفه كلمة تشير الى أى اتصال قد يكون بينه وبين السلطانة حتى لقد أعدم مغنية دفعها سيدها — ترغيبا للوزير فى شرائها — الى انشاد أغنية تتغنى فيها بصبح (٣) .

على ان الناس كانوا ينشدون فى ذلك الوقت نفسه فى شوارع البلد أمثال هذا الشعر :

اقترب الوعد وكان الهلاك وكل ما تحذره قد أتاك

خليفة يلعب فى مكتب وأمه (٤) ....

ولو اقتصر الأمر على النيل من البلاط لما كان الخطر جسيما ، لكن جوذر جرؤ على الذهاب الى أبعد من ذلك حين اتفق مع القاضى عبد الملك بن المنذر على تدبير مؤامرة ترمى الى قتل الخليفة الشاب واحلال طفل صغير مكانه من أحفاد عبد الرحمن الناصر يعرف بعبد الرحمن بن عبيد الله ، وساهم فى هذه المؤامرة نفر من القضاة والفقهاء والأدباء من بينهم الشاعر الأندلسى الألمعى الرمادى (٥) الذى كان يحقد على ابن أبى عامر حقدا مريرا لصداقة خالصة بينه وبين المصحفى ، كما كان أحد الرجال القلائل الذين ظلوا على الولاء له حتى بعد أن قلب له الدهر ظهر المجن ، فكان صدره يضطرم بالرغبة الملحة فى الثأر له ، ومن ثم أرسل هجوه فى ابن أبى عامر شعرا لاذعا قاذعا (٦) .

اعتمد المتآمرون فى نجاح مشروعهم على مشاركة الوزير زياد بن أفلح لهم وهو الذى كان يشغل اذ ذاك ولاية الشرطة بالعاصمة ، فاتفقوا معه على الساعة واليوم اللذين ينفذون فيهما خطتهم ، ووكلوا أمر قتل الخليفة (الصغير هشام بن الحكم) الى جوذر الذى وان لم يعد من رجال البلاط الا أن مكانته السابقة كانت تبيح له الدخول على الخليفة ، واتفق شركاء الجريمة على استخلاف عبد الرحمن (بن عبيد الله بن الناصر لدين الله) حالما يفرغون من الفتك بالخليفة هشام ٠

فلما وافى اليوم المضروب لهذا الجرم غادر زياد بن أفلح القصر الخليفى عائدا الى مسكنه الواقع فى أقصى المدينة مستصحبا معه جميع رجاله ، وطلب جوذر الأذن بالمثول بين يدى الخليفة فناله ، فلما كان فى حضرته استل خنجره وهم بطعنه لولا أن تداركه أحد الحرس واسـمه (أحمد بن محمد) بن عروس وكان بالبهو اذ رمى بنفسه على القاتل وحال بينه وبين اتمام فعلته ، ونشب بينهما عراك تمزقت خلاله ثياب جوذر ، فاستعان ابن عروس بالحرس فهبوا مهطعين وأمسكوا بالخصى ، فلما سمع ابن أفلح بفشل المؤامرة بادر بالقدوم الى القصر فلامه ابن عروس على تثاقله وصارحه بوثوقه من أن له يدا فى الجريمة التى كان يراد ارتكابها ، لكنه أخذ يبرىء ساحته محتجا باخلاصه للسلطان ، وأراد دفع الشكوك التى حامت حوله فألقى القبض فى ساعته على المشتبه فيهم (٧) ، وفيهم جوذر نفسه وزج بهم فى سجن الزهراء ٠

واقتيد المتآمرون الى المحاكمة ولم يلبث أن صدر الحكم بادانة كبيرهم ، لكن القضاة لم يبينوا على وجه التحديد نوع القصاص الذى ينبغى توقيعه ، بل اكتفوا بالاشارة الى الآية القرآنية الكريمة (٨) (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) ، وتفسير القصاص فى هذه الآية واضح جدا ٠

وتركت المحكمة للخليفة اختيار العقوبة التى يريد انزالهـــا بهم ، واذ ذاك قام زياد ابن أفلح — وكان أحد القضاة — فبذل قصارى جهده لاستعادة ثقة ابن أبى عامر به ، فكان أول من طلب توقيع أشد القصاص قسوة على الجناة وظفر رأيه بالتأييد ، فصلب عبد الملك بن منذر ، وقتل عبد الرحمن الذى أرادوا سوق العرش اليه (٩) ٠

أما جوذر فاننا نجهل ما قرروه بشأنه وان كانت كل الظواهر تحمل على الظن بأنه قتل مصلوبا ، أما الرمادى فكان مصيره أهون قليلا وان لم

يحسد عليه ، اذ كان ابن أبى عامر يرغب فى نفيه لكنه استجاب لالتماسات أصدقاء الشاعر فأذن له بالاقامة فى قرطبة اقامة مقيدة قاسية ، ونودى فى البلد بالعقاب الشديد ينزل بكل من يحاول التحدث معه ، وبذلك حكم على هذا الشاعر بالصمت الدائم المطبق ، وأصبح منذ ذلك الحين ــ على حد تعبير أحد الكتاب العرب ــ كالميت وسط الناس الذين تزدحم بهم شوارع قرطبة العاصمة (١٠) ٠

برهنت هذه المؤامرة للوزير ابن أبى عامر على أن أشد الناس موجدة وحقدا عليه انما يوجدون على وجه الخصوص بين صفوف أولئك الذين درسوا الى جانبه الآداب وعلم الكلام والفقه ٠٠٠ فهل كان ذلك نتيجة غيرتهم منه ؟ ٠

الرد على هذا بالايجاب من ناحية ، اذ ليس ثم من ينكر أن ابن أبى عامر كان وإياهم منذ قليل على قدم المساواة ورفيقهم فى الدرس ، ثم سمى به جده سموا عظيما لم يطقه الفقهاء ورجال الدين لما اضطرم فى صدورهم من الحسد له والحقد عليه ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل لقد كرهوا منه أيضا ما رمى به لديهم على وجه الخصوص من نزعات دينية معينة ، ذلك أن الرجال المتخرجين فى مدرسة معلمى قرطبة كانوا شديدى التعلق بالاسلام اللهم الا اذا استثنينا بعض المفكرين الجريئين والشعراء المفلقين ، فكانت النتيجة أن عد ابن أبى عامر ــ أن ظلما أو حقيقة ــ مسلما مغموز الايمان ، وان لم يوجد الجرىء على مواجهته بالتعنيف على اعتناقه الأفكار الحرة واعتداده التام بممارستها ، وتهامس الناس فيما بين بعضهم والبعض الآخر بكلفه بالفلسفة وأخذه نفسه ــ سرا ــ بدراسة هذا الفن والانكباب عليه ، مما كان فى ذلك الحين تهمة شنيعة ٠

ولم يخف الأمر على ابن أبى عامر ٠

وسواء أكان فيلسوفا أم لم يكن فالواقع الذى لا مراء فيه أنه كان قبل كل شىء رجل سياسة لذلك أراد أن يجرد أعداءه من ذلك السلاح الرهيب الذى يشهرونه فى وجهه للنيل منه ، فصمم أن يفهمهم أنه المسلم الكامل ، وذلك باصدار قرار اصلاحى خطير اذ بعث فى طلب العلماء والوجهاء أمثال العسيلى (١١) وابن ذكوان (١٢) والزبيدى (١٣) وأدخلهم مكتبة الحكم الثانى الضخمة وأفضى اليهم بعزمه على طرح الكتب التى تعالج الفلسفة والتنجيم وغيرهما من العلوم التى نهى عنها الشرع ، وعهد اليهم بالقيام بتطهيرها بأنفسهم ، وسرعان ما أقبلوا فى حماسة وجد على عملهم

حتى اذا فرغوا منه قام الوزير فرمى بالكتب الدنسة فى النار ، كما أحرق بعض كتبه الخاصة ليفهمهم شدة تعصبه للملة (١٤) ٠

لم يكن هناك من هو أعلم من المنصور ابن أبى عامر بما انطوى عليه هذا العمل من همجية ، لكن مهما يكن الأمر فقد نجح فى استمالة العلماء والعامة الى جانبه فعدوه منذ ذلك الحين عدو الفلاسفة (١٥) وعضد الدين ، كما أنه راح يبسط رعايته على الفقهاء ويكلؤهم بعطفه ويغمرهم بصلاته (١٦) ، ويصغي الأصغاء التام الى عظاتهم وان طالت ، ويوليهم صبرا جميلا أصبح به مضرب المثل وقدوة للغير (١٧) ٠ زد على هذا أنه نسخ القرآن بيده واستصحب معه هذه النسخة كلما خرج من سفر (١٨) ٠

ولما ذاع خبر استقامته دينيا : الأمر الذى لم يجرؤ أحد ما على نقضه لقيامه على أساس متين وجه همه الى الخليفة الذى أدرك أنه سوف يكون مبعث خوف له كلما تقدمت به الأيام وبلغ مبلغ الرجال ٠

كان الخليفة هشام (بن الحكم) ــ كما شهد مؤدبه الزبيدى قد أظهر فى طفولته من آيات الذكاء ما جعل الآمال منوطة به ، فكان يعى فى يسر عجيب كل ما يلقيه عليه أستاذه ، كما وهبه الله دقة فى الحكم على الأمور قل أن تتوفر (١٩) لغلام فى مثل عمره ، ولكنه اذ تبوأ العرش وهو حدث فقد عكفت أمه والمنصور على التناوب على اخماد ملكاته ، ولا نستطيع الجزم بأنهما أذاقاه لذة الحريم منذ وقت مبكر ، لأنه على الرغم من أنه مات بلا ولد مما يرجح هذه المسألة الى حد ما الا أنه ليس بين أيدينا دليل ينهض على حقيقة ذلك الوضع ٠ غير أن الثابت المؤكد عندنا هو أنهما بذلا كل جهدهما لاخماد ذكائه بارهاقه بالتكاليف الدينية وأدخلا فى روعه أن انصرافه للعناية بمهام الحكم يصرفه عن القيام بفرائض العبادة ويحول بينه وبين ما فيه نجاته ، ونجحا الى حد ما فى خطتهما هذه فانصرف الخليفة الغلام هشام الى أعمال البر يوليها اهتمامه ، وأخذ نفسه بمداومة النظر فى التلاوة والعكوف على الصلاة والصيام (٢٠) ، غير ان التفاتاته الذهنية كانت مبعث خوف لابن أبى عامر الذى خشى ظهور أحد ما ــ أن آجلا أو عاجلا ــ يسيطر على روح السلطان الشاب ويبصره حقيقة موقفه ، ورأى أن الخطر سيظل قائما طالما بقيت أمور الدولة تعالج فى القصر الخليفى نظرا لتردد كثير من القادة والموظفين عليه ٠ ومن ثم فلا يبعد أن تتهيأ فرصة اتصال الخليفة بواحد من هؤلاء يكون طموحا وماهرا فيعمل على اسقاط الوزير فيتم ذلك فى طرفة عين ، فكان لابد من درء هذا الخطر ، لذلك صمم المنصور أن تعالج شئون الدولة خارج القصر ، ففكر (٢١) أن ينشىء فى شرقى قرطبة وعلى ضفاف الوادى الكبير مدينة جديدة وبنى بها قصرا رائعا

لنفسه ودورا لغيره من كبار الموظفين ، ولم ينقض عامان حتى كمل البناء وتم انشاء المدينة التى سميت بالزاهرة (٢٢) ، وما لبث الوزير أن نقل اليها [سنة ٣٧٠ هـ]. (٢٣) دواوين الحكومة ، وسرعان ما ضمت الزاهرة بين أكنافها جمهورا لجبا من السكان ، كما أن الطبقات العليا فى المجتمع غادرت قرطبة والزهراء لتكون على مقربة من المكان الذى تصدر عنه جميع ما يجديهم وينفعهم ، كما ازدحمت المدينة الجديدة بالتجار ، وما مضى غير قليل من الزمن حتى اتصلت أرباض الزاهرة بأرباض قرطبة (٢٤) •

منذ ذلك الحين أصبح من اليسير مراقبة الخليفة والحيلولة بينه وبين المشاركة فى أعمال الدولة ، ومع ذلك فلم يدع المنصور فرصة تمر دون أن يبذل جهده لعزل هشام عزلة تامة،فلم يقنع بالحرس يحوطه أو العيون تراقبه بل سور القصر وخندقه واشتد فى ايذاء من تحدثه نفسه بالاقتراب منه فأصبح هشام بن صبح فى الواقع أسيرا اذ لم يكن يؤذن له بمغادرة قصر،ولم يكن يفوه بكلمة أو يأتى بحركة الا ويعلم بهـا الوزير فى لحظته ، ولم يكن الخليفة يدرى عن أمور الدولة سوى ما يرغب الوزير فى ايقافه عليه ، ولما كانت الحال تتطلب شيئا من الحيطة فقد اشاع ابن أبى عامر أن السلطان الشاب اسلم اليه مقاليد الأمور ليخلى بين نفسه وبين التفرغ لواجباته الدينية حتى اذا أدرك الوزير نجاحه فيما عمل لم يعد يشغل نفسه به بل لقد منع التفوه باسمه (٢٥) •

أراد ابن أبى عامر ان يضيف الى كل هذه الأمور امرا جديدا لا يقل أهمية عما سبق ألا وهو عزمه على اعادة تنظيم الجيش •

كان الدافع له فى هذا التنظيم عاملان : أحدهما قومى والآخر شخصى بحت • اذ أراد أن يجعل اسبانيا فى مقدمة الدول الأوربية الهامة ، كما رمى الى التخلص من غالب وهو قسيمه فى الحكم ، ولما كان الجيش فى وضعه الراهن يتألف جله من عرب اسبانيا فانه لم يكن يصلح لواحد من الهدفين اللذين يرمى الى تحقيقهما •

كان التنظيم الحربى(٢٦) من غير شك عملا شاقا لأن زعماء الجند كانوا يجمعون معظم القوة فى أيديهم ، ولم يكن رهن أمر الحاكم سوى شرذمة قليلة من العسكر ، غير أنه كان فى استطاعة السلطان دعوة جماعات من الجند تضاف الى قوات الحدود التى كانت أحسن العسكر ، الا أن العادة جرت على ألا تستدعى هذه القوات الأخيرة الا عند الضرورة القصوى لأنهم

لم يكونوا يؤلفون جزءا من الجيش الدائم (٢٧) الذى لم يكن قط كبير العدد فكان لا يتجاوز خمسة آلاف جندى رغم أن الفرسان كانوا اذ ذاك الجانب الهام من الجيش وعليهم يتوقف مصير المعارك ٠

ويستصغر ابن حوقل الرحالة شأن فرسان الأندلس ويشير الى أن عجزهم عن استعمال السروج جعلهم يتركون أرجلهم تتدلى فى استرخاء ، ثم يعود ابن حوقل فينسب الفضل فى معظم انتصارات الجيش الأندلسى الى حيله أكثر منها الى أقدامه ، غير أنه ينبغى أن نتذكر أن الشبهة تحوم حول شهادة هذا الرحالة اذ ربما كان الدافع له على التهوين من شأن هذا الجيش هو رغبته فى اغراء مولاه الخليفة الفاطمى بالاقدام على فتح شبه جزيرة اسبانيا ، الا أنه لا جدال فى أن مزاعمه كانت تنطوى على شىء من الصحة ، ولا ريب أن عرب الأندلس أخذوا يفقدون بالتدريج روحهم الحربية بسبب ما كانوا يتقلبون فيه من البلهنية وما توفر لهم من طيب المناخ ٠ لذلك لم يكن لابن أبى عامر أن يطمع فى الحصول على فتوحات باهرة بمثل هذا الجيش ٠

زد على لك عدم ثقته فى امكانية الاعتماد عليه فى محاربة غالب الذى لم يكن ثم مفر من وقوع القتال بينهما ، واذا كان غالب قد أسدى اليه كل النفع باسقاطه المصحفى الا أنه أصبح عديم الجدوى له بل غدى يراه عقبة فى طريقه ، ذلك لأن غالبا لم يكن يستصوب أعمال الوزير فكان شديد المعارضة له لا سيما فى موضوع عزل الخليفة ، فقد أحفظه وأحزنه ــ وهو مولى لعبد الرحمن الناصر والملكى المتحمس ــ أن يرى حفيد مولاه الصغير محاطا كالأسير وكالمجرم ، لذلك اعتزم ابن أبى عامر التخلص من حميه كراهية منه لمعارضته اياه ٠٠٠ لكن كيف يتسنى له أن يبلغ غايته هـذه ؟

لم يكن غالب كالمصحفى رجلا يسهل التغلب عليه وازاحته بمكيدة تدبر له فى البلاط ، بل كان قائدا بارزا فلو جاهر غالب برغبته فى تخليص الخليفة من طغيـان وزيره لانضـم اليه أغلب الجيش الذى كان رجاله يعبدونه ، وهذا أمر لم يكن مجهولا عند ابن أبى عامر الذى رأى أن وصوله الى هدفه يحتم عليه ايجاد قوات أخرى مرتبطة به وحده دون سواه ، وبعبارة أخرى كان فى حاجة الى جند أجنبى ، وأدرك ان هذا الجند تمده به المغرب واسبانيا النصرانية ٠

لم يكن ابن أبى عامر مهتما حتى هذه اللحظة بالمغرب لما تحقق لديه ــ منذ اقامته به كقاضى قضاته ــ ان ضم بلاد بعيدة وفقيرة كهذه البلاد انما

يثقل كاهل اسبانيا أكثر مما ينفعها ، فنهج نهج المصحفى من قبل حين اكتفى باقامة حامية فى سبتة وتموينها • أما بقية الاقليم فقد وكل أمر ادارته الى أمراء من أهله باذلا جهده على الدوام لايجاد روابط مختلفة (٢٨)، ولا شك أن هذه السياسة التى سلكها ابن أبى عامر كانت من وجهة النظر الأندلسية سياسة طيبة حازمة ، لكنها كانت خطرا على المغرب ، فقد قام بلجين (٢٩) ــ عامل الخليفة الفاطمى على افريقية ــ بغزو هذه البلاد فى ٢٦مارس س ٧٩ م (= ٢٤ شعبان ٣٦٨ هـ) حينما رآها مهجورة من قواتها الأصلية ، وتوالت انتصارات بلجين بعضها فى أثر بعض وساق أمامه أولئك الأمراء الذين اعترفوا بسلطان الخليفة الأموى عليهم ففروا الى ما وراء سبتة للبحث عن ملجأ لهم ، غير أن انتصارات بلجين هذه لم تعرقل مرامى ابن أبى عامر بل أجدت عليه اذ ضاقت الحال بأولئك البربر المتكدسين فى سبته ولم يعرفوا ما يعملون للجيش بعد أن سلبهم المغير بلجين جل ما يملكون ، فكان هذا فرصة طيبة للوزير الأسبانى للحصول مرة واحدة على عدد وفير من الفرسان البارعين فلم يتوان عن اغتنامها ، وكتب الى البربر يؤكد لهم توفيره الحياة الرغيدة لهم ويمنيهم بالرواتب الكبيرة اذا أحبوا المجىء الى اسبانيا فاستجابوا زرافات لدعوته ، وقام أحد أمراء زاب ــ واسمه جعفر (٣٠) ــ [بن على ويعرف بابن الأندلسى] ــ الذى طارت شهرته منذ زمن بعيد لجرأته واجتذبته وعود الوزير الخلابة فقدم الى الأندلس فى ستمائة فارس ، ونهج غيره من البربر نهجه ، وعدل ابن أبى عامر فى كرمه نحوهم رغم ما هم عليه من ضعف اللسان العربى ، حتى لقد كان يبهم عليهم الافصاح عما يريدون قوله بغير لسانهم (٣١) •

وعرف ابن أبى عامر فى هؤلاء البربر الشراهة والطمع فلم يتركهم بلا عطاء ولو لم يلحوا عليه بالسؤال ، وذلك لتقديره العظيم لمعروفهم الذى أولوه اياه • كما دفع عنهم الاستخفاف والازدراء بهم ، ونهى عن السخرية بمحاولتهم الكلام بالعربية لانهم كانوا يتكلمون فى العادة لغتهم الأصلية التى لا يفهم العرب منها كلمة واحدة (٣٢) ، وحدث فى ذات يوم وهو يستعرضهم أن اقترب منه ضابط بربرى يسمى « وانز مار » وراح يحدثه فى عربية ركيكة قائلا : « مالك ، ولك ••• اسكن فانى فى الفحص » ــ فقال : « ما ذاك يا وانزمار ؟ » فقال ما معناه : « اخرجتنى عنها والله نعمتك • أعطيتنى من الضياع ما انصب على منها من الأطعمة ما ملأ بيوتى وأخرجنى عنها ، وأنا بربرى مجوع حديث عهد بالبؤس ، أترانى أبعد القمح عنى ؟ ، ليس ذلك من رأيى » •

فتلطف به ابن أبى عامر وقال له : « لله درك من فذ عيى ، لعلك فى شـكر النعمـة أبلغ عندنا وآخذ لقلوبنا من كلام كل أشدق متزيد ، وبليغ متقنن » •

ثم التفت الى الأندلسيين المحيطين به وقد شرقوا من الضحك من لهجة البربرى وقال لهم : « كذا فلتشكر الأيادى وتستدام النعم ، لا ما أنتم عليه من الجحود الملازم والتشكى المبرح » وسرعان ما أمر لوانزمار بسـكن فخـم (٣٣) •

★ ★ ★

كذلك أمدته اسبانيا النصرانية بالجند الرائع ، ولما كان الليونيون والقشتاليون والنفاريون قد جبلوا على الطمع وضعف الوطنية فسرعان ما تهافتوا على ما عرضـه العربى عليهم من الرواتب الضـخمة حتى اذا ما أصبحوا مرؤوسيه وانخرطوا تحت رايته تفانوا فى خدمته وزاد تعلقهم به ما أحاطهم به من الرفق واللين ، وما حباهم به من الكرم والانصاف الذى تجلى فى حسن معاملته لهم ، وهو ما حرموا منه فى وطنهم •

لم تكن عناية ابن أبى عامر بالجند لتقف عند حد ، فقد جعل الأحد يوم راحة لكل جيشه على اختلاف دياناتهم ، كما كان يقف على الدوام الى جانب المسيحى فى خصامه مع المسلم (٣٤) ، فلا عجب اذا كان تعلق النصارى به لا يقل عن تعلق البربر به ، واذا كان هؤلاء وهؤلاء ــ كما يقال ــ من خاصة ملكه فقد أنكروا جميعا من أجله وطنهم ونسوه وان لم تعد الأندلس لهم وطنا جديدا ، اذ كانوا يجدون مشقة بالغة فى فهم لغتها ، بل كان موطنهم تلك المعسكرات ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يأخذون رواتبهم من خزينة الدولة الا انهم لم يكونوا يعملون فى خدمتها بل لحساب ابن أبى عامر الذى يتعلق به مستقبلهم وعليه اعتمادهم ، لذلك كانوا رهن اشارته ضد من يريد •

★ ★ ★

وفى الوقت الذى رجحت فيه كفة الأجانب فى الجيش بدل الوزير الماهر نظام العسكر الأسبانى الذى كانت قواته موجهة من قبل ضد الحكومة ، ذلك أن القبائل كانت تؤلف ــ منذ زمن بعيد ــ كتائب وجماعات وفرقا ، فأبطل ابن أبى عامر تلك العادة ووزع العرب على الكتائب المختلفة دون نظر الى القبيلة التى ينتسب اليها الفرد منهم (٣٥) ، ولو حدث مثل هذا العمل قبل ذلك بقرن من الزمان حين كان العرب يعتدون بالروح القبلية لأدى الأمر الى انقلاب جذرى فى قانون التجنيد ، لأنه كان يجرد الاشراف من بقايا قوتهم الأخيرة مما كان يؤدى بلا شك الى استياء شامل ، ولربما

أشعل فتنة عامة . أما الآن فقد أصبح الزمن غير الزمن ولم يعد تنفيذ ذلك الأمر بالعسير اذ لم تبق سوى ذكرى غابرة لفكرة التقسيم القديم الى قبائل ، وجهل كثير من العرب الى أى القبائل ينتسبون ، وعمت بلبلة أيأست النسابة من الرأى الصحيح .

حقيقة أن الخليفة الحكم الثانى (المستنصر) الذى كان يعشق الماضى الذى يعرفه تمام المعرفة قد أمر باحياء فكرة الأنساب التى ترجع الى عصر آخر وسأل النسابة اختبارها ، كما اشتهى أن ينسب كل عربى الى قبيلته (٣٦) غير أن جهوده كانت عكس السياسة الصحيحة فاصطدمت اذ ذاك بروح العصر وفشلت لأن الميل كان متجها ـ الا فى النادر ـ الى التوحيد العام ومزج الأجناس بعضها ببعض ، وكان ابن أبى عامر فى قضائه على نظام التقسيم القبلى القديم متمما لما عمله عبد الرحمن الثالث ، ذلك العمل الذى يتفق والشعور الوطنى .

كان ابن أبى عامر يستعد للحرب فى الوقت الذى يظهر فيه المودة لحميه [غالب] الذى لم يكن بالرجل الساذج ولا الذى ينقصه فهم مرامى صهره بما أدخله من التغييرات الجسيمة على الجيش فصمم على مناضلته ، وفى ذات يوم وجدا معا على برج أحد الحصون بالحدود فانهال غالب على المنصور تقريعا ولم يقصر الآخر فى الرد عليه ، واشتد الجدل بينهما حتى تحول الى عنف فصاح غالب وهو فى سورة غضبه به « يا كلب أنت الذى أفسدت الدولة وخربت القلاع وتحكمت فى الدولة » ثم استل سيفه من غمده ورماه به وهو مزبد غضبا ، فسعى بعض الضباط فى أبعاده فلم تتم الضربة وأصيب ابن أبى عامر بجرح من حميه فاشتد خوفه فقفز من أعلى البرج غير انه تعلق أثناء سقوطه بنتوء بارز كان فيه الابقاء على حياته .

لم يعد ثم مندوحة عن الحرب بعد هذا الحادث ولم يتأخر اعلانها حين جعل غالب من نفسه المدافع عن حقوق الخليفة فانخرط تحت لوائه جماعة من الجند ، كما مد له الليونيون يد المساعدة وجرت معارك كثيرة مات فيها جماعة من أبرز رجال البلاط .

فلما كانت آخر وقعة بينهما ـ وقد أوشكت على الانتهاء وأوشك جيش ابن أبى عامر على الفرار اذ بغالب الواقف أمام فرسانه يصطدم رأسه بقربوس سرجه ويجرح جرحا مميتا ويسقط لساعته من على جواده ، واذ ذاك لاذ جنده وحلفاؤه النصارى بالهرب اذ لم يجدوه بينهم ولم يعرفوا

بمكانه ، مما أتاح لابن أبى عامر نصرا مؤزرا ، ثم وجدت جثة غالب بين القتلى وذلك (٣٧) سنة ٩٨١ م (المحرم ٣٧١ هـ) ٠

لم يقنع ابن أبى عامر بهذا الفوز العظيم الذى ناله بل أراد معاودة الكرة لمعاقبة الليونيين بسبب مساعدتهم خصمه ووقوفهم الى جانبه ، كما أراد أيضا أن يبين لمواطنيه أنه اذا كان قد أحدث جيشا عظيما فخما فانه لم يوجده لمصالحه الخاصة وحدها بل ولخير البلد أيضا ، فخرج غازيا مملكة ليون وأذاقها مر النكال وجعل مقدمة جيشه بقيادة أمير يجرى فى عروقه الدم الملكى ويسمى بعبد الله ويلقب بالبطرشك (٣٨) فاستولى على سمورة فى يوليو ٩٨١ م (٣٧١ هـ) ونهبها ٠

ولما عجز المسلمون عن ارغام الحصن على التسليم أسرفوا فى الانتقام فجعلوا كل ما حول البلد طعمة للنار والدماء وقتلوا بحد السيف أربعة آلاف مسيحى وأسروا مثلهم ، حتى لقد بلغ بهم الأمر أن خربوا فى منطقة واحدة ألفا من القرى والدساكر الآهلة بالسكان وهدموا الأديرة والكنائس، وحينذاك قام راميرو الثالث ــ ولم يكن جاوز العشرين من عمره ــ فحالف غرسية فرناند قومس قشتالة ، كما حالف ملك نفارة (٣٩) ، وسار ثلاثتهم ضد ابن أبى عامر واحتدم القتال عند روطة (٤٠) فى الجنوب الغربى من شنت منكس غير أنهم هزموا أمامه واستولى المسلمون على حصن شنت منكس العظيم وأسروا قلـــة اذ أعملوا القتـل فى غالبيـــة الســـكان والجنـــد (٤١) ٠

وعلى الرغم من ان الشتاء كان قد دنى الا أن ابن أبى عامر أمر بمواصـــلة الزحف على ليون فهب راميرو لصده ودفعه وكان الحظ أكبر بسالته فنجح فى دفع المسلمين وأجبرهم على التراجع الى معسكرهم حيث كان المنصور على عريش مرتفع يشاهد المعركة ويصدر أوامره ، فلما رأى فرار رجاله احتدم غيظا وتفجر مرجل غضبه ونزل عن كرسيه ثم خلع خوذته الذهبية وافترش الأرض ، فأدرك جنده مرماه اذ كانت تلك عادة قائدهم كلما أراد اظهار سخطه حين لا يحسنون النزال ، كما أن رؤيتهم رأسه وهى عارية كان له أبلغ الأثر فى نفوسهم فخجلوا لتراجعهم ، ورأوا تلاقى لك مهما كلفهم فشدوا على العدو شدة عنيفة حتى ولى الادبار هربا منهم فتبعوه بسيوفهم حتى بلغوا أبواب ليون وكادوا أن يحتلوها لولا أن باغتتهم عاصفة هوجاء صحبها الغمام والبرد فأرغمتهم على التخلى عن المعركة (٤٢) ٠

عاد ابن أبى عامر الى قرطبة لحلول فصل الشتاء فلقب بالمنصور وهو لقب لم يكن الا للخلفاء وهو ما سنطلقه عليه من الآن فصاعدا ، ثم أراد أن يحظى بكل مراسم الشرف الخاصة بالسلطان فطلب أن يلثم يده كل شخص يأتى الى حضرته : وزيرا كان أو أميرا ، فأجيب الى ذلك ، بل لقد ذهب الناس الى أبعد من ذلك فكانوا يقبلون أيدى أطفاله الذين مازالوا بعد فى المهـد (٤٣) ٠

وخيل للناس أنه بلغ من القوة مالا مزيد عليه ، فقد أصبح بلا منافس، لكنه لم يقنع بذلك كله بل كان يرى ان هناك رجلا آخر يمكن أن يكون خطرا عليه فى قادم الأيام ان لم يكنه حتى الآن ، ونعنى به القائد (٤٤) جعفر أمير زاب الذى أدى له الخدمات الجلى أيام محاربته لغالب ، غير أن شرف مولده وشهرته الحربية أثارا غيرة المنصور وأشراف البلاط فصمم ابن أبى عامر أن يقوم بعمل يلقى على شمس مجد جعفر كلفة لا تمحى ، اذ أصدر تعاليمه السرية الى التجيبى أبى الأحوص معن وعبد الرحمن بن مطرف بالخلاص منه ، ثم دعى جعفر الى مأدبة أدبها له فلباها ، وكانت وليمة فخمة زاد فى بهجتها النبيذ الرائع الذى راح يديره الساقى بلا حساب لجعفر،وكان الوزير المنصور يقول للساقى : «أسقها أعز الناس على» ، فاحتار الساقى من المقصود من هؤلاء السادة بكلام مولاه المنصور فصاح به : « ناولها الوزير جعفر أبا أحمد ، عليك لعنة الله » ، فاستخف هذا الاطراء جعفرا ووقف رافعا الكأس وشربها حتى الثمالة ، ونسى آداب اللياقة فرقص وسرت النشوة فى الندامى الآخرين فتمثلوا به ٠

وطالت الوليمة حتى أذن الليل بالرحيل ، حتى اذا هموا بالانصراف كان السكر قد بلغ بجعفر مداه حتى لم يعد يعى شيئا ، فلما مضى قاصدا داره فى صحبة قليل من الخدم اذا بنفر من العسكر التجيبيين يهاجمونه فى الطريق ويقتلونه وهو لا يملك الدفاع عن نفسـه ، وكان ذلك يوم ٢٢ يناير سنة ٩٨٣ م [= ٣ شعبان سنة ٣٧٢ هـ] ، وأرسلوا رأسه ويمناه الى المنصور الذى ادعى جهله بقاتليه ، وان تظاهر بالحزن العميق لمصرعه (٤٥) ٠

الفصل العاشر

النزاع بين راميرو وابن عمه برميدو • الاستعانة بالمسلمين • ليون ولاية اسلامية • المنصور يستعد لمهاجمة فرنسا • استضافة ابن الخطاب له ولعسكره • سقوط برشلونة في يد المسلمين • تغلب المنصور على الكونت بوريل • التفاته شطر المغرب • ابن كنون وتقربه الى الفاطميين ، ثم ارساله عسقلاجة لمحاربة المنصور فى المغرب • مقتل ابن كنون وغضب الناس من أجله • اتهام عسقلاجة بالتآمر وقتله • المنصور يحاول تهدئه الثوار ضده بزيادة التوسعة فى المسجد • تجدد الحرب ضد ليون • انتصار الجيش الاسلامى واستسلام سمورة • المنصور يشك فى رجاله وولده عبد الله • عبد الرحمن التجيبى يثير الابن على أبيه ويتحالفان ضده • كيف تغلب المنصور على خصومه • عبد الله بن المنصور ينضم الى غرسية • استسلام غرسية وتسلم المنصور لولده عبد الله • خروج المنصور لمهاجمة برميدو • نهاية ابن البطرشك •

الفصل العاشر

الأمــور تتأزم فى وجه المنصور

سواء عرف الناس حقيقة مصرع جعفر أو جهلوها فان انتصارات المنصور الجديدة سرعان ما أنستهم هذه الجريمة • فقد استغل المنصور لصالحه مشاكل ليون الداخلية اذ هلك راميرو الثالث لفشله فى حملة ٩٨١ م ، ولم يعد كبار رجال مملكته يرغبون فى أمير لازمه سوء الطالع (١)، كما جرحهم فى كبريائهم بتمسكه بالسلطة المطلقة ، فشبت ثورة فى جليقية وصمم أشرافها على أن يسوقوا العرش الى ابن عم راميرو وهو برميدو وتوجوه فى الخامس عشر من أكتوبر ٩٨٢ م (ربيع الثانى ٣٧٢ هـ) فى كنيسة شنت ياقب ، وسرعان ما نهض راميرو لمحاربته وجرت بينهما معركة فى Portella de arenas الواقعة على حدود ليــون وجليقية ، لكنها لم تكن معركة حاسمة على الرغم من عنفها (٢) ، وأخيرا بدأ الحظ يواتى شيئا فشيئا جيوش برميدو الثانى الذى اغتصب من يد خصمه فى مارس ٩٨٤ م مدينة ليون (٣) ، فخاف الأخير أن تدور الدائرة عليه فحاول أن يجد ملجأ فى أرباض أشتورقة ، ثم اضطر أن يسأل المنصور مساعدته لقاء اعترافه بسيادته عليه (٤) ، غير أنه مات بعد قليل فى ٢٦ يونيو ٩٨٣ (٥) ، فحاولت أمه أن تحل مكانه معتمدة على عون المسلمين (٦) ، لكنها سرعان ما أبصرت انهيار آمالها ، ذلك أن برميدو أدرك أنه سوف يلاقى صعوبة كبرى فى التفاهم مع الأشراف الذين يرفضون الاعتراف به ولم يجد مندوحة له من أن يفعل ما فعله راميرو فاستنجد بالمنصور الذى وضع تحت امرته جيشا اسلاميا ضخما استطاع بمعونته اخضاع جميع مملكة ليون لسلطانه ، لكنه لم يعد منذ ذلك الحين الا قائدا للمنصور ، كما رابط فى بلـــده رهط كبير من القوات الاســـلامية لمراقبة الأمور ومساعدته (٧) •

حين رأى المنصور أن ليون غدت ولاية تدفع الجزية له عزم على توجيه جنده لمحاربة قطالونيا التى كان الخلفاء يراعونها حتى ذلك الوقت خوف قيام الفرنسيين بمحاربتهم ان هم هاجموها نظرا لأنها كانت تابعة لفرنسا ، غير أن المنصور لم يبال أبدا بهذا الأمر لمعرفته بأن فرنسا كانت اذ ذاك نهب الفوضى الاقطاعية ، وأن الأمراء القطالونيين لا يتوقعون أى

مساعدة تأتيهم من جانبها (٨) ، وحشد المنصور حشدا كثيفا من الجند غادر بهم قرطبة في الخامس (٩) من مايو ١٩٨٥ ومعه قرابة أربعين من خاصته من الشعراء الذين يرفدهم ويصلهم للتغنى بانتصاراته (١٠) ، ومر في طريقه بالبيرة وبياسة ولورقة حتى بلغ مرسية فاتتضافه ابن الخطاب الذى لم يكن من عمال الحكومة بل صاحب أملاك شاسعة تدر عليه دخلا كبيرا ، ولما كان من الموالى الأمويين فالأرجح أنه قوطى الأصل ، وربما كان أصله يرجع الى « تدمير » الذى عقد مع المسلمين وقت الفتح معاهدة فى صالحه مؤداها أن يحكم هو وابنه أتانا جيلد Athana Gild شبه مستقلين على ولاية مرسـية (١١) ٠

ومهما يكن الأمر فقد كان ابن الخطاب رجلا ميسـوط الكف وافر الثراء ، فلم يكتف باستضافة المنصور وحاشيته على نفقته الخاصة ثلاثة عشر يوما (١٢) بل استضاف كذلك جميع الجند من الوزير الى الشرطى ، واهتم بنفسه بمائدة المنصور ولم يحدث قط أن قدم فى مرة طعاما قدمه من قبل ، أو آنية سبق أن وقعت عليها العين ، حتى لقد أدى به الاسراف ذات يوم لأن يهيىء لمضيفه حماما من ماء الورد ، ومع أن المنصور ألف حياة الرفاهية الا أنه ذهل لما أظهره ابن الخطاب فلم يقصر فى الثناء عليه ، وأظهر شكره اياه فأمر باسقاط جزء من الخراج عليه ، وألزم الولاة القوامين على ادارة الاقليـم برعايتـه وألا يقصروا قط فى تلبيـة رغباته (١٣) ٠

غادر المنصور مرسية الى قطالونيا حيث نازل الكونت بوريل (١٤) فلما كان الأربعاء أول يوليو (= ١٠ صفر) وصل الى برشلونة وهاجمها ، وفى يوم الاثنين التالى (= ١٥ صفر سنة ٣٧٥ هـ) وقعت المدينة فى يده (١٥) فحكم السيف فى رقاب الكثيرين من جندها وأهلها وأسر من بقى حيا ، وخرب البلد وأضرم فيه النيران (١٦) ٠

ما كاد المنصور يؤوب من هذه الحملة التى هى الثالثة والعشرون فى عداد حملاته (١٧) حتى وجه همه شطر المغرب ، وما كان يعيى من الحرب أبدا بل كان دائم التطلع الى فتوح جديدة ٠

لقد بقى المغرب سنوات عدة فى يد بلجين عامل الخليفة الفاطمى على افريقية ، أما فى المدة الأخيرة من حكم هذا الأمير وبعد موته (١٨) فى مايو ٩٨٤ م فان الشيعة الأموية أخذت فى التحرك ، كما قامت عدة بلدان مثل فاس وسجلماسة وطرحت عن نفسها نير الفاطميين ، وحينذاك قام أمير مغربى كاد المرء أن ينساه وأعاد التمثيل على المسرح ذلك هو ابن كنون الادريسى (١٩) الذى انضم ــ كما قلنا ــ فى أيام الحكم الثانى الى صف غالب ثم استنزل الى قرطبة وبقى بها حتى بعث به المصحفى الى تونس بعد

أن عاهده الا يرجع الى المغرب أبدا ، غير أن ابن كنون لم يكن يهتم قط بالوفاء بعهده فقد قصد بلاط الخليفة الفاطمى (٢٠) وأخذ يلاحقه عشر سنوات كي يساعده على رده الى ما كان عليه ، فلما نجح فى الحصول على المال والرجال عاد الى موطنه الأصلى واشترى بالمال سواعد الكثيرين من زعماء البربر له وأوشك أن تكون له السيادة : الأمر الذى كان المنصور يعمل للحيلولة بينه وبينه ، فاتخذ لهذا الحادث تجهيزاته الضرورية فأرسل الى بلاد المغرب عددا كثيفا من الجند بقيادة ابن عمه (٢١) (عمرو بن عبد الله بن عسقلاجة) ، ولم تطل الحرب اذ كان ابن كنون ضعيفا الى درجة لا تمكنه من مقاومة خصمه فما لبث أن استسلم له بعد أن أمنه عسقلاجة على حياته وأذن له فى الاقامة بقرطبة كسابق عهده .

لم يكن أدنى شك فى أن قطع العهد لرجل شديد الجشع موغل فى الخيانة كهذا الرجل انما هو أمر ينطوى على عدم التبصر ، وقد يتساءل المرء عما اذا كانت لعسقلاجة الصلاحية فى قطعه له ، ويتركنا المؤرخون العرب فى ظلام فى هذه الناحية ، الا أن سيرة المنصور تحملنا على الظن بأن عسقلاجة قد تجاوز حدود سلطته ، لأن الوزير أعلن أن ليس لعهده قيمة ، ولما حمل ابن كنون الى الأندلس ضرب عنقه ليلا فى الطريق بين الجزيرة الخضراء وقرطبة وذلك فى شهر سبتمبر أو أكتوبر ٩٨٥ (= جمادى الأولى ٣٧٥ هـ) .

ومع أن ابن كنون كان طاغية مستبدا يشعر باللذة العارمة حين يطرح من لديه فى الحبس من ذروة صخرة النسر الا أن طريقة قتله أثارت عطف الجميع عليه ، فقد كان شريفا من نسل النبى [عليه الصلاة والسلام] ، ومن ثم كان التجاسر على حياة مثله خطيئة شنعاء فى أعين هذه الجماعات حتى ان الجند الغلاظ الذين قتلوه امتثالا للأمر الصادر اليهم ساورتهم الريبة واشتد بهم الخوف حين هبت فجأة عاصفة طرحتهم أرضا فاعتبروها نذيرا وعقابا أنزلته السماء بهم ، وانقسم الناس طائفتين : واحدة عدت عمل المنصور هذا كفرا وأخرى اعتبرته خيانة ، اذ كان عليه الوفاء بالعهد الذى قطعة قائده كما لو كان هو نفسه الذى قطعه ، وتجاهر الناس بهذه التهم رغم شدة المنصور عليهم ، وظهر الاستياء بصورة جلية حتى لم يعد فى قدرة المنصور التغاضى عن هذه الروح السائدة وبدأ يخشى العاقبة كل الخشية ، ويستطيع المرء أن يتصور مبلغ الغضب الذى وصل اليه حين علم بأن عسقلاجة هو أكثر القوم سخطا عليه ، وأنه تجاسر أمام جنده فصرخ بما انطوى عليه عمل ابن عمه من الغدر ، لذلك كان لابد له من أن يدفع ثمن هذا التهور غاليا ، فبادر المنصور الى مطالبته بالعودة الى اسبانيا لساعته

واتهمــه بالغــدر والخيانة العظمى وأدانه وقتلــه (٢٢) فى أكتوبر أو نوفمبر ٩٨٥ م (= جمادى الثانية سنة ٣٧٥ هـ) ٠

وتعالت الصيحات اذ ذاك من جديد ٠٠٠ وأشفق الناس من نكد طالع ذلك الشريف وعلى مصير عسقلاجة أيضا ، ورأى القوم أن المنصور لا يحجم عن البرهنة من جديد على اســتعماله العنف مســتهينا بكل العلاقات ووشائج الدم والقربى وذلك بقتله ابن عمه ٠

أما عشيرة ابن كنون المفجوعة فى آمالها التى عقدتها على هذا الأمير وقد أوشك أن يصبح حاكم المغرب كله فقد عملت أقصى وسعها لاثارة الفتنة ، فلما اتصل بالمنصور خبر المكيدة التى يدبرونها له أمر بنفيهم جميعا فأخرجوا من اسبانيا والمغرب معا ، غير أن أحدهم ـ وهو ابراهيم بن ادريس ـ أصمى قلب الوزير قبل رحيله بسهم أراشه من قصيدة طويلة له لهج بها الناس وراحوا ينشدونها وفيها يقول :

فيما أرى عجب لمن يتعجب	جلت مصيبتنا وضاق المذهب
انى أكذب مقلتى فيما أرى	حتى أقول : غلطت فيما أحسب
أيكون حيا من أمية واحد	ويسوم ضخم الملك هذا الأحدب (٢٣)؟
تمشى عساكرهم حوالى هودج	أعــواده : فيهــن قــرد أشــهب
أبنى أمية أين أقمار الدجى	منكم ، وما لوجوهها متغيب
أبنى أمية أين أقمار الدجى	منكم ، وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكمو عن غابها	فلذاك حاز الملك هذا الثعلب (٢٤)

وسواء أكان ثعلبا أم لم يكن ، اذ لا يزال هذا النعت الذى نعته به المصحفى عالقا به ـ فقد ايقن المنصور ضرورة القيام بعمل شىء يسترجع به ما كان له من المكانة عند الناس ، فعزم على زيادة سعة المسجد الذى أصبح يضيق بسكان العاصمة وبالجند الكثيفين القادمين من افريقية ، فبدأ بنزع ملكية أصحاب البيوت القائمة على الأرض التى يراد البناء عليها ، وكان هذا العمل من جانبه يتطلب كثيرا من اللباقة والحكمة واللين حتى لا يؤدى الأمر الى مقته وكراهيته ، ولم يكن المنصور بالذى يشق له غبار فى هذه النواحى فراح يتقدم الى أصحاب الدور واحدا بعد الآخر، وكان مثولهم بين يديه شرفا عظيما لهم ثم يقول للواحد منهم : « ان هذه الدار التى لك ياهذا أريدها لجماعة المسلمين من مالهم وفيئهم لأزيدها فى جامعهم وموضع صلاتهم ، فشطط واطلب ما شئت » فاذا ذكر محدثه الثمن الذى

يراه قال له : « هذا كثير » ثم لا يكتفى بأن ينقد البائع ثمن داره بل يعمد أيضا الى شراء مسكن آخر له ٠

وحدث أن ظلت امرأة أمدا طويلا ترفض التخلى عن بيتها لوجود نخلة فى حديقته كانت شديدة التعلق بها ، فلما رضخت أخيرا اشترطت عليه أن يشترى لها سكنا سواه ذا نخلة فى ساحته ، وكان هذا الطلب من الصعوبة بمكان ، غير أنه لما سمع بما طلبت قال : « تباع لها دارا بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال » ٠ ثم عثروا لها بعد طول بحث على بيت يطابق ما اشتهته فاشتروه بعد أن أغلى أصحابه فى الثمن ٠

آتى السخاء أكله ، ومهما كانت نقمة القوم على الوزير الا أنه لا يمكن انكار مقدرته على الأعمال الخيرة العظيمة ، كما أنه من ناحية أخرى أرغم المتدينين على الاعتراف بأن الزيادة فى المسجد عمل يستحق من أجله المثوبة ٠

أضف الى هذا أنه حين بدأت أعمال البناء شاهد الناس جماعات من الاسرى النصارى المقيدى الأقدام وهم يعملون فى تسوية الأرض ومن ثم قيل ان مجد الاسلام لم يتلألأ هذا التلألؤ من قبل ، ولم يصل الكفرة الى هذا الحد من المهانة والذل ٠

كذلك شوهد المنصور نفسه ــ ذلك السيد القوى وأعظم قادة هذا العصر ــ يحمل المكتل والمنشار كأى عامل بسيط ، كل ذلك تقربا منه للخالق ، ٠٠٠ فما أحرى أن تتلاشى جميع الآثام أمام هذا المنظر (٢٥) ٠

* * *

فى الوقت الذى كان العمل جاريا ابانه فى توسيع المسجد تجددت الحرب ضد ليون ، ذلك أن القوات الاسلامية المرابطة فى هذه المملكة أساءت السير اساءتها فى بلد مغلوب على أمره ، وكلما تشكى برميدو الثانى الى المنصور لم يتلق منه الا جوابا صيغ فى صلف وازدراء ، فلما عيل صبره نهج نهجا صارما لطرد المسلمين (٢٦) مما دفع المنصور الى ضرورة اشعاره مرة أخرى بتفوق جيوشه عليه وان كان هو فى سريرته راضيا كل الرضى عن هذه الحرب الجديدة ، راميا من ورائها الى صرف أهل العاصمة لمعاودة الحديث عن وقائعه وانتصاراته وفتوحاته بدلا من البحث عن أمور لا تعنيهم أبدا ، وقام هو بتقديم مادة الحديث اليهم ٠

ولما استولى على مدينة قلمرية فى يونيو ٩٨٧ م (= صفر ٣٧٧ هـ) سواها بالأرض حتى لقد ظلت مهجورة (٢٧) سبع سنوات ، فلما كان

العالم التالى عبر نهر دويرة وانساب الجيش الاسلامى فى مملكة ليون انسياب السيل الجارف ، مخربا كل ما يصادفه فى طريقه غير مستبق على المدن أو القلاع أو الأديرة والكنائس أو القرى والمزارع (٢٨) ، فرد عليه برميدو بأن هاجم مدينة سمورة (٢٩) ، ولا شك أنه كان مدفوعا فى ذلك بالثقة من مهاجمته هذه المدينة أولا ، غير أن المنصور أسقطها من حسابه ، وسار رأسا الى ليون التى كادت أن تسقط فى يده مرة قبل الآن لولا مناعة حصنها وضخامة أبراجها ولولا أيضا أبوابها الأربعة الرخامية وأسوارها الرومانية التى ينيف عرضعها على عشرين قدما ، فكانت لكل هذه الأسباب بالغة الحصانة والقوة ، فعزت محاولات العدو الذى نجح أخيرا فى فتح ثغرة على مقربة من الباب الغربى فى الوقت الذى كان فيه قائد الحامية ـ واسمه القومس الجليقى ـ طريح الفراش لعلة شديدة ألمت به ، ثم مالبث الخطر أن بلغ أقصى مداه ، واذ ذاك لم يعبأ القومس بمرضه بل تسربل فى لحظته بلباسه الحربى وأمر أن يحمل فى محفة الى الثغرة فألهب مرآه وكلامه حماسة جنده الخامدة فوقفوا صامدين أمام العدو ثلاثة أيام ، لكن تمكن المسلمون فى اليوم الرابع من اقتحام المدينة من بابها القبلى وجرت مذبحة مروعة حتى لقد قتل هذا القومس فى محفته وكان الواجب احترام بطولته ، وانساب المنتصرون بعد القتل مخربين كل ما فى طريقهم فلم يدعوا حجرا على حجر ، ودكوا ما صادفهم من الأبواب والبروج والأسوار والقلعة والبيوت دكا شديدا ، ولم يبقوا الا على برج واحد قائم بجانب الباب الشمالى يكاد ارتفاعه يساوى ارتفاع الأبراج الأخرى ، اذ أمر المنصور بتركه كما هو راميا من وراء ذلك أن يكون شاهدا للأجيال القادمة على بأس البلد الذى محاه من على سطح الأرض (٣٠) ٠

وارتد المسلمون بعد ذلك الى سمورة فحاصروها بعد أن أحرقوا ما صادفهم فى طريقهم من ديرى بيبرا سلونسا وسهاجون الفخمين (٣١) ٠

أما برميدو فكان دون قائده شجاعة اذ تسلل خفية ولاذ بأذيال الهرب ، فلما عرف ذلك أهل البلد أسلموا القصر الى المنصور الذى أباح سمورة للسلب والنهب ، وحينذاك اعترف أغلب الكونتات بسلطته عليهم ، أما برميدو فلم يعد له غير تلك النواحى المجاورة للبحر (٣٢) ٠

ومضى المنصور بن أبى عامر بعد ذلك عائدا الى الزاهرة بعد تلك الحملة العظيمة ، لكنه كان قلق الخاطر مشغول البال بأمور بالغة الخطورة ، فقد اكتشف أن كبار رجاله يتآمرون عليه ، وفيهم ابنه الشاب عبد الله البالغ من العمر الثانية والعشرين ٠

لم يكن عبد الله محبوبا من أبيه رغم شجاعته وفروسيته الرائعة ، وذلك لشك يخامر أباه فى صحة نسبته اليه وان جهل الابن ذلك الأمر ، ولكنه كان يرى أباه يوثر على الدوام أخاه عبد الملك الذى يصغره بست سنوات ويقدمه عليه مع اعتقاده بأنه يفوقه ذكاء وشجاعة ، لذلك كان يحس بكراهية عنيفة حادة حتى قبل وصوله الى سرقسطة مقر عبد الرحمن بن مطرف التجيبى عامل السلطان على الثغر الأعلى ، وجر عليه هذا المجلس النكبة اذ كان مضيفه شيخ أسرة بارزة توارث رجالها ولاية الملك فى هذه الناحية مدى قرن كامل من الزمان ٠

ولما كان المعروف عن المنصور أنه يميل دائما الى اضعاف شكيمة أشد رجال الدولة بأسا (٣٣) فقد كان من الطبيعى أن يخشى عبد الرحمن (بن مطرف التجيبى) وهو آخر الأشراف الباقين على قيد الحياة من أن يكون بعد قليل ضحية لطمع هذا الوزير ، ومن ثم راح يتدبر الأمر قبل وقوعه، ولم يكن تريثه فى عدم التمرد الا انتظارا لفرصة مواتية ، وها قد لاحت له الآن هذه الفرصة اذ وجد فى عبد الله الشاب اليد الصالحة لتنفيذ خططه، فراح يضرم سخطه على أبيه ويذكى فيه شيئا فشيئا فكرة التمرد ويحثه على الثورة عليه ، واتفق الاثنان : التجيبى وعبد الله على امتشاق السيف حالما تسنح الظروف وأن يتقاسما اسبانيا فيما بينهما اذا كتب لهما النصر فى هذا الصراع فيكون لعبد الله (٣٤) وسط الأندلس ولعبد الرحمن الشمال ٠ وساهم فى هذه المؤامرة كثير من أصحاب المراتب العليا فى الجيش والحكومة على السواء ، وكان من بينهم أمير يجرى فى عروقه الدم الملكى هو عبد الله البطرشك الذى كان وقتئذ عاملا على طليطلة ٠

كانت هذه المؤامرة بالغة الخطورة واتسعت حتى لم يعد فى الامكان أن يطول سترها عن عين الحاجب الحذرة ، وترامت الى سمعه فى بادى الأمر أخبار غامضة أخذت تتضح شيئا فشيئا ، وسرعان ما اتخذ التدابير الناجعة لاحباط خطط أعدائه فاستدعى ابنه اليه وأظهر له ثقته به خديعة منه ومغالطة ، وحباه بحنانه ورضائه عليه ، واستقدم عبد الله البطرشك وصرفه عن عمل طليطلة دون أن يعدم ذريعة أشبه بالحق يتذرع بها لتبرير مسلكه ، واصطنع البشاشة معه فجازت الحيلة على الأمير الذى لم يساوره أدنى شك من ناحيته عنده ، الا أن المنصور سرعان ما جرده من لقبه كوزير وحرم عليه مغادرة بيته ٠

* * *

لما أمن الوزير جانب اثنين من كبار المتآمرين بفضل حذره الشديد أعد حملة لمحاربة القشتاليين بعد أن أنفذ لولاة الحدود أمره بالحضور اليه ومرافقته ، فامتثل عبد الرحمن بن مطرف للأمر وفعل بقية الأمراء فعله

ثم أغرى المنصور من عنده من جند سرقسطة للشكوى من عبد الرحمن ففعلوا واتهموه بأخذ أرزاقهم وحبسها على نفسه ، فعزله المنصور من منصبه يوم ٨ يونيو ٩٨٩ م (= سلخ صفر ٣٧٩ هـ) ولما كان عازفا عن مجافاة كل عشيرة هاشم فقد قلد يحيى بن [عبد الرحمن بن مطرف] المعروف بسماجة ولاية الثغر الأعلى ، ولم تنقض غير أيام قلائل حتى ألقى القبض على عبد الرحمن ذاته دون أن يفهمه أنه على علم بالمؤامرة ، بل كان كل ما زعمه هو أنه يريد أن يحقق فى الطريقة التى سلكها فى التصرف فى رواتب الجند التى عهد اليه بدفعها لهم ٠

ما لبث عبد الله [بن المنصـــور بن أبى عامر] أن اشـــترك فى الجيش نفاذا لـــلأمر الصـــادر اليـــه ، وحاول المنصـــور اســـتعادة محبتـــه بمـــا حبـــاه به من ضروب العطف ، غـــير أن جميع محاولاته فى هذا الصدد ذهبت أدراج الرياح ، فقد صمم عبد الله تصميما باتا على قطع كل ما بينه وبين أبيه ، فعمد فى أثناء حصار شنت اشتيبن دى جرمان الى ترك المعسكر سرا غير مستصحب معه سوى ستة من غلمانه ، والتجأ الى غرسية الذى أمنه وآمنه ، وبقى رغم تهديدات المنصور اياه مقيما على عهده له أكثر من عام توالت عليه خلاله المحن بعضها فى أثر بعض وحاقت به الهزائم فى كل المعارك التى خاضها ، حتى اذا كان أغسطس ٩٨٩ سلبه المنصور مدينة وخشمة وأقام بها حامية اسلامية كما استولى على « القبة » (٣٥) ، ثم جد نفسه فى النهاية مضطرا لطلب الصلح وتسليم عبد الله الى أبيه ٠

وجاءت كوكبة من الفرسان من قشتالة قادت الثائر الى معسكر والده وقد امتطى بغلا فارها جليل الحلية أهداه اليه القومس ، ولما كان واثقا من عفو أبيه عنه فقد كان خالى البال ، هادىء النفس ، وبينما هو فى الطريق اذا به يصادف كتيبة مسلمة بقيادة سعد الخادم الذى قبل يده وطمأن خاطره ملقيا اليه أن أباه يعتبر ما فعله ضربا من الطيش يغتفر لمن كان فى مثل سنه ، وكانت هذه هى لهجة الحديث وقت وجود القشتاليين معه ، فلما انصرفوا الى معسكرهم عند شواطىء نهر دويرة تراجع سعد الى الوراء وأشار الى من معه من الجند بالترجل والاستعداد لقتله ، فلما سمع العامرى الشجاع هذه الكلمات غير المتوقعة لم تطر نفسه شعاعا ، بل وثب فى خفة الى جوار بغله واحتفظ بمعالم الصلبة ولاقى الموت ثابت الجنان ، وكان ذلك يوم ٩ سبتمبر ٩٩٠ م [= ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ] ٠

وكان شريكه عبد الرحمن قد أعدم قبله اذ أدين بخيانته أمانة منصبه ، فضربت عنقه بالزاهرة ، وأما عبد الله البطرشك فقد نجح فى الافلات والاختفاء عند برميدو (٣٦) ٠

لم يقنع المنصور بافساده هذه المؤامرة فحقد على قومس قشتالة ما فعله من مد يد المساعدة الى ولده عبد الله ، ودبر خطة للثأر منه ، فحرك ثائرة شانجة بن القومس ليتمرد بدوره على أبيه، ولما كان شانجة هذا معتمدا على تأييد أغلب رجال الدولة له فقد أعلن الحرب في سنة ٩٩٤ م (٣٧) ، واذ ذاك قام المنصور فأعانه واستولى على حصنى شانت اشتيبن وقلونية ، لكنه سرعان ما ارتاح لانهاء هذه الحرب ، ذلك لأن بطانته التى ألفت التفكير على نمطه — أو التى كانت تتظاهر بهذا — عيل صبرها مثله من الحرب ، فكانت لا تجد أحسن من القول بأن كل الظواهر تشير الى قرب خضوع غرسية له حتى لقد حدث أن وفد عليه ذات يوم الشاعر صاعد ممسكا بأيل وآخذا زمامه بيده ، وأنشده قصيدة متوسطة البيان قال فيها :

مولاى مؤنس غربتى ، متخطفى من ظفر ايامى ، ممنع معقلى
عبد نشلت بضبعه وغرسته فى نعمة ، أهدى اليك بأيل
سميته غرسية وبعثته فى حبله ، ليتاح فيه تفاؤلى
فلئن قبلت فتلك أسمى نعمة أسدى بها ذو منحة وتطول

وشاءت الصدفة العجيبة تحقيق ذلك اذ أصيب غرسية بسنان رمح وأسر فى الطريق ما بين القصر ولانجة على شواطىء دويرة فى نفس اليوم الذى أحضر فيه الشاعر الوعل الى مولاه أعنى يوم الاثنين ٢٥ مايو سنة ٩٥٥ م ، ولم تنقض خمسة أيام على هذا الحادث حتى مات القومس متأثرا بجراحه • ومنذ ذلك الوقت خلا الجو لشانجة فلم ينافسه منافس ، لكنه كان مضطرا لدفع جزية سنوية الى المسلمين (٣٨) •

فى خريف هذا العام نفسه خرج المنصور قاصدا محاربة برميدو انتقاما منه لايوائه متآمرا آخر (٣٩) ، فأصبح ذلك الملك فى حال يرثى لها اذ فقد كل شىء ولم يعد له من السلطة غير اسمها ، فقد انتهب الأشراف كل ما له من أرض وخدم وقطعان ، وتقاسموها فيما بينهم ، ثم سخروا منه حين قام مطالبا باستردادها ، حتى ان الملاك الصغار الذين أقامهم حراسا على القلاع المتناثرة هناك تمردوا عليه وكانوا يشيعون بين آونة وأخرى نبأ موته (٤٠) ، الأمر الذى لم يكن ذا أهمية سواء أكان حقا أم باطلا لكنه كان ذا أهمية للمنصور مشجعا له اذ ما الذى يستطيع عمله ضد هذا القائد القوى •

لا شيء مطلقـــا ٠

الا أنه سرعان ما انتبه الى غفلته بعد سقوط استرقة (٤١) التى اتخذها عاصمة له بعد خراب ليون والتى لم يلبث أن غادرها حين اقترب العدو منها ، ثم آثر الحكمة والعقل فطلب الصلح فأجيب اليه على أن يسلمه عبد الله البطرشك وان يدفع جزية سنوية (٤٢) ٠

* * *

الظاهر أنه بعد أن أسلم كونتات كاريون عاصمتهم الى جوميز اخذوا ينكرون على المنصور سلطته فكر راجعا آخذا معه الأمير عبد الله البطرشك البائس الذى قبض عليه فى نوفمبر (٤٣) (= شوال ٣٨٥ هـ) ٠ ولما كان المنصور يعلم من قبل بجرمه فقد اشتط فى معاقبته فقيده بالسلاسل وأردفه على بعير (٤٤) وأمر أن يطاف به فى شوارع العاصمة والمنادى يصيح أمامه (٤٥) : « هذا هو عبد الله بن عبد العزيز الذى أثار العدو على مصالح المسلمين » ٠ فما كادت هذه الكلمات تطرق سمعه حتى أحس الخزى والعار وقال : « كذبت وأيم الله ٠٠ انما قل انه رجل طمح فى الولاية ولم يكفر » ٠

ومع ذلك فقد كانت تعوزه الشجاعة الأدبية اذ نسى أنه ينبغى على مثله أن يتسلح بالشجاعة قبل الاقدام على المؤامرة ، فلما طرحوه فى السجن خاف أن يأخذوه بعد قليل الى المشنقة فأبدى ضعة حطت من شـــأنه الرفيع ، وكانت عكس الصرامة التى أظهرها زميله (عبد الله) بن المنصور اذا اعترف فى الأشعار التى بعث بها الى الوزير بأنه كان ألعوبة سخرت فيما حدث ، كما حاول أن يذهب غضب ابن أبى عامر فتزلف اليه وأطال ، فسماه بأكرم الرجال حتى لقد قال (٤٦) :

يا من برحماه استعنت وحق لى   منه الغياث : علاك ، استرعنى دمى

ونفعته هذه المذلة (٤٧) فأبقى المنصور على حياته لاستصغاره قتل مثل هذا الشخص ، لكنه خلاه رهين الحبس الذى بقى فيه لم يبارحه الا حين مات المنصور ، فاسترد حريته يومئذ فقط (٤٨) ٠

الفصل الحادي عشر

المنصور يعمل على جعل نفسه الحاكم الأعلى ولكن فكرة «الشرعية» تعترضه • صبح تقف في طريقه • زيرى بن عطية عامل الخليفة بالمغرب يرفع علم الثورة ضد المنصور • أطماع زيرى • صبح تبعث بالمال الى زيرى سرا • المنصور يدبر الخطة لضرب نفوذ صبح • نجاحه في استصدار مرسوم بتفويضه تصريف الأمور • اعتراف صبح بضياع نفوذها • حملة المنصور على شنت ياقب ثم على البرتغال • القبض على حطاب جاسوس وكشف مؤامرة القوامس الليونيين • المنصور يعاود مهاجمة زيرى ونهايته •

الفصل الحادى عشر

المنصـــور فى ذروة قوته

لما كان المنصور قد ولى الحكم منذ عشرين سنة فقد تطلع لأن يجعل الحكومة فى بيته وأن يدعم حكمه بالطريق الشرعى على أن يظل من حوله جاهلين هدفه الذى كان يسعى اليه ، ولذلك اصطنع التأنى والحكمة وسار فى خطوات حذرة وان شابها شىء من التوانى فى عيون البعض ، ففى عام ٩٩١ م تنازل عن لقب الحاجب لابنه عبد الملك وكان عمره اذ ذاك لا يتجاوز ثمانية عشر ربيعا واكتفى هو بلقب المنصور(١)،فلما كان العام التالى أمر أن تختم رسائل الديوان بخاتمه الخاص بدلا من خاتم الخليفة ، كما لقب بالمؤيد كنية الخليفة (٢) أيضا ٠ وفى سنة ٩٩٦ م أمر ألا ينعت سواه بالسيد وسمى فى الوقت ذاته بالملك الكريم (٣) ٠

بهذا كله أصبح ملكا وان لم يصبح خليفة ، فما الذى كان يحول بينه — يا ترى وبين أن يصير هو الخليفة ؟

الثابت الذى لا مراء فيه هو أن هشاما لم يكن مصدر خوفه ، فعلى الرغم من أنه كان لا يزال فى ريق الشباب لكنه لم يبد أية بارقة من النشاط أو يظهر أى ميل للتحرر من النير الذى كان يرسف فيه ، أضف الى ذلك أن المنصور لم يعد يخشى أحدا من أقارب الخليفة الأمراء بعد أن دبر التخلص من أشدهم خطرا عليه ونفى الذين دونهم خطرا ، وجعل الباقين فى حال أشبه ما تكون بالمتربة (٤) ٠

أفهل يظن أحد بعد هذا كله أن تلقى خططه معارضة من الجيش ٠٠٠ كلا فقد كان أغلب الجيش مؤلفا من البربر ونصارى الشمال والصقالبة والجند الذين أسروا فى طفولتهم (٥) ٠ ومجمل القول ان هذا الجيش كان يتألف من مخاطرين من أجناس شتى وكلهم له تبع وهم طوع اشارته أنى وجههم ، فمن ذا الذى كان المنصور اذن يخشاه ؟ ٠

لقد كان يخشى الشعب ٠

لكن هـذا الشعب كان لا يعـرف هشـاما بن الحـكم بل لم يكن هناك غير قلة من الناس فى العاصمة نفسها هى التى رأته ، لأنه كان فى المرات النادرة التى كان يغادر فيها سجنه الذهبى الى قصوره الريفية كان يخرج محاطا بنساء قصره ، وكان هو مثلهن تماما مغطى ببرنس كبير حتى ليعجز المرء عن تمييزه من بينهن،وكانت الشوارع التى يمر فيها غاصة بالجند تنفيذا لأمر الوزير ٠٠٠٠ ومع ذلك فقد كان هشام محبوبا من شعبه (٦) ٠

أليس هو ابن الحكم المستنصر الخليفة الطيب التقى ؟

ثم أليس هو حفيد البطل عبد الرحمن الناصر ؟

ثم أليس هو بعد ذلك كله الحاكم الشرعى ؟

لقد كانت فكرة الشرعية متأصلة فى كل النفوس ، حية فى قلوب العامة أكثر مما هى فى نفوس الأشراف الذين يرجع أغلبهم الى أصل عربى والذين لا يستبعد أن يتخلوا عنها اذا كان فى تغيير الأسرة فائدة تعود عليهم أو اذا كانت الضرورة تفرض هذا التغيير، بيد أن تفكير الأمة التى كانت ترجع الى أصل اسبانى كان يناقض تفكير هؤلاء ، اذ كان شعورها الدينى وتعلقها بالأسرة الحاكمة يؤلفان جزءا من كيانها ، وعلى الرغم من أن المنصور قد كسى الوطن بالفخار والرفاهية اللتين لم يكن يحلم بهما قط الا أن الشعب لم يكن ليغفر له بأى حال من الأحوال أنه جعل الخليفة أسـيرا للدولـة ، ولم تكن الأمة جمعاء لتتوانى عن الثورة على الوزير لو أنه حاول الجلوس على العرش ، ولم يغب ذلك كله عن فطنة المنصور ، غير أنه أخذ يمنى نفسه بتحول الرأى العام شيئا فشيئا ، ويطمع أن ينسى الشعب الخليفة نسيانا تاما ولا يفكر الا فيه هو وحده ، وحينذاك يتسنى له تغيير الأسرة الحاكمة دون حدوث أى اضطراب ٠

لذلك كان من الخير لابن أبى عامر أن يؤجل مشروعه الضخم ادراكا منه أن قوته معلقة بخيط واه ، فعلى الرغم من جميع ما أحرزه من الفتوحات والأمجاد الا أنه كانت هنـاك امرأة كادت أن تنجح فى الاطاحـة به واسـقاطه ٠٠٠٠

تلك المرأة هى صبح ٠

لقد أحبته ٠٠٠ لكن زمن العواطف العارمة كان قد انطوى من حياتهما معا ، فتخاصما ونضب الحب فى قلبيهما وحلت مكانه الكراهية يضمرها

كل منهما للآخر ، ولم تكن صبح بالمرأة المترددة التى تقف فى منتصف الطريق اذا سلكت الطريق ، فقد كانت عنيفة فى كرهها وحقدها عنفها فى عشقها وحبها ، فصممت على أن تسقط المنصور وتوسلت لتحقيق ذلك باثارة كل من فى البلاط والحريم من الرجال والنساء ، وتحدثت الى ولدها هشام ذاكرة له أن الشرف يقتضيه أن يظهر بمظهر الرجال ، وأنه آن الأوان لتحطيم القيد الذى حاول الوزير الطاغية تقييده به .

وتمت على يدها المعجزة اذ نجحت فى أن تبث القوة والنشاط فى رجل كان من أكثر الرجال خمودا لكن ما لبث المستور أن انكشف للمنصور وسقط القناع عن المخفى فكان اذا لاقاه لاقاه متجهما ، بل لقد أسرف فلم يكن يتوانى عن تقريعه ولومه ، فرغب الوزير فى تجنب العاصفة وعمد الى ابعاد كثير من الأشخاص الخطرين فى الحريم ، لكنه كان عاجزا عن اخراج من هى روح المؤامرة ، بل ان تدبيره هذا أدى الى زيادة حنقها عليه ، ولم يكن التعب ليجد سبيله الى تلك المرأة النفارية بل أظهرت أنها ذات ارادة حديدية كتلك التى لعشيقها القديم ، فأخذ جواسيسها يذيعون — أنى حلوا — أن الخليفة يرى أنه قد آن الأوان ليتحرر ويحكم بنفسه ، وانه يعتمد على وفاء شعبه الكريم فى تأييده للتخلص من سجانه ، بل لقد عبر رسل السلطانة المضيق [واجتازوا العدوة ، وبلغوا افريقية] وفى اللحظة التى تجمع فيها العامة المشاغبون بقرطبة رفع زيرى بن عطية — عامل الخليفة على بلاد المغرب — علم الثورة وأعلن أنه لم يعد فى طوقه احتمال الألم الذى يشعر به تجاه أسرة الحاكم الشرعى على يد وزير طاغيـة .

كان زيرى الشخص الوحيد الذى مازال المنصور يخشاه وظل يخافه طول حياته ، اذ كان من عادته الاستخفاف بأعدائه تخويفا لهم ، ولما كان هذا الزعيم نصف بربرى فقد ظل محتفظا فى صحرائه الافريقية بصفات جنس انقرض ، وأعنى بهذه الصفات البطش والعزم والصلف ، ومع ذلك فقد تحمل المنصور نفوذ هذا الرجل الشديد الصولة ، وحدث أن استضافه منذ عدة سنين وأكرم وفادته تقديرا لمكانته ولقبه بالوزير ووصله بالمال الوفير الذى يناسب هذا اللقب ، ودون جميع أتباعه فى ديوان الجند ، غير ان زيرى لم يشأ الرحيل حتى يعوضه النفقات وهداياه اليه ، ولم يكن لما أحاطه به المنصور من أثر فى نفسه اذ ما كاد يعود الى الأرض الافريقية حتى رفع يده الى رأسه وصاح (٧) : « الآن علمت أنك لى » ، ثم ناداه أحد رجاله بالوزير فنهاه عن هذا النداء وقال له : « ويحك ... وزير ؟ .... والله أمير ابن أمير ، واعجبى من ابن أبى عامر ومخرقته ، لأن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، ولو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله » .

وعلم المنصور بهذه الكلمات التى كانت كافية لاطاحة رأس أى شخص آخر لكنه تظاهر بعدم الاهتمام بها ، وما لبث أن عين بنفسه زيرى عاملا للخليفة على جميع بلاد المغرب ، وذلك بالرغم من خوفه منه وكراهيته له ، ولكنه كان يعتقد فيه الوفاء والصراحة • غير أن هذا الحادث أظهر له فساد حكمه اذ لم تكن صراحة زيرى ولا جفاف طبعه سوى قناع يخفى تحته كثيرا من الطمع والحقد ، لذلك سهل على صبح اغراؤه بالمال ليقوم بدور البطولة الذى رسمته له ، ولعله كان يريد اطلاق سراح مولاه من أسر المنصور ليكون فى أسره هو •

لم تكن صبح بالتى تجهل وجوب البدء بتقديم المال اليه ، ودلها دهاؤها الانثوى على الوسيلة التى تعمد اليها فى الحصول على المال ومد حليفها به ، ولما كانت تعرف أن بخزينة القصر ما يقرب من ستة ملايين دينار فقد أخذت منها ثمانين ألفا وضعتها فى مائة كوز وغطتها بالشهد والمرى وبعض السوائل المنزلية وألصقت على كل جرة ورقة باسم ما فيها ، ثم عهدت الى جماعة من الصقالبة بحملها الى مكان سمته لهم خارج المدينة ، ونجحت حيلتها فلم يخامر الوزير شك ما ، فترك الصقالبة يمرون بأحمالهم ، وبينما كان المال فى طريقه الى المغرب اذا بالمنصور يعلم بالخبر بطريقة ما فاشتد اضطرابه شدة ما كان لها أن تكون لو كان يعلم أن صبحا اختلست مال مولاه السلطان هشام ، لكن الأمور جميعها كانت تحمله على أن تدبيرها المال كان بعلم من الخليفة مما يجعل ما جرى خطيرا خطورة تحتم عليه القيام بعمل شىء مضاد ، وسرعان ما عقد اجتماعا دعى اليه الوزراء وكبار العلماء وسواهم من أصحاب الكلمة من رجال البلاط ووجهاء البلد ، وأفضى اليهم أن نساء الحريم سولت لهن أنفسهن الاستيلاء على أموال بيت المال دون الخليفة نظرا لانصرافه التام الى واجباته الدينية ، وطلب اليهم أن يخولوه السلطة فى نقل الأموال الى مكان مأمون فأجيب الى ما طلب وان لم يؤد ذلك الى نتيجة حاسمة ، اذ جاء عماله الى القصر لنقل الخزينة فحالت صبح بينهم وبين ما يريدون زاعمة أن الخليفة يمنعهم من ذلك •

وأوقع فى يد المنصور ماذا يفعل !!

أيلجؤ الى القوة ؟ •• لو أنه فعل ذلك لكان هذا عملا موجها ضد الخليفة ذاته •

واذا حاول المنصور الذهاب الى هذا الحد فسوف تعصاه العاصمة فى طرفة عين : تلك العاصمة التي تتطلع الى الثورة ولا تنظر الا اشارة من الخليفـة •

على أنه مهما كانت خطورة الموقف الا أنه لم يصل الى حد اليأس طالما لم ينزل زيرى بجيوشه فى أسبانيا ، وطالما لم يظهر الخليفة بمظهر الرجل القادر على تصريف الأمور بنفسه ٠

وهكذا لم يفقد المنصور شجاعته مادام زيرى فى افريقية وما دام الخليفة روحا بلا معنى ، لذلك خاطر المنصور بالمهم فى سبيل الأهم فغافل صبحا واحتال على مقابلة الخليفة وتحدث اليه ، وما لبث ابن أبى عامر بعد هذا اللقاء ان استعاد قوته كملك بفضل هذا النفوذ الذى تمليه الشخصيات القوية على الشخصيات الضعيفة ، فقد اعترف الخليفة بعجزه عن الحكم بنفسه ، وفوض للمنصور السلطة فى تقل الخزينة ٠

لكن ذلك لم يكف المنصور بل راح يحث الخليفة على اصدار مرسوم كتابى بذلك ، وبهذا تقطع جهيزة قول كل خطيب فوعده الخليفة بكل ما أراد ، واذ ذاك دفع اليه ابن أبى عامر مرسوما يقضى بأن يترك له هشام تدبير جميع الشئون كما كان الأمر فى الماضى ، فوقعه الخليفة فى حضرة الكثيرين من رجال الدولة البارزين الذين صادقوا على خاتمه وكانوا شهودا على ما فعل ، وكان ذلك فى فبراير أو مارس سنة ٩٧٧ م ، سعى المنصور اذ كيف يتأتى لشخص ما أن يدعى انقاذ أسير يعزف عن الحرية ؟

أمن المنصـــور منذ ذلك الوقت اندلاع الثورة فى العاصمة ٠٠٠
اذ كيف يتأتى لشخص ما أن يدعى ادقاذ أسير يعزف عن الحرية ؟

ومع ذلك فقد أدرك الوزير أنه يجب عليه ارضاء الجمهور الذى كانت صيحاته تتعالى بلا انقطاع ملحة فى رؤية سلطانه ، فرأى المنصور أن يحقق للعامة طلبها فأركب هشاما جوادا شق به شوارع العاصمة والصولجان فى يده وقلنسوة الخلفاء الطويلة على رأسه ، وسار معه المنصور وجميع رجال البلاط ، واكتظت الطرق بالجموع الكثيفة ولم يختل النظام أبدا ولم تطرق الآذان قط صيحة شغب (٨) ٠

واعترفت صبح بهزيمتها ، وأصبحت حزينة مغلوبة على أمرها محطمة النفس ، فراحت تنشــد فى العبادة ســلو الماضى والعوض عن آمالهـــا الضــائعة (٩) ٠

بقى هناك زيرى الذى تضاءل خطره منذ أن فقد نصرة الخلفة له والأموال التى كانت تمده صبح بها،ولم يعد المنصورى يرى سبيلا للتفاهم

معه بل عـده خارجا على الدولة الشرعية وعهد الى عبده الطليق واضح بالخروج لمحاربته على رأس جيش عظيم وضعه تحت امرته (١٠) .

ربما يستبعد البعض قيام المنصور بحرب أخرى قبل أن يفرغ من حرب المغرب ، لكن جرت الأمور على غير ما يتصور أحد ، اذا غتنم برميدو فرصة انشغال الوزير بثورة زيرى فقطع الجزية ، لذلك دبر المنصور مع اتباعه الكونتات الليونيين حملة عظيمة ضده ، ولعل اصراره على خروجها اليه ـ رغم الظروف المحيطة به ـ يرجع الى رغبته فى أن يدرك زيرى وبرميدو وجميع أعدائه الظاهرين والخفيين أن فى قدرته النهوض بحربين فى وقت واحد واذا كان هذا هو مقصـده فانه لم يكن مبالغا فى ثقته بقواته اذ قدر لهذه الحملة التى كان مقدما عليها ـ وأعنى بها حملة شنت ياقب دى كومبستل ـ أن لا تدانيها فى شهرتها حملة مما قام به خلال عصر فتوحه الطويل .

ونحن اذا استثنينا المدينة الخالدة روما فليس فى أوربا قاطبة مكان يبز فى قدسيته شنت ياقب بغاليسية ، ومع ذلك فليست هذه الشهرة بالقديمة اذ أنها لا ترجع الى أبعد من عصر شارلمان ، اذ يقال انه فى أثناء هذه الفترة أن أفضى كثير من الجماعات المتدينة الى تيودومير اسقف ايريه (المعروفة اليوم باســم el Padrom) أنهم رأوا فى غبش الظلام أضواء تخطف الأبصار تلتمع فى غيضة، كما ترامى الى سمعهم موسيقا شجية ليست من أهل الدنيـا ، وسرعان ما عدها الأسقف معجزة ، وتأهب ليتأكد بنفسه عما حدثوه به ، فعكف على الصوم والصلاة ثلاثة أيام سويا مضى بعدها الى الأجمة فاذا به أمام قبر من الرخام فأوحى اليه كما قال ان يعلن أنه لابد وان يكون للحوارى يعقوب بن زبدى الذى كان تزعم الأسطورة أنه بشر بالانجيل فى اسبانيا ، ومضى فأضاف الى ذلك أنه لما أمر هيرودوس بضرب عنق هذا الحوارى فى بيت المقدس حمل تلاميذه جثمانه الى غاليسيه ودفنوه بها ، ولو قدر لهذه الرواية أن تكون فى غير هذا الوقت لكانت موضع جدل وحجاج وانكار ، أما والعصر عصر ايمان ساذج فلم يكن أحد يتشكك فيما يقول القسيس حتى ولو كان ما يقول مناقضا للواقع والعقل ، ثم ما لبث البابا ليو الثالث (١١) أن أعلن على رؤوس الاشهاد أن القبر المذكور هو قبر القديس يوحنا ، فكان هذا البيان خاتمة كل بيان ، وآمن الناس بما زعمه تيودومير ، وراح أهل غاليسيا يتباهون بأن عظام أحد الحواريين موجودة تحت ثرى أرضهم حتى ان ألفونسو الثانى أراد أن تكون اقامة أســقف ابريه منذ ذلك الوقت فى تلك البقعة التى اكتشف فيها القبر ، وشيدت على الضريح كنيسة ثم جاء بعد ذلك ألفونسو

الثالث (١٢) فبنى أخرى تتيه على سابقتها في روعتها وحسنها ، واكتسبت شهرة فائقة بفضل ما قيل عن المعجزات الجمة التى جرت بين جدرانها ، وما أوشك القرن العاشر على الأفول حتى أصبح ضريح القديس يوحنا كومبستل مزارا ذائع الشهرة يحج اليه الناس من جميع الجهات وشتى النواحى ، ويقصده القوم من فرنسا وايطاليا وألمانيا بل وأقصى ربوع الشرق (١٣) ٠

وذاع فى كل بقاع الأندلس أيضا أمر يوحنا الرسول وخبر كنيسته الفخمة التى يقول فيها أحد المؤلفين العرب « انها كانت عندهم بمنزلة الكعبة فى الاسلام ، يحجون اليها من اقصى بلاد روما وما وراءها (١٤) » ، غير أن الأندلسيين لم يعرفوا هذا الاسم الا سماعا ، اذ لو أراد أحدهم رؤيته لأسره الغاليسيون ، ومن ثم لم يفكر أبدا أى عربى أن يقود جيشا يقتحم به هذا البلد النائى ، الصعب المرتقى ٠

ولما لم يكن ذلك الخاطر قد مر قط ببال أحد ما فقد صمم المنصور على اقتحامه ، وأراد أن يظهر للملأ أن المستحيل على غيره ليس بالمستحيل عليه هو ، وطمع فى تخريب أعظم المذابح قداسة عند أعداء الاسلام الا وهو مذبح الحوارى الذى يزعم أهل ليون أنه طالما حارب فى صفوفهم ٠

وفى يوم السبت ٣ يوليو ٩٩٧ م (= ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ هـ) غادر المنصور قرطبة على رأس فرسانه فحمل أولا على قورية ، ثم على بازة (١٥) حيث انضم اليه عدد كبير من القوامس المعترفين بسيادته عليهم ، ثم حمل على برتقال حيث كان ينتظره أسطوله الذى أبحر من باب قصر أبى دانس المعروف اليوم فى البرتغالية باسم : Alcacero de sol حاملا على ظهره المشاة الذين تخلصوا من مشقة السير الطويل ، وكان الأسطول مجهزا بالسلاح والذخيرة ، ثم ضمت السفن بعضها الى بعض فتكون منها جسر عبر عليه الجيش نهر دويرة ٠

ولما كان الاقليم الواقع بين هذا النهر وبين نهر منهو فى أيدى كونتات محالفين للمسلمين (١٦) فقد عبره المسلمون دون أن تقابلهم أية عقبة سوى الأراضى الصعبة العبور ، من ذلك أنه كان يوجد جبل شاهق الارتفاع صعب المرتقى غير أن المنصور عبد فيه طريقا بأيدى الفعلة بالحديد (١٧) ٠

بعد أن اجتاز القوم وادى منيه وجدوا أنفسهم فى أرض العدو ومن ثم كان عليهم أن يكونوا يقظين كل اليقظة ، الا أن أكثرية الليونيين الموجودين

فى الجيش لم تكن مطمئنة تماما ، فقد تيقظت ضمائرهم فجأة بعد طول سكون ، فتذكروا أنهم ذاهبون لاقتراف جريمة شنعاء وكادوا أن يحبطوا الحملة لولا أن سمع المنصور بما دبروه فعالج الموقف قبل أن يفلت الزمام ، ويضيع الوقت ، واليك ما قيل فى هذا الصدد :

كانت ليلة شديدة البرد عاصفة الريح غزيرة المطر ، فدعا المنصور أحد فرسانه وقال له : « انهض الآن الى فج طليارش (١٨) وأقم فيه ، فأول عابر يمر بك سقه الى » ، فمضى الفارس فى لحظته لطيته حتى بلغ الفج وقضى الليل بطوله منتظرا لاعنا ما هو فيه دون أن يرى أى شىء فيه حياة ، وأوشك الفجر أن يشرق حين لاح له من جانب المعسكر شيخ هرم يمتطى حمارا ، ويظهر على الرجل أنه حطاب اذ كان يحمل آلة الحطب ، فاستوقفه الفارس وسأله عن وجهته فأجابه الآخر : « وراء الحطب » ــ فلم يدر الجندى ما يفعل به فقال فى نفسه : « هذا شيخ مسكين نهض الى الجبل يروم حطبا فما عسى أن يريد المنصور منه ؟ » •

ثم تركه يمضى لحال سبيله ، لكنه ما لبث أن تراجع عن رأيه متذكرا أن أوامر المنصور صريحة باتة ، وأن فى عدم اطاعتها خطرا عليه ، ومن ثم أعمل الجندى مهمازه فى دابته حتى أدرك الحطاب الكهل وقال له : « ارجع الى مولانا المنصور » فسأله الرجل : « وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى ؟ ••• سألتك بالله أن تتركنى لطلب رزقى » فقال الفارس : « لا أفعل » وهكذا اضطر الرجل لاطاعته وعاد الى المعسكر •

لم يبد على الوزير الذى لم تغمض له عين أى مظهر من مظاهر الدهشة ان يسوق اليه الفارس كهلا كهذا الكهل ، بل قال لمن حوله من خدمه الصقالبة : « فتشوه » فامتثل الصقالبة لأمره فلم يجدوا معه ما يريب فقال لهم المنصور : « فتشوا برذعة حماره » وفى هذه المرة لم تذهب شكوكه عبثا اذ وجدوا فى السرج رســـالة كتبها بعض الجليقيين الذين فى الجيش الاسلامى الى مواطنيهم يدلونهم على ناحية ضعيفة من المعسكر ، ويذكرون لهم أن النجاح حليفهم ان هاجموه منها ، فلما وقف المنصور على ما فى الرسالة وعرف منها اسماء الخونة أمر فأطيحت رقابهم فى الحال ومعهم الحطاب الوسيط بينهم وبين اخوانهم فى الخارج (١٩) • وكان لهذه الخطة الحكيمة أثرها الناجع فقد جزع الليونيون الآخرون من بطش القائد فلم يعودوا يفكرون فى مثل هذا الأمر والاتصال بالعدو •

وتابع الجيش زحفه منسابا انسياب السيل الجارف فخرب فى طريقه ديرى القديسيين « كوزمو » و « داميان » واستولى على حصن

شنت بلاية ، ولما كان عدد كبير من سكان البلد قد فروا الى أكبر الجزيرتين ملتجئين اليها أو على الأصح الى احدى الصخرتين المنخفضتين الموجودتين في خليج « فيجو » فقد تعقبهم المسلمون بعد أن خاضوا مخاضة اكتشفوها فعبروها الى هذه الجزيرة وأخذوا ممن بها كل ما حملوه معهم ثم عبروا الى « أيلة » سالبين مخربين ايريه (البدرون) نفسها التى كانت محجا شهيرا لوجود الحوارى حنا دى كومبستل بها • ثم وصلوا الى هذه المدينة الأخيرة فى شهر أغسطس فوجدوها خالية من السكان الذين آثروا الهرب حين سمعوا بقدوم العدو ، فلم يجد المسلمون غير ناسك عجوز كان مقيما بجوار قبر الحوارى فسأله المنصور : « ما ذا تعمل هنا » فقال الشيخ : « أونس يعقوب » فقال له المنصور : « أقم على ايناسك » ، وكف عنه كل أذى •

وأقام المنصور حامية على القبر حتى لا تمتد اليه أيدى جنده وهم فى سكرة جنونهم •

أما بقية البلد فقد دكها عن آخرها ، وحطم أسوارها وبيوتها بل وكنائسها التى يقول بصددها أحد المؤلفين العرب ان النزول على شنت ياقب كان يوم الأربعاء فغودرت هشيما كأن لم تغن بالأمس •

ومضت القوات الخفيفة فخربت ما جاورها وسارت قد ما حتى بلغت شانت مانكش القريبة من كورون •

بعد أن أمضى المنصور أسبوعا فى شنت ياقب أمر الجند بالرجوع الى لميجو(٢٠) ، فلما بلغها أذن لحلفائه القوامس بالرجوع بعد أن وصلهم بالهدايا الجميلة لا سيما الأثواب الغالية ، ثم فصل خبر حملته فى كتاب بعث به الى البلاط ، وهو قصة حفظ لنا المؤرخون العرب مادتها بل وربما نص الفاظها (٢١) ، ثم دخل قرطبة وفى صحبته جماعة من أسرى النصارى حاملين على أكتافهم أبواب مدينة شنت ياقب ونواقيس كنيستها •

فأما الأبواب فقد وضعت فى الجامع الذى لم يكن قد فرغ من انشائه حتى ذلك الوقت (٢٢) ، وأما النواقيس فقد علقت فى سقف البناء مستعملة كمصابيح (٢٣) •

اذن فمن ذا الذى كان يجول بخاطره يومذاك أنه سيأتى يوم يقوم فيه ملك مسيحى برد هذه النواقيس الى غاليسية عيى أكتاف الأسرى المسلمين ؟

★ ★ ★

أما في المغرب فكان حظ جيوش المنصور أقل سعدا ٠

حقيقة أن واضحا أصاب بعض النجاح فى مبدأ الأمر حيث استولى على أصيلة ونكور ، ونجح فى مباغتة معسكر زيرى ليلا ، وقتل كثير من رجاله ، لكن لم يلبث التوفيق أن جافاه فحاقت به الهزيمة حتى اضطر للفرار الى طنجة حيث وجه رسالة للوزير يطلب منه انجاده بالامدادات. حال استلامه الكتاب ، فلم يكد المنصور يتسلم كتاب قائده حتى أنفذ عددا كبيرا من الجند الى الجزيرة الخضراء ، وأسرع فى العمل على ابحارهم ورافقهم بنفسه الى هذا الميناء ، وعهد الى ابنه عبد الملك المظفر بقيادة الحملة فعبر المضيق على رأس جيش فخم أرسى به في سبتة ، وكان لخبر وصوله تأثير عظيم اذ بادر أغلب البربر الموالين له بالانضمام الى لواء عبد الملك الذى سار بجميع من معه بعد انضمام واضح بجنده اليه ، وسرعان ما التحموا بجيش زيرى الذى كان يزحف لمحاربتهم ، وجرت بين الجانبين وقعة فى شهر أكتوبر سنة ٩٨٨ م ، استمرت من شروق الشمس الى مغيبها ، وحمى وطيس القتال ، وبينما جند المظفر على وشك الهزيمة اذا بزيرى يطعن فى ثلاثة أماكن بيد عبد كان زيرى قد قتل أخاه من قبل ، ثم فر القاتل الى المظفر مفضيا اليه بما كان منه من قتله زيرى ، فشك الأمير بادىء ذى بدء فى كلام الرجل الهارب اليه ، اذ كانت راية زيرى لا تزال منصوبة ترفرف ، فلما تأكد عنده صدق مقاله كر على العدو كرة شديدة وظهر عليه ٠

منذ ذلك الوقت تلاشى سلطان زيرى ودخلت أملاكه جميعها فى حوزة الأندلسيين ، وما لبث جراحاته التى أصابه بها العبد أن تغلت فمات (٢٤) ٠

وكان ذلك سنة ١٠٠١ م (= ٣٩٢ هـ) ٠

الفصل الثاني عشر

حملته على قشتالة • مرضه • وصاته الى ولده عبد الملك • موته • مجمل القول فيه • قوة جيشه وهيبة الأندلس • عطفه على الآداب والعلوم •

الأندلس • عطفه على الآداب والعلوم • صاعد الأندلسي البغدادي • أخلاق المنصور •

الفصل الثاني عشر

خاتمة المنصور

في ربيع ١٠٠٢ م قام المنصور - وقد اقتربت نهايته - بآخر حملة له ، وكان يتمنى على الله دائما أن يلقى ربه ومنيته في ساحة الوغى ، وكان شديد الايمان باجابة دعائه هذا ، حتى لقد كان يستصحب معه على الدوام كفنه الذى خاطته له بناته ، ولم يدفع فى هذا القماش غير المال المحمول اليه من ضيعته المحيطة ببيته الموروث فى « طرش » ليكون منزها عن كل حرام ، وأمر الا يدفع فيه شيء من مال متحصل عليه من غير هذا الوجه ، وكلما دنى من الشيوخة ازداد تعبدا ، ولما كان القرآن الكريم يشير الى أن الله عاصم من النار وجوه الذين عفروا أقدامهم بتراب الجهاد فقد جرت عادة المنصور - كلما بلغ محلة من المحلات - أن يبادر الى جمع ما يكون قد علق بثيابه من التراب ويحتفظ به فى صرة أعدها لهذا الغرض وحده . ولما حضرته المنية أمر أن يجعلوا هذا التراب معه فى لحده عسى أن تكون المشقة التى تكبدها فى جهاده شفيعا له عند رب العرش (١) .

ولقد تكللت بالنصر حملته الأخيرة التى شنها على قشتالة شأنها فى ذلك شأن جميع حملاته السالفة ، وتوغل حتى بلغ Canales (٢) ، ودك دير القديس أملين حامى قشتالة ، كما خرب قبل ذلك بخمس سنوات كنيسة حامى غاليسية .

وفى أثناء عودته اشتد به المرض ، ولما كان سيء الظن بأطبائه الذين لم يتفقوا على تشخيص كنه علته أو كيف يكون برؤه منها فقد أصر على رفض كل ما أشاروا به عليه من علاج ، يقينا منه بأنه غير ناج من الموت ، وقعد به الداء حتى أعجزه عن امتطاء جواده فحمل فى محفة وقاسى الآلام الشداد حتى كان يقول : « ان زمامى يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما أصبح فيهم أحد أسوأ حالة منى » .

وظل ابن أبى عامر محمولا على ظهور الرجال أربعة عشر يوما حتى أدرك مدينة سالم ، لا يشغل باله سوى خاطر واحد هو أن سلطته كانت مضطربة على الدوام غير ثابتة الدعائم وتقابل بالمعارضة ، وعلى الرغم من انتصاراته الجمة وشهرته المدوية الا أنه كان يخشى حدوث ثورة بعد موته تطوح بكل ما لأسرته من البأس ، واستبد به هذا الخاطر فعكر عليه صفو أيامه الأخيرة فدعى الى سريره ابنه البكر عبد الملك وألقى اليه بتعاليمه ووصاياه ٠

لقد أوصاه أن يكل قيادة الجيش الى أخيه عبد الرحمن أما هو فيمضى الى قرطبة ليأخذ أزمة الأمور فى يديه ، وأن يبادر الى قمع كل محاولة يراد بها اثارة الفتنة ، فوعده عبد الملك باتباع نصائحه والعمل بارشاداته ، غير أن اضطراب المنصور كان قد بلغ درجة وصل الأمر معها أنه كلما هم ولده بالعودة ــ حين يحسب أن أباه قد فرغ من حديثه ــ أرجعه المنصور اليه خوفا من أن يكون قد نسى شيئا ، ولم يكن يعدم فى كل مرة نصيحة يضيفها الى ما سبق أن أوصاه به ، وحدث أن بكى الشاب فنهره أبوه وأنبه على جزعه الذى عده فاتحة خور ، ولما انصرف الابن عبد الملك استجمع المنصور قواه بعض الشىء ودعى اليه قواده الذين كادوا أن ينكروه لشدة هزاله واصفرار وجهه حتى لاح كأنه الشبح ، وكاد أن يفقد القدرة على الكلام فودعهم بحديث لا يبين أكثره ، وعمد الى الأشارة يفسر بها ما عجز لسانه عن الافصاح به ، ثم لم يلبث أن لفظ نفسه الأخير فى مساء الاثنين العاشر من أغسطس (٣) (= ٢٧ رمضان ٣٩٢ هـ) ، ودفن فى مدينة سالم وقد نقش على قبره هذان البيتان :

آثاره تنبيك عن أخبـــاره   حتى كأنك بالعيـــون تراه

تالله لا يأتى الزمان بمثله   أبداً،ولا يحمى الثغور سواه (٤) ٠

أما الكلمة التى أودعها راهب مســـيحى فى حولياته فلم تــكن أقل بيانا عن هذين البيتين اذ يقول فيها « فى سنة ١٠٠٢ م ، مات المنصور وذهب الى الجحيم (٥) » ٠

ولا شك أن هذه الكلمات البسيطة التى أملتها على الراهب كراهيته لعدو موسد فى الثرى هى أفصح فى تقدير مكانته من المراثى الطنانة التى قيلت فيه ٠

والواقع أنه لم يكن لنصارى الجزيرة خصم كهذا الخصم ، فقد شن المنصور عليهم أكثر من خمسين حملة (اذ كان من عادته أن يغزو غزوتين كل سنة ، أحداهما فى الربيع والأخرى فى الخريف) ، وقد خرج منها

كلها ظافرا ، واذ أسقطنا من حسابنا ما هدمه من البلدان التى كان من بينها ثلاث عواصم هى ليون وبانبلونة وبرشلونة (٦) فقد خرب كذلك هيكلى حاميى غاليسية وقديس قشـــتالة ، ويقول أحد المؤرخين (٧) النصارى : « فى هذا الوقت البعيد اندثرت العبادة الربانية من اسبانيا وتضاءل كليا مجد خدام المسيح ، ونهبت أموال الكنيسة المتجمعة خلال عدة قرون » .

ولقد أصبحت قلوب النصارى ترجف لذكر اسمه ، وطالما أنقذه هذا الذعر الذى بثه فيهم من أخطار دفعته اليها جرأته حتى لم يكونوا يجرؤون على الانتفاع بالظروف التى يتهيأ لهم فيها أن يكون تحت أيديهم وفى متناولهم ، فقد حدث ذلك مرة أن سلك شعبا ضيقا بين جبلين شاهقين ودخل فى أرض العدو ومضى جنده ينهبون ويخربون ذات اليمين وذات الشمال ولم يجسر المسيحيون على النهوض اليهم لمقاومتهم ، فلما قفل المنصور راجعا رأى أعداءه قد استولوا على ذلك الممر وعدم المسلمون الوسيلة لدفعهم ، وأدرك ابن أبى عامر حرج موقفه فدبر خطة حازمة وظل يبحث حتى هداه البحث للعثور على ناحية ملائمة ابتنى بها عدة دور ومنازل ، ثم أمر بضرب رؤس جماعة من الأسرى وتكديس جثثهم لتكون متاريس ، ولما أخذ فرسانه يذرعون البلد ولم يجدوا طعاما أمر بجمع آلات الحرث وطلب اليهم فلاحة الأرض ، فاشتد جزع أعدائه من تلك الاجراءات العظيمة التى أدركوا منها أن المسلمين عاقدون العزم على ألا يبرحوا بلدهم هذا ، فترددوا عليه يسألونه الصلح وأن يخرج غانما بما أصاب ، فرفض المنصور هذا العرض قائلا : « ان أصحابى أبوا أن يخرجوا ، وقالوا انا لا نكاد نصل الى بلادنا الا وقد حان وقت الغزوة الأخرى ، فلنقعد هاهنا حيث نحن الى ان يحين وقت الغزو ، فاذا غزونا عدنا الى بلادنا » .

وبد عدة مفاوضات أذعن النصارى ورضوا أن يذهب المنصور بغنائمه، ودفعهم ذعرهم منه الى أن تكفلوا له بمده بدواب الحمل لنقل ما غنمه ، وبالميرة حتى يبلغ الأطراف الاســـلامية ، وتعهدوا أن ينحوا الجيف التى تسد عليه الطريق (٨) .

وحدث فى مرة من مرات العودة من احدى الحملات أن نسى حامل الراية رايته وتركها مركوزة على قنة جبل مشرف على احـدى المـدن المسيحية فظلت الراية مكانها أياما لم يجرؤ النصارى على التقدم نحوها ليروا هل رحل المسلمون أم لا زالوا مقيمين (٩) .

ويقال أيضا ان رسولا من قبل المنصور وصل الى بلاط غرسية ملك نفارة فبولغ فى الحفاوة به ، ثم وجد فى احدى الكنائس عجوزا مسلمة ذكرت

له أنها أسرت في صباها ولازالت رهن الأسر في تلك الكنيسة ، وتوسلت اليه أن يروى للمنصور خبرها فوعدها الرسول الذى قص على الوزير خبر سفارته ، فلما فرغ من تقريره سأله المنصور عما اذا كان قد أبصر في نفارة أمرا استنكره فأفضى اليه بخبر الأسيرة المسلمة ، فصاح به المنصور « ويحك ... كان عليك ان تبتدرنى بهذا الخبر » ، وجهز في لحظته حملة تقدمت الى حدود نفارة ، فاشتد جزع غرسية وأنفذ اليه في ساعته رسالة يستفسره فيها عما اقترف من الذنب لأنه لم يكن يرى أنه جاء بشىء يهيج حفيظته ، واذ قال الوزير للرسل الذين حملوا اليه هذا الخبر : « كان قد عاقدنى ألا يبقى بأرضه أسيرا : ذكرا كان أو أنثى ، وقد بلغنى بعد مقام فلانة بتلك الكنيسة ، والله لا أنتهي عن أرضه حتى أمسحها » .

فلما وقف غرسية على جواب المنصور بادر فأرسل اليه المرأة التى طلبها وكذلك أخرتين هداه اليهما البحث ، وأقسم في الوقت ذاته أنه لم ير أبدا هؤلاء النسوة ، ولم يبلغه خبرهن من قبل ، وأعلمه أنه أمر بهدم الكنيسة التي أشار اليها المنصور (١٠) .

★ ★ ★

ـور مبعث خوف لأعدائه كما كان معبود جنده الذين يعدونه ابا يسهر على اجابة طلباتهم ويعنى بهم على الدوام ، الا أنه كان مع ذلك على جانب شديد من الصرامة البالغة في كل ما يتعلق بالنظام الحربى ، ... ذات يوم وهو يستعرض الجند سيفا يلمع بأقصى الساحة في ... ، وسرعان ما استقدم اليه صاحبه وسأله وهو يضطرم غيظا «ما حملك على أن تشهر سيفك في مكان لا يشهر فيه الا عن اذن ؟» ، فأجابه الجندى مضطربا « انى أشرت به على صاحبى مغمدا فدلق من غمده » فقال له المنصور : « ان مثل هذا لا يسوغ بالدعوى ثم التفت الى حاشيته وقال : « ليتقدم أحدكم فيضرب عنق هذا الجندى بسيفه ، وليطف برأسه ، وينادى عليه بذنبه » .

على هذه الصورة استطاع المنصور أن يوجد بين الجند نوعا من الخوف الملائم ، فكانوا اذا مر بهم مستعرضا اياهم حلق الصمت على رؤوسهم حتى ليقول أحد المؤلفين المسلمين « ان الخيل لتتمثل أطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة (١١) » .

ولقد بلغت اسبانيا زمن المنصور من القوة درجة لم تتهيأ لها أبدا من قبل حتى ولا زمن عبد الرحمن الناصر ، ويرجع الفضل في ذلك الى الجيش الذى أنشأه المنصور ودربه على الطاعة له والامتثال لأمره ، ولم

تقتصر خدمة المنصور على هذه الناحية فحسب بل لقد كان يعمل على نشر الحضارة وأدى لها خدمات جمة ·

فلقد أحب المنصور النهضة الفكرية وشجعها ، وعلى الرغم من أن هناك بعض ظروف سياسية خاصة أجبرته على التشدد مع الفلاسفة الا أنه كان لا يتوانى عن حمايتهم مادام ذلك لا يحرك غضب الفقهاء ، من ذلك مثلا ما حدث من القبض على ابن الشبانسى (١٢) والزج به فى السجن بتهمة الزندقة التى شهد عليه بها الكثيرون ، ورأى الفقهاء الحكم عليه بالموت ، وبينما هم على وشك قتله اذا بفقيه محترم هو ابن مكوى (١٣) (وكان كبير مفتيى قرطبة) يصل بأقصى سرعة وكان قد رفض المشاركة فى محاكمته ، وكان الفضـــل لطيبة قلبه أكثر مما لمنطقه فى تخليص ابن الشبانسى من الموت رغم المعارضة الشديدة التى أبداها القاضى (١٤) الذى كان يرأس المحاكمة ، ورأى المنصور اذ ذاك الفرصة لصب غضبه على ابن السريع ووضع حد لتزمت المتدينين البالغ ، فقال ان الواجب يقتضيه تدعيم الدين ، وسيجد كل صادق الايمان عونه ، أما القاضى ابن السريع فقد بذل غاية جهده ضد ابن الشبانسى فأخفق ، ولذا يجب اهدار دمه حتى لا يفترى على غيره (١٥) · غير أن هذا القول منه لم يكن ســوى مجرد تهديد فقد زج بالقاضى بضعة أيام فى الحبس ثم أطلق سراحه بعد أن أدرك وجوب الحد من قسوته ومغالاته على أولئك المفكرين المنكودين المتحررين من الآراء الموروثة ·

ووجد رجال الأدب من المنصور أجمل العطف فكان فى بطانته جماعة من الشعراء الذين كان يجرى عليهم الرواتب الكبيرة وكثيرا ما رافقــوه فى حملاته ومن بينهم « صاعد البغدادى » (١٦) الذى كان أشد الشعراء ظهورا وأكثرهم تسلية وان لم يكن أبدعهم قريحة فى الشعر ، ولا يمكن للمرء أن ينكر أنه على الرغم من كراهية الأندلسيين للطارئين عليهم الا أنهم لم يستطيعوا أن ينكروا عليه براعة الناظم وخيال القصاص وبداهة المرتجل ، وان كان فى الوقت ذاته قليل الاحترام للحقيقة ، وكان أجسر محتال يمكن للمرء أن يتخيله ·

كان صاعد اذا شرع فى الكلام استرسل واستحال ايقافه ، واذ ذاك يغرق سامعيه فى سيل من الأعاجيب وكلما سئل عن معنى كلمة لا توجد فى اللغة عمد الى ايراد بيت ينسبه لشاعر قديم ، فكان يخيل لسامعه أنه لم يوجد قط كتاب لم ينظر صاعد فيه ، وقد أراد الأدباء كشف ستره

فاطلعوه ذات يوم — وهو فى حضرة المنصور — على كتاب أبيض الصفحات رقموا على الصفحة الأولى منه عبارة « كتاب النكت لأبى الغوث الصنعانى »، ولم يكن هناك كتاب بهذا العنوان ، ولا كاتب يعرف بأبى الغوث الصنعانى ، لكن ما كاد صاعد يطالع العنوان حتى صاح بهم : « أى والله قرأته بالبلد الفلانى » ثم قبله فى احترام وذكر اسم البلد الذى ادعى أنه قرأه فيه والشيوخ الذين قرأهم وقال له : « ان كنت قرأته كما تزعم فعلام يحوى ؟ » ، فأجابه « وحق أبيك ليس فيه شعر ولا خبر » ، فانفجر الجميع ضاحكين منه سخرية به .

وحدث فى مرة أخرى أن وصلت المنصور رسالة من عامل له يدعى « برمان بن يزيد » يسأله فيها عن « القلب والتزبيل » ، أى « الزراعة والتسميد » فقال لصاعد : « هل رأيت فيما وقع لك من الكتب كتاب الفوالب والزوالب لبرمان بن يزيد » فأجابه صاعد : « والله ، رأيته فى بغداد فى نسخة لأبى دريد بخط كأكرع النمل ، فى جوانبها علامات الوضاع » ، فقال له المنصور : « أما تستحى أبا العلاء ؟ هذا كتاب عاملى ببلد كذا واسمه كذا ، يذكر فيه كذا ، وانما صنعت لك هذه الترجمة مولدة من هذه الألفاظ التى فى هذا الكتاب ، ونسبتها لعاملى لأخبرك » . فقال صاعد : قد يكون الأمر كما تقول ، ولكن لا يخطرن ببالك انى أختلق شيئا لم أره ، وأقسم لك ان الكتاب والكاتب موجودان ، ولعلها المصادفة العجيبة وحدها هى التى جعلت لعاملك نفس اسم المؤلف » .

وأطلعه المنصور فى مرة أخرى على المجموعة التى وضعها أبو على القالى ، فأجابه صاعد فى ساعته : « ان أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتابا أرفع منه وأجل ، لا أرد فيه خبرا مما أورده أبو على » فأذن له المنصور الذى كان يتطلع الى كتاب يهدى اليه يبز شهرة كتاب القالى الذى أهداه للخليفة السابق ، لأنه كان يتطلع — حين أحضر صاعدا الى الأندلس — أن يكسف مجده شمس القالى الذى أضفى عظمة أدبية على عصرى عبد الرحمن الثالث والحكم الثانى ، فانكب صاعد فى لحظته على العمل ومضى يملى فى جامع مدينة الزاهرة كتاب الفصوص « فلما فرغ منه أقبل أدباء عصره على تقليبه فقرت نفوسهم وان دهشوا أن لم يجدوا بين دفتيه سوى مجموعة من الأكاذيب ، فجميع ما فيه من التفاسير اللغوية والأخبار والشعر والأمثال من وضع صاعد،أو هكذا قالوا.فصدقهم المنصور وحنق على صاعد هذه المرة وألقى بكتابه فى النهر (١٧) وان لم يحرمه من عطفه الذى ازداد منذ أن تنبأ صاعد بأسر غرسية قومس وهى النبوءة التى كتب لها التحقيق كما رأينا من قبل ، فلم يقتصر الأمر على عطفه

عليه بل وقره توقيرا زاد عن الحد لذلك لم يكن صاعد يدع وسيلة يظهر بها تقديره لمعروفه عليه الا توســل بها وعمد اليها ، ولم يفت ذلك المنصور •

وخطر لصاعد ذات مرة أن يجمع الأكياس والصرر التى كان المنصور يبعثها اليه مملوءة بالمال وعمل منها قميصا لعبده كافور الأسود ومضى به الى القصر ونجح في ادخال البهجة على قلب الوزير قائلا له : « يا مولانا : لعبدك حاجة » قال : « اذكرها » قال : « وصول عبدى كافور الى هنا » فقال « سؤال عجيب » قال « ولا أقنع بسواه الا بحضوره بين يديك » فقال المنصور : « أدخلوه » فدخل كافور وكان عبدا فارع الطول كالنخل اشرافا ، وقد ارتدى جلبابا مختلف الألوان يشبه ثياب الصعاليك كثير الرقاع ، فقال الوزير وقد حضر : «انه لباذ الهيئة ، فمالك أصبته» فقال : « هنالك الفائدة يا مولاى ، انك وهبت لى اليوم ملأ جلد كافور مالا » فابتسم المنصور راضيا وقال له « لله درك من شـــاكر مستنبط لغوامض معانى الشكر » ثم أمر له فى لحظته بمال وافر وثياب ، وكسى كافورا أحسن الكساء (١٨) •

ومجمل القول انه اذا كان هناك رجال مثل صاعد قد نعموا بعطف الوزير فمرد ذلك الى تذوق المنصور للأدب : الأمر الذى كان ينقص أغلب الأمويين ، وقد صح لديه أن واجبه يقتضيه رفد الشعراء لكن نظرته اليهم لم تكن تعدو نظرته للأشياء الرائعة التى تفرضها عليه مكانته الرفيعة ، وان كان هو ذاته ذا موهبة وحس مرهف يمكنانه من التمييز بين الغث والثمين وبين الجوهر والعرض •

غير أنه لم يكن فى حال تمكنه من معالجة الأدب لأنه كان رجل أعمال فقد كان خير نصير لمصالح البلد المادية اذ شغل نفسه على الدوام باصلاح المواصلات ، فأنشأ كثيرا من الطرق وأقام فى استجة جسرا على نهر شنيل ، وبنى آخر فى قرطبة على نهر الوادى الكبير كلفه أربعين ألف دينار (١٩) •

وكان المنصور يتفحص كل أمر جل أو تفه ، وكان اذا أراد الأقدام على أمر هام استشار فى العـــادة أهل الحل والعقد وان كثرت مخالفته لمشورتهم ، اذ لم يزد هؤلاء الرجال أبدا عن كونهم رجالا عاديين قد استعبدتهم العادة والعرف المألوف، فهم يعرفون ماعمله عبد الرحمن الناصر أو الحكم الثانى فى ظروف مماثلة لظروفهم ، ولا يؤمنون بقدرة امرء على سلوك سبيل غير السبيل التى سلكها من قبلهم ، كانوا اذا رأوا المنصور قد خالف مشورتهم

الى نهجـــه الخاص أيقنوا بفشـــله ، ثم تبرهن الأحـــداث على خطئهم الفادح (٢٠) ٠

أما فيما يتعلق بأخلاقه فالواقع أنه ارتكب أعمالا تنكرها الأخلاق ، بل اقترف جرائم لا نملك حيالها الصمت والسكوت ، كل ذلك طمعا منه فى تملك السلطة والاستحواذ على السلطان وجمع القوة فى يديه ، غير أن العدل يقتضينا أن نذكر الى جانب ذلك أنه كان وفيا كريما عادلا طالما كانت أطماعه غير خطرة ، فان كان الأمر هكذا فالصرامة ــ كما قلنا ــ أساس شخصيته ، وكان اذا صمم على شيء استحال صرفه عنه ٠

لم يكن الألم الجثمانى ليقعد المنصور عن طلبه الشيء والحاحه فيه ، فقد حدث ذات يوم أن كان به داء فى رجله فأخذ يكويه أثناء اجتماع مجلس المشورة ومضى يتكلم كأن ليس ثم شيء ، وما كان لأحد من الجالسين أن يعرف ما يحدث لولا ان تصاعدت رائحة الجلد المحترق (٢١) ، وهكذا كان كل ما فيه صورة للقوة والثبات العجيبين ، وكان ثابتا فى محبته ثبوته فى كراهيته ، فلم ينس لأحد قط معروفا أسداه اليه ، ولم يغفر لأحد ما سيئة ارتكبها ضده ، وقد آمن بذلك رفاقه الذين خيرهم وهم شباب ما يختارون من الأعمال فيما لو آلت الوزارة اليه فحصل الطلاب الثلاثة الذين حملوا كلامه على محل الجد قسموا يومذاك ما يطمعون فيه من وظائف ، أما رابعهم الذى سخر به فقد كفر عن حماقته بمصادرة كل ممتلكاته (٢٢) ٠

غير أن المنصور كان يتغلب فى بعض الأحيان على عناده اذا تبين له خطؤه ، فقد سئل ذات يوم الصفح عن جماعة من سجنائه ، فلما سرح عينيه فى القائمة طالعه اسم أحد غلمانه وكان يضمر له الحقد الدفين وقد مضت عليه فى الحبس فترة طويلة بلا جريرة تبرر كل هذا العقاب فكتب على الهامش (لا سبيل الى اطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية) ، ثم جاء الليل وطلب النوم فاستعصى عليه ووخزه ضميره ، وبينما هو بين المنام واليقظة خيل اليه أنه رأى آتيا كريه الصورة عنيف الأخذ يأمره باطلاق سراح الغلام ويتوعده بحبسه هو ، وحاول عبثا طرد هذه الأفكار السوداء عنه ، وذلك بعث فى طلب الورق وهو فى فراشه وكتب باطلاق سراح السجين وكتب هذه العبارة « هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبى عامر (٢٣) » ٠

وضمه مرة أخرى مع الوزير أبى المغيرة بن حزم مجلس شراب فى احدى حدائق الزاهرة الغناء واسمها « منية السرور » (اذ أنه رغم احترامه للدين الا أنه كان كلفا بالنبيذ طول حياته ولم يقلع عنه الا قبل عامين من

موته (٢٤)) وكانت هذه الأمسية احدى الأمسيات الجميلة التى لا يتسنى التمتع بها الا فى تلك الأجواء الجنوبية اللطيفة ، ثم أقبلت جارية جميلة كان المنصور يهواها لكنها كانت شديدة الميل لابن حزم فالقت :

قدم الليل عند سير النهار　　وبدى البدر مثل نصف سوار
فكأن النهار صفحة خـــد　　وكأن الظـــلام خـــط عذار
وكأن الـــكؤوس جامد ماء　　وكأن المـــدام ذائب نـــار
نظرى قد جنى على ذنوبا　　كيف مما جنته عينى اعتذارى
يا لقومى تعجبوا من غزال　　جائر عن محبتى وهو جارى
ليت ــ لو كان لى اليه ــ سبيل　　فأقضى مـــن حبـــه أوطـــارى

فلم يحتمل المغيرة هذه الأبيات ولم يتبصر الأمر وأجابها فى الحال بشعر قال فيه :

كيف كيف الوصول للأقمار　　بين سمر القنا وبيض الشفار
لو علمنـــا بأن حبـــك حق　　لطلبنا الحياة منك بشـــار
واذا ما الكرام هبوا لشيء　　خاطروا بالنفـــوس فى الأخطار

فلم يطق المنصور صبرا بل زأر غاضبا واستل سيفه وصاح بالجارية فى صوت هادر : « قولى وأصدقينى القول : الى من تشيرين بهذا الحنين ؟ » فأجابته الفتاة الشجاعة : « ان كان الكذب أنجى فالصدق أحرى وأولى ، والله ما كانت الا نظرة ، ولدت فى القلب فكرة ، فتكلم الحب على لسانى ، وبرح الشوق بكتمانى ، والعفو مضمون لديك عند المقدرة ، والصفح معلوم منك عند المعذرة » ثم اغرورقت عيناها بالدموع وهى تتكلم ، فعفى المنصور عنها ثم التفت الى أبى المغيرة غاضبا وأسرف فى لومه وابن المغيرة صامت لا ينطق ولا يبين ، فلما فرغ ابن أبى عامر من كلامه قال له جليسه « أيدك الله ، انما كانت هفوة جرها الفكر ، وصبوة أيدها النظر ، وليس للمرء الا ما قدر له ، لاما اختاره وأمله » • فصمت المنصور برهة ثم قال : « عفوت عنكما ، هى لك يا أبا المغيرة (٢٥) » •

ولقد ذهب ايثاره العدل مذهب المثل السائر ، فكان يحب تنفيذ العدالة دون رعاية لأحد ما ، ولم يدع لعطفه على بعض الناس مجالا يطغى عليه فيجعلهم بمنجاة من القانون • حدث أن وفد عليه رجل من العامة وقال له : « يا ناصر الحق ، ان لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك »

وأشار الى فتى صقلبى يحمل الدرقة وكان أثيرا عند المنصور ، ثم تابع كلامه فقال : « وقد دعوته الى القاضى فلم يأته » ، فقال المنصور : « أو عبد الرحمن بن فطيس بهذه المنزلة من العجز والمهانة وكنا نظنه أمضى من ذلك ؟ .. اذكر مظلمتك يا هذا » .

فروى له الرجل كيف تعاقد مع الصقلبى الذى بدى له أن ينقض ما أبرم ، فلما فرغ من كلامه قال المنصور « ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية » ثم التفت الى الصقلبى الذى ارتعدت فرائصه خوفا وقال له : « ادفع الدرقة لغيرك وانزل صاغرا ، وساو خصمك مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك » ثم قال لعامل الشرطة : « خذه الى صاحب المظالم ليقضى فيه بما يوجبه الحق عليه » . فانتصف القاضى للرجل الذى عاد الى المنصور شاكرا له يده فقال له الوزير « قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك ، وبقى انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى » .

وحدث فى مرة أخرى أن تخاصم أكبر خدمه مع تاجر مغربى فاستدعى القاضى الخادم للحضور أمامه لحلف اليمين فكبر عليه أن يقف ويقاضى،وفى ذات يوم بينما كان المنصور فى طريقه الى المسجد وفى صحبته رئيس خدمه هذا اذا بالتاجر المغربى يدنو منه ويقص عليه ما حدث ، فأمسك الوزير لساعته بخادمه وأمره بالشخوص الى القاضى ، فلما ثبتت ادانته صرفه المنصور عما بيده (٢٦) .

وقصارى القول أنه اذا كانت الأسـاليب التى اصطنعها المنصـور للاستيلاء على السلطة قد تجرمه وتدينه الا أنه يجب الاعتراف بشرف سيرته ونبل خطته حينما استتب له الأمر ، ولو كان القدر أتاح له أن يولد فى مهاد الملوكية لما أسرف الناس فى لومه الى هذا الحد على ما اقترفه من الأعمال ، ولربما عدوه اذ ذاك أحد الأمراء العظام الذين يبجلهم التاريخ ويحفظ ذكراهم ، غير أنه لما كان قد اطل على الحياة فى بيت ريفى قديم فقد اضطرته الرغبة فى تحقيق هدفه الى سلوك سبيل جم العثرات والمزالق ، وان الانسان ليستشعر الأسف على ما أخذ به نفسه من الأعمال رجاء الوصول الى مآربه دون اهتمام كبير بشرعية وسائله .

والمنصور بعد ذلك رجل فذ من نواح عدة ، وانه ليستحيل علينا ان نحبه ، كما يصـــعب علينا أن نعجب به لعـــدم التزامه جادة القوانين الأخلاقية المألوفة .

الفصل الثالث عشر

النزاع بين أنصار القديم والجديد • رجال يدعون الى ما يسمى بالملة الكلية أو الجامعة • ظهور رجال يعملون على نزع السلطة من بيت المنصور • موقف أنصار بنى أمية والعامة من التطور الاجتماعى • ظهور طبقة اجتماعية جديدة ثرية • المظفر وعبد الرحمن ولدا المنصور • احتيال شانجول ليكون وليا للعهد • تكاتف الجميع ضد مغتصب العرش • خلع شانجول والغاء بعض الضرائب • استخلاف محمد المهدى بالله • انفضاض رجال شانجول عنه • منزلته • مقتله •

الفصل الثالث عشر

اضطراب الأوضاع

حينما عاد المظفر الى قرطبة بعد موت أبيه وجد الثورة مندلعة ، فقد ألح الناس على وجوب ظهور الخليفة وان يحكم بنفسه ، ولم ترض الجماهير بما قاله هشام الثانى لها من أنه يريد متابعة السير على ما هو عليه من الحياة الهادئة فقد صمم الشعب على مطالبه مما حمل المظفر على استعمال السلاح فى تفريق جموع الناس (١) واذ ذاك استتب النظام على الرغم من أن أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر –ويدعى هشاما– تآمر ضد المظفر الذى علم بالأمر فى حينه فأحبط خطة المتآمر وقتله فى ديسمبر (٢) سنة ١٠٠٦ م [= شوال ٣٩٩ هـ] ، ثم سار فى حكم الدولة على غرار أبيه فانتصر على المسيحيين عدة مرات ، وأخذ البلد أيام حكمه يسير قدما فى طريق الرفاهية حتى لقد قيل « ان الأندلس بلغت فى ايامه نهاية الكمال » (٣) .

الا أنه حدث تغيير اجتماعى عظيم اذ تلاشى المجتمع العربى القديم بمحاسنه ومساوئه حين سعى عبد الرحمن الناصر والمنصور فى توحيد الأمة وأدركا هذه الغاية ، وكانت الطبقة القديمة من الأشراف العرب قد انحلت من جراء صراعها مع الملوكية ، فلما غلبت على أمرها وتحطمت وخمدت ريحها أخذت الأسماء القديمة فى الاختفاء يوما بعد يوم ، أما نبلاء البلاط الذين كانت تربطهم بالأمويين وشائج القربى والعصبية القبلية فقد كانوا أحسن حظا وكانت هناك أربع عائلات لا تزال على ثراها وتنافسها هى : بنو أبى عبيدة ، وبنو شهيد وبنو جهور وبنو فطيس (٤) .

غير أن أقوى الرجال حينذاك كانوا هم القادة البربر والصقالبة (٥) الذين مهد لهم المنصور وبوأهم هذه المكانة ، ولما كانوا أجانب قد نشأوا فى الحضيض فلم يكونوا يتمتعون بالاحترام الكبير ، وكان الناس ينظرون اليهم على انهم متبربرون ، وضج الأهالى بالشكوى من مظالمهم الفادحة .

أما أهل الطبقة الوسطى فقد ازداد ثراؤهم من جراء التجارة والصناعة حتى لقد ظهر زمن السلطان عبد الله المضطرب جماعة من التجار والصناع أصابوا الأموال الضخمة دون أن تكون لهم رؤوس أموال غير ما استدانوه من أصدقائهم (٦) • أما الآن وقد استقرت الأمور في نصابها فلا عجب ان أصبح من اليسير الهين ازدياد الثروات ، وعلى الرغم من سلامة هذا المجتمع الا أن جراثيم الدمار كانت تنخر فيه •

واذا كان الصراع قد توقف بين العرقيات الا انه عاد الى الظهور مرة أخرى في صورة جديدة هى النزاع بين الطبقات ، فكره العامل مخدومه . واستعر الحسد فى قلب رجل الطبقة الوسطى على الاشراف ، وان اتفق الجميع على لعن القيادة العامة لا سيما البربر ، كما كان فى أعماق الجهل الشامل شوق مبهم للمجهول ، فأصبح الدين هدفا ينضح بالسهام وعرضة للحملات القاسية ، ولم تؤت التدابير التى اتخذها المنصور حيال الفلاسفة ما كان يرتجيه الفقهاء منها بل انعكست الآية فتضاعف عدد المفكرين الأحرار وابتدأ الشك المترسب فى أعماق طبيعة الخلق العربى يظهر شيئا فشيئا فى مسوح العلم ، فتزايد تلاميذ ابن مسرة أو المسريون (٧) كما كانوا يسمون ، وعملت طوائف أخرى على نشر مبادىء شديدة الخطورة ، ويظهر أن احدى هذه الجماعات نشأت بين الطبقة الدينية نفسها ، أو لا أقل من أن أعضاءها كانوا من المعنيين بدراسة الأحاديث النبوية غير أن دراستهم اياها لابد وأنها كانت دراسة الرجل المتدين التى اتسمت بالسطحية وطبعت بطابع الميل الى كتب الشك والأسفار التى ألفها رجال ماديون كانوا يرمون الى تقويض أركان الملة ، ومن هنا نشأت فكرتهم العجيبة فى تفسير الكون اذ قالوا ان الأرض محمولة على سمكة ، والسمكة على قرن ثور ، ويحمل الثور صخرة موضوعة على كتف ملك تحته توجد العتمة ، ومن تحت العتمة ماء ليس لنهايته حد (٨) •

بهذه التفاسير الغامضة المضحكة ـ التى ربما لم تكن سوى رموز ـ جاء المتدينون بهرطقة شديدة الخطورة ، واعتقدت تلك الطائفة بعدم تناهى الكون ، وأخذت تلقن الناس أن الدين قد يفرض فيعتنق خوفا أو املاء ، لكن لا يستطاع البرهنة عليه بأدلة عقلية ، ومع ذلك فان رجال تلك الطائفة ناصبوا فى الوقت ذاته العداء تعاليم الاغريق الفلسفية وهى التعاليم التى اعتمدت عليها طائفة أخرى كانت تتألف من علماء طبيعيين أدت بهم دراسة الرياضيات الى النظر فى علم الفلك وطلبوا الأدلة الرياضية للبرهنة على الدين ، فلما لم تتحقق اربتهم انصرفوا عنه ورموه بالعجز • ونددوا

بالصوم والصلاة والزكاة والحج ، وعدوها حماقة ، لذلك لم يقصر العلماء في تعنيفهم تعنيفا حمل رايته المتدينون في جميع العصور ضد أولئك الذين نبذوا ظهريا العقائد الموروثة ، ورموهم بأن لا هم لهم في الحياة سوى الاثراء بغية التمتع بجميع أنواع اللذائذ دون احترام للشرائع ولا للأخلاق ٠

الا أن الطوائف التي هاجمت الاسلام في صراحة لم تكن أشد الطوائف خطرا عليه بل أخطرها عليه كانت تلك الجماعات التي أظهرت رغبتها في مسالمته ، ولم تكن قاصرة على المسلمين بل وجدت أيضا بين النصارى واليهود لأنها أخذت تنادي بعدم التعصب متسترة بعبارة « الملة الجامعة » ، ولم يكن يخفى على فقهاء المسلمين أن اضمحلال دين ما لا يرجع الى ما يتعرض له من الهجمات الخارجية بل الى عدم الانتصار له ، واختلاف الرجال الذين اعتنقوا هذه المبادىء فيما بينهم على نقاط معينة ، واتسعت شقة الخلاف بينهم لكنهم اتفقوا جميعا على الازدراء الشامل للتحليل المنطقي ، فقالوا ان الدنيا تزخر بكثير من الديانات والطوائف والمدارس الفلسفية التي يناصب بعضها البعض الآخر العداء وتتضارب فيما بينها ، واليك النصارى حيث نرى الملكانيين لا يطيقون النساطرة ، كما أن النساطرة يزدرون اليعاقبة،وكل واحد منهم يرى الآخر مقضيا عليه بالهلاك،كما يوجد بين المسلمين جماعة المعتزلة الذين يعدون كل مخالف لهم في تفكيرهم كافرا، كما أن الخارجي يرى من واجبه قتل كل مَن ليس من جماعته ٠

والسني لا يتفق مع هذا ولا ذاك ٠

ويوجد نفس الأمر بين اليهود ٠

وليست الحال بأقل من ذلك بين الفلاسفة ٠

وكان لكل فريق حججه القوية فيما يذهب اليه ، والتي يجرمها خصمه بنفس القوة ، وكانت قوة كل منهم في أسلوبه ٠

واذن فأين نلتمس الحقيقة ؟

ومع ذلك فان بعض هؤلاء الشاكين رضوا ببينات خاصة ، فكان من بينهم من آمن بوجود الله خالق كل شيء ، وبالرسالة انزلت على محمد [عليه الصلاة والسلام] ، وكانوا يقولون : « ان بقية المذاهب الأخرى قد تكون حقيقية أو قد لا تكون ، ونحن لا نؤيدها ولا ننكرها ، بل كل ما هنالك أننا نتجاهلها ، لكن وجداننا لا يسمح لنا باعتناق مبادىء لم يثبت لنا صدقها » وأولئك هم المعتدلون ٠

كذلك كان هناك غيرهم اعترفوا فقط بوجود الخالق ، وهناك غيرهم من هم أكثر منهم سيرا فى هذا الطريق ممن لم يؤمنوا بشىء قط ، بل قالوا ان لم يثبت بالبرهان وجود اله أو خالق للكون ، كما أنه فى الوقت ذاته لم يوجد ما يثبت أن الله غير موجود أو أن العالم وجد من الأزل • ونادى آخرون أنه من الملائم أن يحافظ الانسان ــ ولو ظاهريا على الأقل ــ على الدين الذى ولد عليه •

وذهب آخرون الى ضرورة وجود « الملة الكلية » وحدها ، وأدمجوا تحت هذا الاسم مبادىء الأخلاق التى تضمنها كل دين وبرهن عليها العقل (٩) •

كان للمتحدثين فى شئون الدين منفعة تشأو منفعة المتحدثين فى الأمور الحكومية ، اذ عرفوا ما يحتاجه القوم •

أما من الناحية السياسية فكان الحال على الضد من ذلك اذ لم يكن لأحد فكرته الراسخة ، وكان الناس ناقمين على الحال التى هم فيها ، وظهر أن المجتمع موشك على الثورة نظرا للتحسن الذى طرأ على مركزه ، ولم يغب ذلك عن نظر المنصور ، ففى ذات يوم بينما كان يصعد ناظريه فى قصره الفخم بالزاهرة وفى الحدائق الغناء المحيطة به اذا به ينفجر باكيا ويصيح : ويل لك يا زاهرة • ليت شعرى من الخائن الذى يكون خرابك على يديه عن قريب » •

فلما لاحظ الدهشة على من معه قال لهم : « والله لترون صدق ما قلت • وكأنى بمحاسن الزاهرة قد محيت ، ورسومها قد غيرت ، ومبانيها قد هدمت ، ونحيت ، وبخزائنها قد نهبت ، وبساحاتها قد أضرمت بنار الفتنة » (١٠) •

لكن اذا كان مقدرا لهذ الثورة الحدوث فما الدافع عليها وما وسائلها ؟

هذا هو الشىء الذى لم يكن الناس يحسبون له حسابا ، غير أنه لا أقل من أنه كان يوجد أمر واحد يتفق الجميع عليه ألا وهو رغبة الكل فى انتزاع السلطة من بيت المنصور ، على أنه يجب ألا ندهش من ذلك أبدا فالشعوب التى تدين بالولاء للسلطنة لايرضيها أن يستبد بالأمر أحد ما سوى السلطان نفسه ، كما أن جميع الوزراء الذين تولوا الملك بدلا من السلطان أصبحوا معرضين للسخط الشديد الذى لاتخمد جذوته مهما بلغ أولئك الوزراء من الكفاءة والأهلية ، ولاشك أن هذا التقدير

كاف تماما لتفسير المقت الذى أضمره الناس للعامريين اذ يجب ألا ننسى أنهم جرحوا عواطف الشعب وحاربوه فى تعلقه وتمسكه بشرعية الحكم ، واذا كانوا حتى الآن قانعين بممارسة السلطة باسم الأمير الأموى الا أنهم أفصحوا عما يكتمونه من التطلع الى العرش ، ففتح عليهم هذا الطمع باب الفتنة وأسخط الناس عليهم ، ولم يقتصر ذلك السخط على أن يكون من جانب أمراء البيت المالك وحدهم ، بل تعداهم الى الطبقة المتدينة الشديدة التمسك بالحق الشرعى ، كما تعداهم الى الأمة التى كان يعتقد — أو كان يجب أن يعتقد — أنها كانت شديدة التعلق بالأسرة المالكة . أضف الى ذلك أن أشراف البلاط كانوا يتوقون لأن يسقط العامريون عسى أن يؤدى هذا السقوط الى زيادة قوة الأشراف ، وكان رعاع العاصمة — فى الوقت ذاته — مستعدين لتأييد أية ثورة قبل حدوثها ما دامت تجيز لهم سلب الطبقات الموسرة واشباع الحقد الذى يكنونه لها ، وربما كان هذا التغير الأخير هو الدافع لمبالغة الأثرياء فى التجبر ، وكانت قرطبة قد أصبحت اذ ذاك مدينة صناعية بها آلاف العمال ، وكان أتفه عصيان يؤدى الى جعلهم — فى غمضة عين — قوة بالغة الخطر ، وقد تؤدى الحال الى قيام حرب فظيعة بين الفقراء والأغنياء ، والظاهر أن الغفلة كانت سائدة فلم يتوقع أحد ما اقتراب هذا الخطر ، اذ لم تكن الطبقات الغنية ترى فى العمال غير فئة مرتزقة ، وكانت مؤمنة بعودة المياه الى مجاريها حالما يزاح عن كاهلهم عبء العامريين .

ومن ثم كان سقوط بنى عامر رغبة تكاد أن تكون عامة شاملة فى اللحظة التى مات فيها المظفر فى زهرة عمره فى سنة ١٠٠٨ م (صفر ٣٩٩ هـ) ، وخلفه أخوه (الناصر) عبد الرحمن بن أبى عامر ، وكان الناصر هذا شابا يمقته الفقهاء ويعدون مولده عارا لايمحى ، اذ كانت أمه ابنة أحد شانجين : أما قومس قشتالة أو ملك نفارة (١١) ، فكانوا لاينادونه الا بشانجول (١٢) أى « شانجة الصغير » ، فراحت هذه الكنية لقبا عليه فى التاريخ ، ثم أن سيرته كانت لا تسمح للناس أن يتناسوا أصله لانكبابه على الملذات ، اذ كان لايحجم عن شرب النبيذ جهرة ، وكان الجميع يتحدثون حانقين أشد الحنق عليه بأنه سمع المؤذن«حى على الصلاة» فقال : « لو قال حى على الكأس لكان خيرا له » (١٣) ، لذلك اتهمه القوم بأنه دس السم لأخيه المظفر ، ويقولون فى صدد هذا الموضوع أنه قطع تفاحة بسكين غمس أحد جانبيها فى السم تناول هو النصف السليم وأعطى أخاه النصف الآخر (١٤) .

ربما لم يخل الأمر من آن فى هذه الاتهامات شيئا — قل أو كثر — من الافتراء ، لكن الثابت هو أنه كانت تنقصه مواهب المنصور والمظفر

ومهارتهما ، على الرغم من أنه جرؤ على ما لم يجرؤ عليه أحدهما ، اذ تركا للخليفة الأموى لقب السلطنة لم ينازعاه اياه رغم أن زمام الأمور كان فى واقع الأمر فى أيديهما ، ولم يستطع أحدهما أن يقول انه الخليفة رغم تطلعهما الى هذا الأمر •

أما شانجول فقد أخرج الى الوجود ذلك المشروع باعتباره ولى العهد ، وفاتح فى هذا بعض الرجال البارزين لا سيما أبو العباس بن ذكوان القاضى ، و (أبو حفص) بن برد الكاتب ، فلما تأكد لديه وقوفهما الى جانبه أفضى بطلبه الى هشام الثانى الذى يظهر – على الرغم من ضعفه الشديد – أنه أراد التمهل لحظة فى أمر خطير كهذا الأمر لاسيما وأن الرأى العام مؤمن بالفكرة القائلة بأن النبى محمدا [عليه السلام] أشار الى أن الأمر لا يكون الا فى معد ، وعمد الخليفة الى استشارة جماعة من الفقهاء ممن كانوا متأثرين بفكرة ابن ذكوان ، فأشاروا عليه باجابة مطلب شانجول وأرادوا القضاء على تردده فرووا له الحديث النبوى القائل(١٥) « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » فحمل الخليفة نفسه على قبول ما طلبوه منه وبذلك لم ينقض شهر على وفاة المظفر حتى أعلن شانجول نفسه وليا للعرش بمقتضى عهد كتبه ابن برد (١٦) •

بلغ سخط القرطبيين ذروته فى هذا العهد وتغنى الناس جميعهم بمثل هذا الشعر (١٧) :

ان ابن ذكوان وابن برد ... قد ناقضا الدين عن عهد
وعاندا الحق اذ أقاما ... حفيد شانجا ولى عهد

ومضى الناس يقصون فى يقين جازم أن رجلا من الصالحين مر أمام قصر الزاهرة فصاح (١٨) : « يا دار فيك من كل دار ، فجعل الله منك فى كل دار » •

ومجمل القول ان الحقد على شانجول والكراهية له كانا له فى كل مكان ، الا أن الثورة المسلحة لم تكن قد قامت بعد اذ ترك الشعب التهديد وأمسك عنه نظرا لمجىء الجيش ، حتى رحل ، فخدع شانجول نفسه بالهدوء الظاهرى الذى ساد البلد ، وأفصح عن رغبته فى شن حملة على مملكة ليون ، فلما كان يوم الجمعة ١٤ يناير ١٠٠٩ م غادر العاصمة على رأس قواته وبدى له أن يعصب رأسه بعمامة كانت فى أسبانيا وقفا على القضاة والفقهاء وأمر رجاله بالاقتداء به ، فرأى أهل قرطبة فى هذه النزوة انتهاكا جديدا لحرمة الدين واستهانة بحماته (١٩) •

بعد أن عبر « شانجول » الحدود حاول عبثا ارغام « أدفونش » الخامس على النزول من الجبال التى كان معتصما بها ، لكن هبت العواصف

الناجية فاستحال السير ، واضطر [أبو المطرف] الى العودة ، لكنه لم يكد يصل الى طليطلة حتى ترامت اليه الأنباء بشبوب الثورة فى العاصمة •

وترأس الحركة أمير من البيت الأموى اسمه محمد وهو ابن هشام الذى قتله المظفر ، وبالتالى كان ابن حفيد عبد الرحمن الناصر ، وكان متخفيا فى قرطبة كى لا يلاقى الرجل الذى قتل أباه ، وتعرف هذا الشاب فى تلك الفترة بكثير من رجال الشعب حتى استطاع تكوين عصابة من أربعمائة رجل جسور وذلك بفضل ما بذله من المال الذى لم يبخل به على أحد وبفضل المساعدة التى لقيها من فقيه ورع يسمى الحسن بن يحيى ومعاونة كثير من الأمويين له ، ووصل خبر هذه المؤامرة الى سمع عامرى هو ابن عسقلاجة الذى وكل اليه شانجول حكومة قرطبة أثناء غيابه عنها ، وكانت الأخبار التى بلغت شانجة غامضة مبهمة ، لكنه أخذ فى تفتيش عدة بيوت شك فيها فلم يعثر قط على شيء •

أما محمد بن هشام بن عبد الجبار فقد حدد يوم الثلاثاء خامس عشر فبراير (= ٢٦ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ) لتنفيذ مشروعه ، واختار ثلاثين من أشد رجاله جرأة وأمرهم باخفاء أسلحتهم تحت برانسهم والذهاب مساء الى السطح القريب من القصر الخليفى •

ثم جمع العلماء وبعض الرجال البارزين وطلب اليهم تحرير عهد بالتنازل ووقعه هشام بيده وأمضى محمد بقية الليل فى القصر ، فلما كان اليوم التالى استوزر أحد أقاربه ووكل الى أموى آخر أمر حكومة العاصمة وأناط بهما أن يدونا فى سجل الجند كل من يرغب فى الانخراط فى سلكه ، فكانت الحماسة عظيمة وشاملة الى درجة أن الجميع بادروا الى قيد أسمائهم فى ديوان الجند ، وتسابقت طوائف الشعب من التجار والأغنياء والمزارعين فى القرى وأئمة المساجد والزهاد والمتقشفين الى حمل السلاح تأييدا له وكانوا متأهبين لبذل دمائهم دفاعا عن الأسرة الشرعية ضد الفاسق الذى يريد اغتصاب العرش •

وحينذاك ندب محمد بن هشام كبير وزرائه للشخوص الى الزاهرة للاستيلاء عليها ، ولم يفكر العسكر القائمون فى الدفاع عنها بل سرعان ما أعلنوا ولاءهم للخليفة الجديد وسألوه العفو عنهم فأجاب ملتمسهم بعد أن أغلظ فى تأنيبهم لرضائهم عن مشاريع شانجول الطماعة •

بهذا انهارت فى أقل من أربع وعشرين ساعة قوة العامريين ، ولم يكن أحد يتوقع هذا النجاح السريع لخصومهم ، وعم السرور قرطبة لاسيما بين طبقات المجتمع الدنيا ، ولما كان الشعب سريع الغضب سريع الرضا فقد رأى أن ذلك فاتحة خير •• لكن اذا كان رجال الطبقة

الوسطى قد كرهوا ظروف هذه الثورة الواسعة الخطرة الا أنهم حرصوا على المساهمة فيها بنصيب ، وكانوا يرون أن استبداد ابن أبى عامر المستنير قد هيأ للبلد رخاء مستحبا ومجدا حربيا قد يكون أحسن من الفوضى والاستبداد العسكرى الوطنى الذى كان موشكا أن يفرض عليهم •

غير أنه لم يحدث شىء من الفوضى التى تصحب فى العادة كل ثورة تقوم بها العامة •

أما محمد فلم تكن لديه حينذاك السلطة الكافية لكف القوم عن السلب ، ولما كان مدركا ما هو موشك على الوقوع فقد أمر بنقل الخزائن وكل ما بالزاهرة من غال وثمين الى قرطبة ، غير ان يد النهابين كانت أسبق منه فى الامتداد اليها فحملوا كل ما فى القصر حتى الأبواب والألواح الخشبية ، كما امتدت يد السلب الى كثير من دور أتباع المنصور وأسرته ، وظل محمد ـ أربعة أيام ـ عاجزا لايملك القدرة على عمل شىء ما يؤدى الى كبح جماح هؤلاء اللصوص ، لكنه نجح أخيرا فى ردعهم • وكانت الثروات المتجمعة بالزاهرة عظيمة جدا حتى لقد بقى بها بعد ذلك من النقد مليون ونصف مليون دينار ، ومن الدراهم مليونان ومائة ألف درهم ، هذا غير ما حمله الناس ، كذا عثر القوم بعد قليل على مخابىء بها مائتا ألف دينار ، وحين أصبح القصر خاليا من كل شىء أضرموا فيه النار ، و مالبث أن عاد كومة من الأنقاض •

فى هذه الأثناء قرىء على الشعب الموجود بالمسجد عقب صلاة الجمعة (١٨ فبراير) منشوران رسميان ، اشتمل أولهما على تعداد كبائر شانجول والأمر بلعنه فى الصلوات العامة ، وأما ثانيهما فكان خاصا بالغاء كثير من الضرائب التى فرضت منذ عهد قريب ، وما انقضت ثمانية أيام بعد هذا الحادث حتى أعلن محمد على الشعب تلقيبه بالمهدى بالله ، وهو الذى سننعته به دائما ، ولما نزل من على المنبر نودى بالخروج لقتال شانجول ، وكان لهذا النداء أثره العجيب اذ سرت حماسة العاصمة الى الأقاليم ، ولم تنقض فترة وجيزة حتى خرج المهدى بالله على رأس جيش كثيف جدا ، لكن لما كان الشعب هو الذى قام بالثورة فقد كان راغبا فى صرف القيادة عن القادة القدماء الذين ينتمون الى البلاط السابق ، فاختير كبار الضباط من رجال الشعب ومن الطبقة الوسطى ، فكنت ترى فيهم المطببين والحاكة والسروجية ، وهكذا ظهرت أسبانيا لأول مرة فى مسوح الديمقراطية ، وفقد العامريون والأشراف كل ما كانوا يتمتعون به من قوة وجاه •

وما كاد يصل الى سمع شانجول — وهو فى طليطلة — خبر هياج العاصمة حتى حمل على قلعة رباح ، وأجمع العزم على القضاء على الثورة بالقوة ، غير ان أكثر جنده أخذوا فى الانفضاض عنه أثناء زحفه ، فلما طلب الى البقية من العسكر ان نقسم له يمين الولاء رفضت طلبه قائلة نه قد تقدمت له بيعة فى أعناقها فليس هناك ما يدعو الى تكرارها ، بل لقد كان ذلك رد البربر أيضا وهم الذين أظفرهم العامريون وملئوا أيديهم بالمال حتى لقد اعتقد شانجول أن فى استطاعته الاعتماد عليهم جاهلا أنهم لم يتجملوا أبدا بشكر يد المنعم عليهم والاخلاص له ، ودفعتهم نقمتهم بضياع السلطان الذى أوجدهم والتفكير فى الاحتفاظ بثروانهم الى المسارعة فى الخضوع للخليفة الجديد ولم يحاولوا ستر جشعهم هذا فقد نادى شانجول أحد قادتهم —واسمه محمد بن يعلى الزناتى— واستفسره عن شعور الجند من ناحيته فرد عليه قائلا : « اياك أن نغتر فليس والله يقاتل عنك أحد من زناتة ، والناس لهم تبع » .

فسأله شانجول الذى لم يكن يتوقع بحال من الأحوال مثل هذا الرد على الرغم من أنه كان يعرف من قبل مدى ولاء فريق من الجند له « وما الدليل عليه ؟ » فأجابه : « مر بتقديم مطبخك الى طريق طليطلة ونظاهر بالرحيل اليها فتعلم من يتبعك ومن يتخلف عنك » ، فقال شانجول متحسرا « صدقت » .

قال ذلك دون أن يجسر على التثبت من صحة الدعوى التى قالها له الزناتى البربرى .

* * *

غير أنه فى وسط هذه الخيانة العامة بقى هناك صديق واحد ظل على الوفاء له ، ذلك هو حليفه الليونى « كونت كاريون » من أسرة قومس (٢٠) فقد قال له ذلك الرجل النبيل :

« الرأى عندى أن ترحل وأرحل معك بأصحابى الليلة » .

فأجابه شانجول : أنا أرجو ان لويت على قرطبة أن تختلف الكلمة عليه (٢١) وان يكون لى منهم أنصار يميلون الى » .

فقال الكونت : « خذ باليقين ونح الظن فأمرك والله مختل ، وأحوالك منتقضة وأمورك مدبرة ، وجندك عليك لا لك .. » ، فأجابه العامرى : لابد من الاشراف على قرطبة » فقال الكونت « أنا معك على كراهة لرأيك وعلم بخطئك ، فان أنت عشت عشت ، وان مت مت معك » .

حينذاك أصدر شانجول أمره [بمغادرة قلعة رباح]. والزحف على العاصمة ، وبدى له ان يستريح فى منزل بلغه اسمه « منزل هانى » فاغتنم البربر الفرصة وتسللوا لواذا تحت جنح الظلام ، فلما تنفس الصبح تلفت حوله فلم يجد غير غلمانه وعساكر القومس الذى كرر عليه الرجاء بقبول ما عرضه عليه من قبل فلم يستجب له أيضا هذه المرة ، واذ آصر الشاب فى حماقة على المضى الى مصرعه فقد قال : « رغبت الى القاضى أن يأخذ لى أمانا من عند ابن عبد الجبار ، وقد ضمن لى ذلك » .. وفى مساء الخميس ٤ مارس (= ٢ رجب) وصل الى دير « شوش » فلقيه فى الغداة جماعة من الفرسان الذين أرسلهم المهدى لمقابلته فقال لهم شانجول « ما لكم على من سبيل ، أنا فى طاعة المهدى » فأجابه قائد الكوكبة : « اذن فاتبعنا الى قرطبة » فاستجاب شانجول للأمر كارها وساروا فى طريقهم حتى صادفوا بعد الظهر حاجب المهدى فى كتيبة كبيرة فاستوقفهم وبعث الى قرطبة بحريم شانجول وكن سبع نسوة ، ولما جيء بشانجول الى الوزير قبل الأرض مرارا أمام هذا الأموى فصاح به أحدهم « قبل حافر دابته » فأطاع .. كل ذلك وقومس كاريون صامت يرقب منتهى الذلة التى صار اليها هذا الرجل الذى اهتزت أمامه منذ قليل امبراطورية عظمى ، ثم جاءوه بجواد غير جواده وصاح الوزير : « من ينزع قلنسوته ؟ » فبادر بعضهم فنزعها وسار الركب فى طريقه . وكانت الشمس قد انحدرت الى المغيب حين بلغ الجند محلتهم وتلقوا الأمر بشد وثاق يدى شانجول وقدميه فلبوا الأمر فى غلظة حتى صاح بهم « نفسوا عنى قليلا وأطلقوا يدى استرح ساعة » .

فلما أجابوه الى ما طلبه أسرع فاستل خنجرا كان فى خفه غير أن الجند بادروا بامساكه قبل أن يرمى رميته فصاح به الحاجب « سنكفيكه » ثم طرحوه أرضا وذبحوه وفصلوا رأسه عن جسده ، ثم عادوا الى الكونت فقتلوه .

* * *

ولما كان اليوم التالى دخل الفرسان قرطبة وقدموا الى الخليفة المهدى بالله جثة شانجول محنطة فوطأها بسنابك جواده ثم سمرها على مقربة من باب القصر الى صليب وعليها قميصه وسرواله ، وجعل رأسه المقطوع الى جانبها مرفوعا الى رمح ووقف الى جوار هذه البقايا البشعة رجل يردد بلا انقطاع :

هذا شانجول المأمون (٢٢) ، لعنه الله ولعننى واياه » .

وكان هذا الرجل هو صاحب شانجول الذى عفى عنه المهدى على شرط أن يكفر عن ولائه الذى أظهره لمولاه من قبل (٢٣) .

الفصل الرابع عشر

واضح الصقلبي يعلن تأييده للمهدى • تصرفات المهدى الخاطئة ضد الصقالبة العامريين والمتدينين • معارضة البربر له • ادعاؤه موت هشام بن الحكم الخليفة • البربر بقيادة هشام حفيد الناصر يهاجمون المهدى • القتال بين الجانبين فى القصر • هزيمة المهاجمين • زاوى الصنهاجى يجمع البربر ضد المهدى • ترشيحه أمويا للخلافة وموقف البربر منه • استعانة الجانبين بشانجة القومس • تأييده للبربر الزاحفين على قرطبة • وقعة قنطيش • خوف المهدى من البربر وابرازه هشاما • سليمان يزحف على مدينة سالم • وقعة البقر وانتصار القطلونيين ثم هزيمتهم • المهدى ينتقم من قرطبة • الصقالبة يخلعون المهدى ويولون هشاما مكانا ويقتلونه •

الفصل الرابع عشر

المهدى والبربر وهشـــام بن الحكم

كان كل شىء فى أول الأمر يبـــدو وكأنه يســـــير وفق ارادة المهدى بالله ، فقد بايعـــه القرطبيون بالخلافة واعترف به البربـــر ، ثم لم تنقض خمسة أيام على مقتل العامرى حتى تسلم المهدى رســـالة أنفذها اليه واضح أقوى الصقالبة نفوذا وحاكم الثغر الأوســـط يؤكد فيها طاعته له ، ويفضى اليه بفرحتـــه الكبرى لمصرع المغتصب وهلاكه ، ولم يكن المهدى ينتظر مثل هذه المبـــادرة السريعـــة من جانب واضح بالخضوع له وتأييده اذ كان يعرفه صنيعة المنصـــور وغرس نعمنه ، وان ابن أبى عامر هو الذى أبلغه المكانة التى هو فيهـــا الآن ، ومن ثم فسرعان ما أقر المهدى بتقديره لجميل واضح عليه فبعث اليـــه بالمال الوفير وأهداه جوادا فارها حسن الحلية ، ثم عهد اليه بحكومة الثغر كله ٠

هكذا التفت كل الجماعات طواعية حول الحكومة منذ الســـاعة الأولى ، أو هكذا كان الظاهر على الأقل ، والحق أن الاجماع كان أقل مما يبدو،فقد تمت الثورة تحت تأثير نوبة حمى عنيفة اجتاحت القوم واعترى الشلل كل مظهر للتفكير الصحيح ، فلما هدأت الأمور بدأ الناس يدركون أن سقوط العامريين لم يضع حدا للمصائب ، ولم يعالج أخطاء الماضى أو يعوض خسائره ، فما زال الناس فى ظل النظام الجديد يجأرون بالشكوى ويضجون ، كما أنه لم يكن للمهدى المواهب أو الفضائل التى تزكيه ، بل كان رجلا فاسقا فظا ميالا لسفك الدماء ، قليل الحصافة ، اذ ناصب جميع الأحزاب العداء ، فاســـتهل حكمه بصرف سبعة آلاف من جنده ، ولا مشاحة فى أن هذه خطة كانت تمليهـــا عليه الضرورة حتى لاتصبح قرطبة تحت رحمة الطبقات الدنيا ، الا أن ذلك العمل أغضب الشعب الذى استخفه الطرب لاستلابه الأموال الطائلة دون قيامه بعمل ما رغم افتخاره بأنه هو الذى قام بالثورة ، ثم لج المهدى فى خطئه فأبعد عن

العاصمة جمهورا كبيرا من الصقالبة العامريين وعهد بوظائفهم الى صقالبة ممن يعملون فى القصر ، فدفعهم ذلك العمل الى الارتماء فى أحضان خصوم المهدى الذى لو أنه كان قد اصطنع قليلا من الفطنة لأمكنه ضمهم الى صفه ولحملهم على الوقوف الى جانبه وتأييده ·

ثم انه عمد فى الوقت ذاته الى اهاجة حفيظة المتدينين ضــــده ، اذ لازم القصر لايبرحه عاكفا عى ملذاته ، وأخذ المسلمون الأتقياء يشيرون فى فزع الى اقامته المآدب التى تسمع فيها عاليا انغام الأرغون والمزامير ، حتى لقد كانوا يقولون أنه يفعل ما كان يفعله شانجول وسموه بالسفيه (١) وراحوا يصبون عليه اللعنـــات لأنه عكر صفو كثير من الأسر ، فهجوه كما هجوا سلفه من قبل ، وكانت غلظته عاملا على ضياعه لدى الرأى العام فقد حدث أن بعث اليه واضح برؤس كثيرين من سكان الثغور الذين رفضوا الاعتراف به فأمر أن ترشق بالزهور وأن توضـــع على شاطىء النهر تجاه قصره ، وكان يلذ له انعام النظر فى هذه « الحديقة العجيبة » ، وطلب الى شعرائه نظم القصائد فى هذا الموضوع ، وكان من بين من طلب اليهم ذلك صاعد الذى أصبح يتزلف الى أعداء العامريين بعد أن كان يداهنهم ويتملقهم ·

اذا كان المهدى بالله قد أساء الى جميع طبقات الشعب من الصقالبة والمتدينين والعامة فانه من ناحية أخرى لم يحاول أبدا عمل شىء يجذب الى جانبه البربر الذين كانوا عصب حركته ، والواقع أن أولئك المحاربين الغلاظ كانوا مكروهين فى العاصمة ، اذ لم يغفر الشعب لهم أنهم كانوا روح الفوضى وسر استبداد العامريين ، وكان المهدى يعرف انه ان يبسط عليهم حمايته فقد أضاع البقية الباقية له من المكانة فى نفوس الناس ، وكان يدرك فى الوقت ذاته عجزه عن ردهم الى افريقية فكان ذلك يفرض عليه أن يسترضيهم ، لكنه لم يفعل شيئا من ذلك بل كان يغتنم كل فرصة لاظهار احتقاره لهم وكراهيته لهم فحرم عليهم ركوب الجياد ، ومنعهم من حمل السلاح ، وصرفهم عن دخول القصر فكان ذلك غفلة كبرى منــــه ، اذ كان البربر يعرفون قدرهم ويدركون خطرهم لما ألفوه من احترام البلاط وتبجيله لهم ، ثم انهم تعودوا أن يكونــوا فى الدولة الجمــــاعة التى يعتد بها ، وفى ذات يوم نهبت العامة كثيرا من دورهم دون أن تحول الشرطة بينها وبين النهب ، فمضى زاوى وزعيمان من زعمائهما الى الخليفة وطلبوا اليه فى صلف معاقبة الجناة ، فانزعج المهدى من فظاظتهم وأفزعه ما ارتسم على وجوههم من الغلظة فراح يعتذر اليهم ، ثم أراد أن يفتأ غضبهم فأمر بقتل المحرضين على الفوضى التى ارتكبوها ، لكن ما كاد ينصرف عنه خوفه منهم حتى عاود خطته فى التضييق على البربر والعمل على ازعاجهم ·

وعلى الرغم من شدة طيش المهدى بالله الا أنه لم يتعام تماما عن حرج مركزه ، وكان أشد ما يخافه أن يأتى اليـــوم الذى يصـــير فيه اسم هشام بن الحكم صرخة لتأليب جميع الناقمين عليه ، ومن ثم صمم على أن يفهم الناس أن سجينه العظيم قد مات دون أن يقدم هو على قتله ، وحدث فى ابريل سنة ١٠٠٩ م أن مات مسيحى شديد الشبه بهشام فحمل المهدى بالله جثمانه سرا الى القصر وعرضها على جماعة تعرف هشاما ، وسواء أكان الشبه قويا جدا حتى خفيت الحقيقة على الشهود أنفسهم أم أنه استطاع اكتسابهم الى جانبه بالخديعة الا أن الثابت أنهم قرروا ان الجثة للخليفة السابق ، ثم استخدم المهدى بالله بعد ذلك رجال الدين والوجهاء والشعب وصلوا على الميت الراحل ، وشيع المسيحى الى مقابر المسلمين ودفن يوم الاثنين ٢٧ شعبان بين مظاهر التوقير الملوكيـــة الواجبـة ، أما هشام الحقيقى فكان اذ ذاك محبوســـا بأمر المهدى بالله فى قصر أحد وزرائه •

اطمأن بال الخليفة الغافل [المهدى] من هذه الناحية وظن أنه أصبح حرا يفعل ما يريد ، لذلك قام فى شهر مايو (رمضان) فأطبق فى السجن — دون أن يعرف أحد السبب — بسليمان بن عبد الرحمن التالث الذى كان قد نودى به قبل ذلك بزمن قصير وليا للعهد • زد على ذلك أنه أشـــاع عزمه على قتل عشرة من كبار البربر فكان هذا أكبر دافع للمغاربة على امتشاق السيف ، واذ ذاك قام هشام — أحد أبناء سليمان بن عبد الرحمن — ونشط لتكوين حزب من هؤلاء البربر ووجد الأمر ميسرا له فقـــد ألف السبعة آلاف عامل الذين عزلهم المهدى جيشا كان على أتم أهبة للثورة ، وتجمع هؤلاء الرجال يوم ٢ يونيو ١٠٠٩ م أمام قصر هشام بن سليمان ونادوا به خليفة فسار بهم هشام الى خــــارج البلد حيث انضم اليهـــم البربر وزحفت جموعهم على قصر المهدى بالله •

انتزع الخليفة [المهدى بالله] قسرا من ملذاته فسأل الجماعة عن مبتغاها فقال له هشام بن سليمان «ما فعلت بأبى وقد طرحته فى مطبقك ؟»، وحينئذ رد المهدى على أسيره سليمان (بن عبد الرحمن) حريته ، وكم كان مخطئا اذ ظن أن هذا العمل كاف لتبديد شمل المجتمعين لأن هشاما طلب اليه التخلى عن العرش فأخذ المهدى بالله فى محاورته رجاء كسب الوقت ، واستغرق الحـــوار فترة طويلة ضجر أثناءها العمـــال والبربر من طول سكونهم فمضوا ينهبون حوانيت « فحص السرادق » ويضرمون فيهـــا النيران ، فهب القرطبون لقتالهم لا يرومون من وراء ذلك نصرة المهدى بل حماية أنفسهم من أن تمتد أيدى البربر الى بيوتهم بالنهب والسلب ، ولم يلبث أن قدم العسكر لنجدة المهدى ، واستمرت رحى المعـــركة

دائرة بين الجانبين مدة يوم وليلة ، غير أنه فى صباح الجمعة ٣ يونيو ١٠٠٩ م اضطر البربر للنكوص على أعقابهم وقد عمهتم الفوضى واضطربت صفوفهم ، فتعقبهم فريق من أهل قرطبة عند حدود وادى أرملاط ومضى فريق آخر فنهب بيوتهم وسبى نساءهم ، ونودى باجازة كل من يعود برأس بربرى • أما هشام ـ خصم الخليفة ـ ففد زج به فى السجن كأبيه من قبل وقتل (٣) •

ولما جمع البربر شملهم فى النهاية أقسموا أن يكون انتقامهم عجيبا ، ولم يكن لهم من المهارة ما يؤهلهم لوضع خطة انتقامية ، غير أن الحظ واتاهم فكان فيهم زاوى ، وهو من أسرة صنهاجية حكمت فى افريقية القسم الذى عاصمته القيروان ، وكان زاوى أكثر زملائه البربر المحاربين رقيا وذكاء ، فرأى قبلَ كل شىء ضرورة البحث عن منافس للمهدى •

كان تحت يد زاوى رجل أموى اسمه سليمان ـ وهو ابن أخ لهشام ـ الذى ساهم بنصيب فى وقعة عمه ثم صاحب البربر بعد ذلك فى فرارهم ، فاقترح زاوى على رفاقه مبايعته بالخلافة (٤) ، فرفض البعض مقترحه نافين عن سليمان كل كفاءة يمكن أن تزكيه لزعامة الجماعة ، وقالوا انه تنقصه الخبرة اللازمة لقيادة أى جيش على الرغم من أنه كان رجلا فاضلا فى نفسه ، كذلك أبى آخرون أن يتزعمهم عربى أيا كان هذا العربى ، وا ذاك قام زاوى ـ تأييدا لفكرته ـ باتباع طريقة لاشك أنها كانت جديدة على البربر ولكنها مألوفة عندنا حيث جمع خمسة رماح وجعل منها سلمة واحدة ودفعها لأقوى جندى من رجاله وقال له : « أجهد نفسك فى كسرها كما هى » فعجز الجندى عما سأله اياه فقال له زاوى : « حلها وعالجها رمحا رمحا » فأنجز البربرى الأمر فى لحظته ، واذ ذاك قال زاوى : « هذا مثلكم يا برابرة ، ان اجتمعتم لم تطاقوا ، وان تفرقتم لم تبقوا •• والجماعة فى طلبكم ، فانظروا لأنفسكم وعجلوا » فصاحوا جميعا : « نأخذ بالوثيقة ولا نلقى بايدينا الى التهلكة » فمضى زاوى فى كلامه آخذا بيد سليمان وقال : « بايعوا لهذا القرشى سليمان يرفع عنكم الأنفة فى الرياسات وتستميلوا اليه العامة بالجنسية » •

حينذاك أقسم الجميع يمين الولاء لسليمان وتسمى بالمستعين بالله،وعاد زاوى مرة أخرى فقال : « ان مثل هذه الحال لا يقوى على الاستطالة ، فليعد رئيس كل قبيلة منكم قبيله ، ويتكفل للسلطان بتقديمهم ، وأنا الكفيل بصنهاجة » •

وتم طلب زاوى الذى انتحب بطبيعة الحال ممثلا لقبيلة صنهاجة (٥) ٠

أما الخليفة سليمان فلم تكن له أدنى سلطة على البربر الذين انتخبوا رؤساءهم دون استشارته ، والحق أنه لم يكن سوى دمية فى أيديهم يحركونها كيفما شاءوا ٠

زحف المغاربة بعد ذلك شطر وادى الحجارة (٦) ، فلما استولوا على هذه المدينة عرضوا على واضح الانضمام اليهم وسألوه أن يفتح لهم أبواب مدينة سالم فلم يستجب لعرضهم بل كر عليهم مهاجما اياهم بالنجدات التى أرسلها المهدى اليه ، لكنه عاد مخذولا ، غير أن البربر لم ينعموا بالنصر الذى حازوه لأن واضحا حرمهم من كل ذخيرة حتى لقد ظلوا خمسة عشر يوما عدموا خلالها القوت غير خشاش الأرض فرأوا ـ تخلصا من هذا المأزق ـ أن ينفذوا الى شانجة قومس قشتالة نفرا من رجالهم يلحون عليه أن يتدخل لصالحهم ويعدونه بمحالفتهم اياه ما دام واضح والمهدى عارفين عن السلم غير مستجيبين له ٠

ولما وصل نفر المغاربة الى مقر شانجة القومس وجدوا عنده سفارة من قبل المهدى تحمل اليه جيادا وبغالا وملابس وأحجارا كريمة وغير ذلك من الهدايا ، كما وعدته هذه السفارة أن يتخلى له المهدى عن كثير من المدن والحصون اذا هو مد يد المعونة الى خليفة قرطبة ، وهكذا تغير كل شىء فى أقل من شهر واحد ، ولم يعد المسلمون هم القوم الذين يملون شروطهم على الامراء المسيحيين ، بل انعكست الآية فراح قومس قشتالة هو الذى يقرر مصير اسبانيا العربية ٠

لما أدرك الكونت حقيقة الوضع عند جيرانه وعرف مبلغ ما اعترى قوة المهدى من وهن تعهد للبربر بالانضمام اليهم اذا هم تخلوا له عن القلاع التى وعده بها رسل المهدى ، فقبل البربر شروطه ، وحينذاك رد السفراء الآخرين وبعث الى معسكر البربر ألف ثور وخمسة آلاف شاة وألف عجلة من الدقيق وأنواع المآكل ، وبذلك أصبح البربر فى حال تمكنهم من شن حملتهم ، وانضم اليهم الكونت برجاله ، وشرعوا فى الزحف على مدينة سالم التى ما كاد البربر يقتربون منها حتى جددوا مساعيهم لجذب واضح الى صفهم ، لكن نجاحهم هذه المرة لم يكن أكثر من نجاحهم معه من قبل فقرروا عدم اضاعة الوقت وزحفوا رأسا على قرطبة فى يوليو ١٠٠٩ م [ذو الحجة ٣٩٩ هـ] وتعقبهم واضح بفرسانه هاجمهم ، غير أنه اضطر للفرار بسبب قتل الكثيرين من رجاله ودخل قرطبة فى أربعمائة فارس ،

وسرعان ما انضم اليه أحد قادته بمائتى فارس آخرين ممن ساعدهم الحظ فنجوا من المذبحة ٠

لما علم المهدى بالله بزحف البربر على العاصمة فرق السلاح على كل قادر على حماه ، وتحصن فى سهل يقع شرقى قرطبة ، غير أن ما انطبع عليه من الغفلة دفعه للخروج من مأمنه لمواجهة العدو بدلا من انتظاره ، والتقى الجمعان فى « قنطيش » (٧) يوم ٥ نوفمبر ١٠٠٩ م (السبت ١٣ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ) ، وكانت كتيبة مؤلفة من ثلاثين بربريا كافية لالقاء الفوضى فى صفوف العدو المضطربة ، حتى لقد أخذ ذلك الجيش المؤلف من العامة والعمال والفقهاء يدوس بعضه بعضا فى ارتداده السريع ، وتناوشت المئات منهم سيوف البربر والقشتاليين كما ابتلعت أمواج الوادى الكبير منهم المئات ، حتى لقد قدر عدد القتلى فى هذه الوقعة المروعة بعشرة آلاف رجل (٨) ٠

ما كاد واضح يرى كل هذه الخسارة حتى ركض شمالا فى فرسانه الستمائة (٩) ٠ أما المهدى فقد اختبأ فى قصره ، لكن سرعان ما حاصره البربر ففكر فى انقاذ نفسه بارجاع هشام الثانى (بن الحكم) الى الخلافة فأبرزه (١٠) من سجنه وأجلسه فى مكان يراه فيه البربر وبعث اليهم قاضيه ابن ذكوان يقول لهم على لسانه : « انما أنا قائم دون هشام بن الحكم ونائب عنه : كالخليفة والحاجب ، وهو أمير المؤمنين » فضحك البربر من رسالة القاضى وقالوا له : « سبحان الله يا قاضى ، يموت هشام بالأمس وتصلى عليه أنت وأميرك ، واليوم يعيش وترجع الخلافة اليه ؟ وعلى كل فالله محمود على سلامته ، أما نحن فلا حاجة لنا فى امامته ولا نرضى بغير سليمان » ٠

وحاول القاضى عبثا تبرير موقف مولاه ، وبينما هو فى الكلام اذا بالقرطبيين يذهبون لتحية سليمان والاعتراف به الخليفة الشرعى عليهم بعد ان أرهبهم وهو يهدد أسوارهم ٠

بينما كان سليمان (بن أخى هشام) يدخل العاصمة التى أخذ البربر والقشتاليون يقترفون بها شتى الموبقات اذا بالمهدى يشخص الى طايطلة للاختفاء بها فى بيت رجل من أهلها اسمه « محمد الطليطلى » أمده بكل ما يحتاجه لبلوغ هذه المدينة ، ولما كانت كل الأراضى التى بين طرطونة ولشبونة لاتزال فى يد المهدى بالله فقد أجاب سليمان شانجة حينما ذكره بعهده له وعجزه عن الوفاء به فى لحظته هذه لعدم استيلائه بعد على المدن التى يطلبها منه ، لكنه جدد له اليمين بالتنازل عنها حالما تستسلم له ، ومن ثم رحل شانجة عن قرطبة يوم [الاثنين] (١١) ١٤ نوفمبر ١٠٠٩ م

(= ٢٢ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ) ، مستصحبا معه رجاله الذين أثروا على حساب سكان المدينة ٠

لم يطرأ أى تغيير على حظ هشام فقد عاد سليمان فحبسه فى المطبق من جديد بعد أن أرغمه على التنازل له ، كما أذن بدفن جثة شانجول وفق الشعائر المألوفة ، نزولا على رغبة الموالى العامريين القدماء ٠

كان المهدى قد بلغ فى ذلك الوقت طليطلة فأكرم أهلوها وفادته ، وأخذ سليمان فى الزحف لمهاجمته وبعث الى الطليطليين بجماعة من الزعماء المدنيين يخيفونهم من غضبته عليهم اذا هم أوضعوا فى الفتنة ودأبوا على العصيان ، فلم ترهبهم هذه التهديدات ٠ ولما كان سليمان يكره محاصرة مكان قوى مثل طليلة بل يأمل أن تستسلم له من تلقاء ذاتها نسجا على منوال غيرها من المدن فقد زحف على مدينة سالم ، وانضم كثير من الصقالبة الى جيشه فى أثناء سيره واستولى على مدينة سالم دون اهراق نقطة دم لأن واضحا كان قد أخلاها وارتد الى طرطوشة التى أنفذ منها الى سليمان كتابا ينبئه فيه باعترافه بخلافته ان تركه مقيما حيث هو ، وكان يرمى من وراء ذلك الى خديعة سليمان وأتباعه والى كسب الوقت ، وجازت حيلة واضح على سليمان الذى وقع فى الأحبولة فترك له حكومة جميع الثغور يصرف أمورها كيف شاء ٠

واذ أصبح واضح مطلق اليدين بادر الى عقد حلف مع القومسين القطلونيين : ريموند صاحب برشلونة وأرمقند صاحب أرجيل بعد أن تعهد لهما بالوفاء بكل ما طلباه منه ، ثم سار شطر طليطلة على رأس جيشه وجيش آخر قطلونى ، وعمل على الاتصال بقوات المهدى ، وحينذاك دعى سليمان أهل قرطبة لحمل السلاح ، لكن لما كان هؤلاء لايحبون العمل تحت امرة المغاربة فقد امتنعوا عن استجابته متذرعين بأنهم غير متأهبين للحرب وطابق الخبر فى وقعة قنطيش ٠

أما البربر الذين كانوا يؤثرون ألا يكون فى صفوفهم جند من هذه الجبلة فقد طلبوا الى سليمان أن يكل اليهم أمر كسب المعركة من أجله ، فأجابهم سليمان الى مطلبهم ، فلما تقدموا وبلغوا عقبة البقر (١٢) وهى محلة على بعد أربعة فراسخ من قرطبة التقوا بجيش خصمهم وكان قوامه ثلاثين ألف مسلم وتسعة آلاف مسيحى، وجرى ذلك فى النصف الأول(١٣) من يونيو ١٠١٠ (ذو القعدة سنه ٤٠٠ هـ) فجاء قادة سليمان وجعلوه فى المؤخرة وطلبوا اليه ألا يبرح موضعه هذا أبدا حتى ولو وطأه العدو تحت أقدامه ، ثم أخذوا هم فى مهاجمة القوات القطلونية ، غير أنهم تبعا

لخطط هجوم الحرب الشرقية استديروا العدو وطوقوه وكروا عليه كرة صدق ، وعلى الرغم من أوامر قواد سليمان اليه ألا أنه للأسف لم يدرك مرمى تدبيرهم الحربى هذا فما كاد يرى المقدمة تتقهقر حتى أيقن أن الهزيمة لحقت بهم فأطلق لجواده العنان ، واقتدى به من حوله من الفرسان ، بيد أن البربر عاودوا الهجوم على عدوهم بشدة فقتلوا ستين زعيما قطلونيا ، ومن بينهم أرمقند صاحب أرجيل ٠

لكنهم لما رأوا سليمان قد غادر مكانه عادوا الى الزهراء وبذلك كسب القطلنيون المعركة وأدى جهل سليمان وجنده الى هزيمته فى عقبة البقر التى كان من المتوقع أن يخرج منها ظافرا منتصرا لو أنه أدرك خطط قواده وامتثل لأوامرهم ، وهكذا رجحت كفة القطلونيين ، والظاهر أن ذلك راجع لعدم مساهمة قوات واضح والمهدى مساهمة جدية فى القتال ٠

ارتد المهدى الى قرطبة ، وهكذا قدر للبلد المنكود الذى نهب منذ ستة شهور على يد القشتاليين والبربر أن ينهب من جديد على أيدى القطلونيين ٠

ومضى المهدى يتعقب البربر الذين زحفوا على الجزيرة الخضراء فانبسطوا فيها يقتلون كل من يعترضهم ويسلبون القرى ، غير أنهم ارتدوا على أعقابهم حينما علموا أن عدوهم جاء فى آثارهم ٠

فلما كان يوم ٢١ يونيو ١٠١٠ (١٤) (= الجمعة ٨ ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ) التقى الزحفان المتعاديان قرب المكان الذى يصب فيه نهر اوادى آدة فى الوادى الكبير ، وفى هذه المرة مسح المغاربة عار تقهقرهم فى وقعة البقر ، وفر جيش المهدى بالله تاركا فى ساحة الحرب القتلى وفيهم كثير من الصقالبة ، وما ينوف على ثلاثة آلاف قطلونى ، كما ابتلعت مياه الوادى الكبير أعدادا ضخمة من الجند (١٥) ٠

عاد القطلونيون المغلوبون بعد ذلك بيومين الى قرطبة غاضبين لهزيمتهم ، فأمعنوا فى القتل فى وحشية غريبة ، لاسيما أنهم راحوا يقتلون كل من يشبه البربر بأى وجه من الوجوه ، فلما طلب المهدى منهم معاودة القتال الى جانبه مرة أخرى رفضوا طلبه محتجين بفداحة الخسائر التى حاقت بهم مما لا يسمح لهم بالقتال ، ثم انصرفوا عن قرطبة يوم ٨ يوليو ١٠١٠ م (= السبت ٢٣ ذو القعدة سنة ٤٠٠ هـ) ، وعلى الرغم من جميع المساوىء التى ارتكبها القطلانيون فقد انزعج الأهالى لرحيلهم ،

اذ لم يكن ثم خطر يفوق خطر البربر الذين كان في استطاعة القطلانيين وحدهم دفعهم ، حتى ليقول مؤرخ عربي بعد رحيلهم « كان لأهل قرطبة لفراقهم أكبر هم ، حتى كان بعضهم يلقى بعضا فيعزيه كما يعزى من فقد أهله وماله ، أسفا على رحيلهم وجزعا من وصول البربر اليهم » .

فرض المهدى بالله على المدينة غرامة فادحة تمكنه من دفع رواتب جنده ، ثم زحف على العدو ، لكن جيشه كان قد فقد شجاعته منذ رحيل القطلانيين عنه ، فلم يكد رجاله يقطعون سبعة فراسخ حتى اعتراهم خوف شديد لمجرد تفكيرهم في أنهم سوف يواجهون بعد قليل أولئك البربر المخيفين فانقلبوا على أعقابهم الى قرطبة ، ومن ثم كان على المهدى انتظار العدو في العاصمة التي خندقها وسورها ، غير أن القدر شاء أن يكون سقوطه على يد الصقالبة وليس على يد البربر .

كان تحت راية المهدى بالله جماعة من الصقالبة وكبيرهم واضح ، أما البقية الأخرى منهم — وفيهم خيران وعنبر — فقد انقادوا لمناوئيه ، وشعر جميع الصقالبة بضرورة اتحادهم معا رغبة في تحقيق أهدافهم ومطامعهم ، ألا وهي أن تكون « القوة » في أيديهم ، فصمموا أن يجلسوا على العرش هشاما الثاني مكانه في كرسي الخلافة ، ومن أجل تحقيق هذه الخطة عمل واضح جهده على اثارة سخط سكان العاصمة وأخذ يبالغ في الارجـــاف بأخبار رتتعلق بحياة الفسق والفجور التي يحياها « السفيه » ، ومضى يقبح لدى العامة الفوضى التي يرتكبها الجند ، هذا مع أنه كان في الوقت ذاته يشجعهم عليها سرا ، ولما أفسدت هذه المكائد البقية الباقيـــة من حب الشعب للمهدى بالله تقدم خيران وعنبر وبقية قادة جيش سليمان من الصقالبة الى المهدى يعرضون عليه خدماتهـــم ، فتعجل هذا بقبول عرضهم ، لكن ما كاد هؤلاء المرتزقة يدخلون قرطبة حتى أدرك أنهـــم يتآمرون به ، ولما كان عاجزا عن مقاومتهم فقد صمم على الاعتصام مرة أخرى بطليطلة ، فحال الصقالبة بينه وبين ما يريد ، وفي يـــوم الأحـــد ٢٣ يوليو ١٠١٠ م (= ٨ ذى الحجة سنة ٤٠٠ هـ) ركبوا في شوارع قرطبة ينادون بهشام الثاني ، وأخرجوه من سجنه وأجلســوه على كرسي الخلافة ونادوا بشعاره .

كان المهدى بالله في هذه اللحظـــة في الحمام ، فلمـــا نمى اليه خبر ما جـــرى انطلق لســـاعته الى دار الملـــك ليجلس الى جـــوار هشـــام لولا أن جـــذبه عنبر جذبة شـــديدة من ذراعه وأنزله عن العرش وأرغمـــه على الجلوس بين يدى هشـــام الذى أنبه في لهجة عنيفة قاســـية على ما ارتكبه في حقـــه وما أنزله به من المصـــائب ،

ثم تقدم عنبر فأمسك بالمهدى من ذراعه وطرحه أرضا واستل السيف ليضرب به عنقه ، وحينذاك طوقه المهدى ، فلما رأى بقية الصقالبة ذلك المنظر أقبلوا عليه يتناوشونه بسيوفهم فهبروه بها حتى مات ، ثم سحبوا جثته الى الرصيف الذى وضعت فيه جثة ابن عسقلاجة قبل ذلك بسبعة عشر شهرا ٠

وهكذا اذا كان قد صعد العرش بمؤامرة فان هناك مؤامرة أخرى سلبته العرش والحياة معا (١٦) ٠

الفصل الخامس عشر

الكراهية ضد الصقالبة • في العاصمة • سليمان يطلب النجدة من شانجة كونت قشتالة • استرداد شانجة بعض القلاع من غير حرب • ضراوة البربر ضد قرطبة والزهراء محاولة الصقالبة الانتقام • مقتل حابسة بن أخي زاوي • استبسال القرطبيين في الدفاع عن مدينتهم • عودة سليمان للقصر الخليفي •

الفصل الخامس عشر

الأندلس بين الصقالبة والبربر

كان الصقالبة يبلغون أقصى القوة اذا كان الحاكم شديد الضعف كما هو الحال ازاء هشام الثانى ، فقد تطلع واضح الحاجب الى حكم أسبانيا كما فعل مولاه المنصور من قبل ، غير أن الظروف لسوء طالعه كانت غير الظروف السابقة فقد تبدلت الأمور ، وشتان ما بين واضح والمنصور ، وفى الواقع أنه لم يبد فى بادىء الأمر شىء من المعارضة بالعاصمة التى لم يجزع أحد فيها لمصرع الطاغية المهدى بالله الذى طيف برأسه فى الشوارع دون أن تلوح بارقة من التذمر ، وسرعان ما تبين واضح انهيار أمله فى اللحظة التى كان فيها اعتراف البربر بالحاكم الذى ألبسه التاج ، فقد اشتد بهم السخط عليه حينما بعث اليهم برأس المهدى رجاء العودة الى طاعة هشام ، وهموا بأن يفتكوا بحامل الرسالة لولا توسط سليمان فى الابقاء عليه حتى لقد بكى سليمان نفسه أسفا على منظر رأس ابن عمه ، ومن ثم غسله وأرسله الى عبيد الله بن المهدى الذى كان موجودا اذ ذاك بطليطلة .

تنبه واضح لموقف البربر ثم لم يلبث أن أدرك بعد قليل وجود أعداء له داخل المدينة ذاتها ، ذلك أن بعض الأمويين كانوا كارهين للسيادة الصقلبية ، ورأوا أن تحقيق منافعهم الشخصية يتطلب منهم أن يكونوا الى جانب سليمان فأوعزوا اليه سرا بوجوب التقدم يوم ١٢ أغسطس (= ٢٧ ذو الحجة سنة ٤٠٠ هـ) الى أبواب العاصمة ومن ثم يمكنونه منها ، فوعدهم سليمان بالحضور ، غير أن واضحا علم من خيران وعنبر بالمؤامرة التى تدبر ضده ، فقبض على المتآمرين ولما كان سليمان قد حدد يوما يظهر فيه أمام أسوار البلد فقد هوجم بشدة واضطر الى التراجع السريع (١) .

كان واضح يأمل أن يسلس التراجع من شكيمة البربر فعاد لمفاوضتهم من جديد دون أن يحصل على نتيجة ما ، وفي هذه الأثناء طلب سليمان النجدة من حليفه القديم شانجة كونت قشتالة عارضـا عليه التنازل عن الحصون التي كان المنصور قد استولى عليها منه ، ولا ندري عما اذا كانت هذه هي نفس الحصون التي وعده بها من قبل ، غير أن المؤكد هو أن الكونت وجد هذه المرة الوسيلة لزيادة رقعة أملاكه دون أن يكلفه ذلك ارسال حملة الى الأندلس •

لم تكن القلاع المتفق عليها في حوزة سليمان بل في يد واضـح ، ومن ثم فقد أفهمه شانجة بوجوب التخلي له عنها والا زحف عليه في رجاله القشتاليين وانضموا الى جانب البربر ، فكانت مسئولية قبول ذلك الطلب أو رفضه أخطر من أن يتحملها واضح وحده ، فأرسل في طلب وجوه الناس وأفضى اليهم بفحوى رسالة شانجة وسألهم أن يمحضوه النصح ويشيروا عليه بما يفعل ، فكان ردهم عليه أنه ينبغي عليه قبول هذا الطلب مدفوعين الى ذلك بخوفهم من رؤية البربر يهاجمونهـم بمساعدة القشتاليين ، فتغلب ذلك على ما عندهم من روح الكبرياء القومي ، وفي شهر أغسطس أو سبتمبر ١٠١٠ م (= المحرم سنة ٤٠١ هـ) عقد واضح مع شانجة معاهدة أسلمه فيها – على حد قول الكتاب المسلمين – أكثر من مائتي حصـن ، يذكـر منهـا المؤرخون المسيحيون (٢) شانت شتيبن وكروتيا وليكوند وجرماز ، ووخشمة •

وسرت هذه الروح كالعدوى فقد رأى أحد الكونتات الآخرين أن قليلا من الوعيد والتهديد كاف للحصول على بعض القلاع الحصينة ، فقـام بدوره مهددا بانضمامه من سـاعته الى جانب سليمان ان لم يجب الى مطلبه ، فلم يجرؤ أحد على رفض ما طلب ، وهكذا أصبحت الامبراطورية الاسلامية فريسة للفتن والانحلال ، كما راحت تسير في طريق التمزق •

فهل لازال قرطبة فرحين بسقوط بني عامر ؟ وهل لازالوا يعدون يوم سقوط العامريين يوم فرحة لهم كما قد نستدل على ذلك من حماستهم الشديدة في تأييدهم الثورة ؟

الواقع أنهم كانوا جد مخطئين لكنهم لم يكونوا يستطيعون التراجع ، فكان عليهم وسط الظروف المحيطة بهم أن يرضوا بطأطأة هاماتهم أمام أعداء دينهم والرضوخ للسيطرة التي يريد البربر والصقالبة فرضها عليهم ومقاساة أهوال النهب والسلب على يد هؤلاء وهؤلاء •

ومجمل القول انه كان عليهم قبول كل ما تتعرض له الجماعات التي تسير من غير هدف محدد واضح ، ومن غير أن تكون لديها فكرة سياسية أو دينية تسعى لتحقيقها ، فيدفعها الطيش لأن تطرح بنفسها في أعصار الثورات .

الا أن أهل قرطبة لم يكونوا وحدهم في هذه اللحظة أكثر الناس معاناة لشدة وطأة البربر الذين حاصروا بلدهم قرطبة مدة شهر ونصف ثم حملوا على مدينة الزهراء فاستسلمت لهم بعد حصار دام ثلاثة أيام فقط ، ويرجع سبب استسلامها الى خيانة أحد القادة فقد فتح لهم أبوابها يوم ٤ نوفمبر ١٠١٠ م (= ٢٤ ربيع الأول ٤٠١ هـ) ، وجرت مذبحة مروعة فكان ما أصاب الزهــراء على يد البربر كافيا لأن يدرك منه القرطبيون ما يدخره لهم هؤلاء اذا كانوا لايزالوان في شك من مصيرهم ، فقد ذبحوا جند الحامية على بكرة أبيهم ، واعتصم الناس بالمسجد الذي لم يحترم البربر قداسته فلم يبقوا على أحد لاذ به : رجلا كان أم امرأة أم طفلا ، بل قتلوهم جميعا ، ثم أضرموا النيران في المدينة بعد ان استباحوها ، وبذلك لاقت الزهراء التي لم يكن لجمالها ضريب في أوربة ما لاقته منافستها فأصبحت كومة من الأنقاض .

ظل فريق من الجيش المغربي طوال الشتاء ينهب ضواحي قرطبة ويحول دون وصول الطعام الى المدينة ، فلما جرد سكان الأقاليم المجاورة من كل ما يملكونه تزاحموا زرافات ، وجاوز عددهم عــدد السكان وارتفعت أسعار الغلال ارتفاعا فاحشا استحال معه تموين هؤلاء فمات الكثيرون منهم جوعا وأصبحت الحكومة نفسها على شفا الافلاس لقلة دخلها حتى اضطر الحاجب واضح لبيع الجزء الكبير من مكتبة الحكم الثاني بثمن زهيد(٣) ، وان أخذت في الوقت ذاته جماعات قطاع الطرق تنهب الولايات فسقطت المدن الكبرى في أيديهم ، وكان أشد الأمور نكاية هو معاناة الســكان ما عانته الزهراء ، وهكذا كان كل مكان باسبانيا مسرحا تمثل عليه أفجع المناظر ، فهجرت القرى حتى لقد كان المرء يسير بضعة أيام في الطرق التي كانت مأهولة من قبل فلا يصادف أي كائن حي .

وفي صيف ١٠١١ م (= ٤٠١ هـ) تفاقم بؤس الأندلس لاسيما قرطبة ، وكأن هذه المدينة المنكوبة التي اجتاحها الطاعون (٤) قد اطمأنت الى توالي المصائب عليها فازدادت الفوضى ، ونسب الجند الى واضح ما حاق بهم من النكبات ، كما راح القائد الصقلبي ابن أبي وداعة ــ عدو الحاجب الشخصي ــ يعمل على اثارة السخط ضد واضح ، فقد سبه ابن أبي وداعة

على ملأ من الناس ، وأدرك واضح اضطراب مكانته ، فندب شخصيا يدعى أبا بكر للذهاب الى سليمان والاتفاق معه على الصلح [ويشير عليه بمنازلة قرطبة بعد رحيله عنها] ، فأثار هذا المسلك حفيظة الصقالبة لذلك ما كاد أبو بكر يعود بعد مفاوضته خصم الخليفة ويدخل قاعة الملك حتى وثب الجند عليه ولم يدعوه يذكر الجواب الذى كان يحمله ، وذبحوه فى حضرة الخليفة وفى حضرة واضح الذى صمم فى لحظته هذه على الفرار الى البربر ، غير أن خبر عزمه على الهروب ترامى الى ابن أبى وداعة فحال بينه وبين تنفيذه ، اذ جمع جنده واقتحم بهم قصر الحاجب قائلا له : « لقد أسرفت فى الأموال ، ثم تعتزم بعد ذلك على مصالحة البربر ؟ » ، ثم ضربه بصفح سيفه ، ثم طرحت جثته يوم ١٦ آكتوبر ١٠١٠ م (= ١٥ ربيع الأول سنة ٤٠٢ هـ) حيث طرحت من قبل جثتا المهدى بالله وابن عسقلاجة .

انقضى عام ونصف عام بعد ذلك قبل أن يضع العدو السيف عن الصقالبة والقرطبيين ، وفى هذه الفترة حكم ابن أبى وداعة المدينة بيد من حديد وبقسوة متناهية ، وآزره الفقهاء كل المؤازرة فسموا حرب البربر جهادا ، وأصاب المحاصرون شيئا من الغنم ذلك أنه فى بشهر مايو ١٠١٢م (= شـــوال ٤٠٢ هـ) وقع فى أيديهـــم محـــارب بربرى بارز هو حباسة بن أخى زاوى ، اذ أخذ يضرب ذات اليمين وذات الشمال حتى ألقى نفسه وسط محاربيه واذا بحزام سرجه يرتخي وما كاد ينحنى لشده حتى سدد اليه صقلبى نصرانى طعنة شديدة من رمحه أسقطته عن فرسه ، وسرعان ما أجهزت عليه جماعة أخرى من الصقالبة فحاول أخوه حبوس انتزاع جثته من يد العدو فقاتلوه فلم يظفر ببغيته ، وحمل الصقالبـــة رأس حباسة الى القصر يزدهيهم النصر وتركوا جثته للشعب الغاضب الذى أضرم فيها النار بعد أن مثل بها أفظع تمثيل وطاف بها الشوارع ، فاشتد حنق البربر وقالوا « سنثار لشيخنا ، واذا أرقنا دماء القرطبيين جميعا فلا نكون قد اكتفينـــا بثأرنا » (٥) واذ ذاك ضاعفوا من عنفهم ، غير أن اليأس منح القرطبيين قوة جبارة ، وخرج ابن أبى وداعة مبربرا حتى أرغم خصومه على رفع الحصار ودفعهم عن اشبيلية ، لكنه عجز عن أن يمنعهم من الاستيلاء على قلعة رباح ، بيد أنهم ما لبثوا أن عادوا الى أسوار العاصمة التى رغم استماتة القرطبيين فى الدفاع عنهـــا الا ان البربر استطاعوا ردم الخندق مما ساعدهم على السيطرة على الجانب الشرقى منها، لكن يظهر أن الحظ واتى القرطبيين مرة أخرى فقد أرغموا عدوهم على التخلى عن الجزء الذى وقع فى يده ، وكانت هذه آخر مرة ينتصر فيهـــا القرطبيون (٦) اذ دخل البربر المدينة من باب ضاحية شقندة بعد أن

رشوا أحد الضباط ففتحه لهم وذلك يوم الأحـــد ١٩ ابريل ١٠١٣ م (= ٥ شوال سنة ٤٠٣ هـ) ودفعت قرطبة ثمن مقاومتها الطويلة سيلا من الدماء الجارفة ، فقد ارتد الصقالبة فاشلين وأخذ البربر يجوسون خلال الشوارع يصيحون صيحات منكرة وانسابوا فى المدينة مدمرين وسالبين ومقتلين الناس ، وراح الأهالى الوادعون ضحية غضبهم الأعمى ، فكان من القتلى سعيد بن منذر خطيب جامع المدينة منذ أيام الحكم الثانى والذى زكاه فضله وورعه فأعيد اختياره (٧) ، وكان من القتلى أيضـــا مروان التعس من أسرة بنى حدير الشريفة الذى أحب ففشـــل فيئس فجن (٨) وطرحوا جثة العالم ابن الفرضى صاحب معجم التراجم القيم ، وكان ابن الفرضى (٩) قاضى بلنسية زمن المهـــدى ، وقد تحقق رجاؤه الذى تمنـــاه فى لحظة من لحظات الحماســـة الدينية فى أن يموت شهيدا فمات الميتة التى اشتهاها (١٠) ٠

وتعددت الضحايا حتى ليعجز المرء عن عدها ٠

وفى نفس الوقت كانت النيران تشتعل وتلقى بأضوائها المشئومة على هذه المناظر المروعة ، وغدت أفخم القصـــور طعمة للنار حتى لقد قال ابن حزم (١١) فيما بعد : « انتزى أرباب الدولة على النـــاس وامتحنوهم بالاعتقال والترقيب والاغترام الفادح والاستتار ، وأرزمت الفتنة ، وألقت باعها وعمت الناس » ٠

وفى اليوم التـــالى لاحتلال المدينـــة ذهب سليمان لامتلاك القصر الخليفى وجىء له بجميع القرطبيين الذين شـــاءت الصـــدفة البحتة أن ينجو من ســـيوف البربر ، وأوقفـــوهم على جانبى الطـــريق لتحيته ، وعلى الرغم من أنهـــم كانوا مروعين من المناظر المؤلمة التى قدر لهـــم أن يشاهدوها فقد سعوا جهدهم للهتاف له ، ولكنه هو كان يدرك حقيقة هذه الحماسة المصطنعة ، فقال متمثلا بقول شاعر قديم (١٢) :

يقولون لى أهلا وسهلا ومرحبا ولو ظفروا بى ســـاعة قتلونى

ولما بلغ القصر جاء بهشام الثانى وقال له : « أما كنت تبرأت لى من الخلافة وأعطيتنى صفقة يمينك ٠٠ فما حملك على أن نقضت عهدك وحللت عقدك ؟ » ٠

فضم هشام البائس يديه وأجابه : « انى مغلوب على أمرى متبرىء من الخلافة ، ومسلم الأمر اليك وخالع لك نفسى » ٠

أما البربر فقد استقروا أولا فى شقندة ، وبعد ذلك بثلاثة أشهر نفى جميع سكان قرطبة ماعدا الذين ينزلون الناحية الشرقية والميدان المسمى بالمدينة وصودرت أملاكهـــم ، وضمت الى المنتصر الذى احتـــل اذ ذاك البيوت التى نجت من الحريق (١٣) ٠

الفصل السادس عشر

تمزق وحدة البلاد • خلاصة الرأى فى الخليفة سليمان • كراهية الناس لظلمه • خيران الصقلبى يستولى على المرية • على بن حمود البربرى وطموحه الى الخلافة • هل هشام حى أم ميت ؟ قتل سليمان وتولية على بن حمود • انقلاب خيران عليه وتلويحه بدعى اموى للحكم • ترحيب القرطبيين بحاكم أموى • انقلاب ابن حمود عليهم ومصادقته البربر وأثر مظالمه • مقتله • مبايعة ابنه القاسم • خيران والمنذر يختاران المرتضى الذى يرفضه زاوى • غدر خيران والمنذر بالمرتضى • عدل القاسم فى الحكم • استكثاره من السودان يثير البربر عليه • فرار القاسم والنزاع الأسرى • ثورة أهل قرطبة • ابن أخيه يغلبه ويحبسه ثم يقتله خنقا • مبايعة عبد الرحمن المستظهر أخى المهدى بالخلافة •

الفصل السادس عشر

المنازعات والخصومات الدموية

حول الحكم

استقل كثير من ولاة الأقاليم منذ اندلاع الفتن ـ بما فى أيديهم ، وكان سقوط قرطبة فى يد البربر آخر طعنة مزقت وحدة الامبراطورية فاستولى القواد الصقالبة على بعض المدن الكبرى فى الشرق ، كما استقل زعماء البربر استقلالا تاما فيما كان بيدهم من الاقطاعات أو الولايات التى أقطعهم اياها العامريون ، أما الشراذم القليلـــة الباقيـــة من الأسرات العربية التى كانت لا تزال على شىء من القوة تؤهلها للاعتبار فقد تجاهلت الخليفة الجديد الذى كان سلطانه يمتد على خمس مدن كبرى فقط هى قرطبة واشبيلية ولبلة وأكشونبة وباجة .

كان هناك من المظاهر ـ وان قل ـ ما يدل على تبدل الأمور ، فقد كان البربر يتوقون للتمتع بالأموال التى أصـابوها من جراء تخريب العاصمة وبعض المدن الأخرى ، كما أن سليمان نفسه ـ على الرغم من اضطراره لخوض غمار الحرب مدة أربع سنوات ـ لم يكن أبدا بالشخص المحب للحرب بل كان على الضد من ذلك ، فعلى الرغم من أنه كان رئيس هذا النفر الوحشى الذى خرب كل الامبراطورية الا أنه كان رجلا ملؤه الانصاف والدماثة والكرم ، وكان محبا للآداب ، جيد النظم ، قد انطوت نفســه ـ تجاه المرأة ـ على الفروسـية التى من مظاهرها احترامه لها واصطناعه الرقة حيالها ، وكان يعمل كل ما فى جهده لايجاد جو من الهدوء بعد هذه العواصف ، غير أن سوء طالعه أبى الا أن تشتد نقمة الشـعب عليه من جراء فظاظة جنده الذين قصرت يده عن أن تنالهـم بالعقـــاب ، لاسيما وأن خضوعهم له كان مرهونا باطـلاق يدهم وفق ما يشتهون ، وكان الأندلسيون يرون فيه رجلا مغموز الايمــان معدوم الناموس (١) ، وكافرا زنديقا مغتصبا ، وأنه بلغ العرش على أكتاف البربر ومسيحيى الشمال أعنى الجماعتين اللتين يفزع منهما الناس ،

وما كان أشد غفلته حين أنفذ الى المدن المختلفة الكتب ينبؤها فيها بأنه معاملها بما عامل به قرطبة ان لم تعترف به (٢) ، فانصبت اللعنات عليه من كل ناحية وقال في ذلك أحد الشعراء (٣) :

لا رحم الله سليمانكم ... فانه ضد سليمان
ذاك به غلت شياطينها ... وحل هذا كل شيطان
فباسمه ساحت على أرضنا ... لهلك سكان وأوطان

وقال أيضا :

حلفت بمن صلى وصام وكبرا ... لأغمدها فيمن طغى وتجبرا
وأبصر دين الله تحيى رسومه ... فيبدل ما قيد لاح منهما وغبرا
فيا عجبا من عبشمي مملك ... برغم المعالي والعوالي تبربرا
فلو أن أمري بالخيار نبذتهم ... وحاكمتهم للسيف حكما محررا
فاما حياة تستلذ بفقدهم ... واما حمام لا نرى فيه ما نرى

هذه هي مشاعر الأندلسيين بل الصقالبة أيضا الذين دأبوا على الدعاء في الصلاة لهشام الثاني رغم كثرة الحاح سليمان وزجائه اياهم بالدعاء له مكانه ، وأكد لهم أنه قانع منهم بهذا المظهر من الخضوع لا يبتغي معه المزيد منهم (٤) ، هذا على الرغم من أنهم كانوا غير واثقين من بقاء هشام حيا ، فقد تناقضت الاشاعات التى كثرت حول مصيره ، فمن قائل انه مات مقتولا على يد سليمان ، ومن قائل انه محبوس فى قبو مظلم بالقصر ، وكان الناس أميل لتصديق الشائعة الثانية وترجيحها لأن العادة جرت بأن مغتصب العرش لابد وأن يظهر لجمهور العاصمة جثمان الذى تخلى له عن العرش لو أنه مات ، ولم يحدث قط أن أطلع سليمان أحدا ما على جثة هشام (٥) ، لذلك ظل الصقالبة يحاربون باسم هشام ، وكان من أظهرهم خيران •

ولما كان خيران هذا مولى للمنصور الذى ولاه أعمال المرية (٦) فقد ركن الى الفرار من قرطبة حين دخلها البربر فمضوا فى أثره فاضطر لقتالهم ، ثم تخلت عنه قواته ممعنة فى الفرار تاركة اياه فى معمعان القتال والموت منه دان فقد أثخنته جراحه ، حتى اذا اندملت هذه الجراح ووجد في نفسه القدرة على المسير عاد الى قرطبة حيث أكرم وفادته صديق له من المنتصرين ، وزوده ذلك الصديق بمبلغ من المال أعانه على العودة للشرق حيث انضم تحت لوائه كثير من الصقالبة والأندلسيين الذين تمكن

بهم من الاستيلاء على المرية بعد أن حاصرها عشرين يوما . وفي هذه الأثناء وجد حليفا قويا في أحد قادة سليمان . ذلك هو علي بن حمود الذي يرجع نسبه الى النبي [عليه الصلاة والسلام] وكانت أسرته قد أقامت منذ قرنين في افريقية فتبربرت ، كما كان هو نفسه ضعيف اللسان في العربية ، وتولى حكم سبتة وطنجة ، كما حكم أخوه الأكبر القاسم الجزيرة الخضراء. فكان علي بن حمود شبه مستقل في ولايته ، لكنه لم يقنع بما هو فيه بل كان يتطلع الى الخلافة التي لم يجد اليها غير سبيل واحدة الا وهي محالفته الصقالبة ، ففاتح خيران في هذا الأمر وأراد كسبه الى جانبه بتدبير خرافة عجيبة اذ ادعى أن هشاما الثاني كان يشتغل بالملاحم ووقف على أن علويا أول اسمه « عين » يعيد ملك الأمويين بعد انقراضه ، وأضاف الى ذلك قوله انه سمع هشاما يتحدث عنه بعد سقوط قرطبة وبعث من سجنه من يقول « ان خاطري يحدثني بأن هذا الرجل يقتلني ، فان فعل فخذ بثأري » فاستخف الفرح خيران أن تهيأ له مثل هذا المساعد وآمن بأن هشاما لا يزال حيا ، وقبل هذه الرواية دون بحث أو تحر ، ولما كان ابن حمود وعده بارجاع هشام الى العرش ان عثروا عليه فقد تكفل خيران بالاعتراف بابن حمود ان قام الدليل على موت هشام (٧) .

حين اتفق الطرفان على هذه الشروط عبر علي بن حمود المجاز وطلب من عامر بن فتوح (الفائقي) حاكم مالقة أن يسلمه المدينة ، ولما كان عامر مولى لمولى أموي (٨) ، ولما كانت الأمور تقتضي اتفاقه مع الصقالبة ولما كان يضمر الكراهية الشخصية للبربر لأن أحد رؤسائهم سلبه زندة(٩) فقد أجاب طلب علي بن حمود الذي حمل بعد ذلك على (المنكب) حيث انضم اليه خيران بقواته ، ثم واصل الزحف على قرطبة .

لم يقتصر اعتماد علي بن حمود على الصقالبة وحدهم بل اعتمد أيضا على طائفة كبيرة من البربر الذين كانوا على وجه العموم قليلي التعلق بسليمان اذ لم ينادوا به خليفة الا لأن الصدفة البحتة وضعته في طريقهم في اللحظة التي كانوا أحوج ما يكونون فيها الى أحد الأدعياء ، وكان أشد ما يبغضهم فيه هو لين عريكته وانعدام كفاءته الحربية التي هي ميزان تقديرهم للرجل ، وكانت الحال على الضد من ذلك من ناحية علي بن حمود فقد دفعته شجاعته الى احترامهم اياه فضلا عن كونه من أبناء جلدتهم ، وانضم اليهم زاوي أقوى زعمائهم وحاكم غرناطة اذ ذاك ، وهو الذي أجلس سليمانا على العرش وكان شديد الكراهية للأمويين عامة ، فقد قتل أبوه في معركة بافريقية خاضها ضد جماعة من أنصار بني أمية وعلقت رأسه على أسوار قلعة قرطبة حيث ظلت باقية مكانها حتى استولى هو وأتباعه على تلك العاصمة وخربوها ، وكانت هذه جريمة لم يغفرها

أبدا للأمويين (١٠) ، وبذلك انضم زاوى الى على بن حمود الذى رفع علم الحرب ، وأثر مسلكه هذا على بقية البربر الذين أرسلهم سليمان لمحاربة منافسه فلم يقاتلوه ، وبرز أحدهم هذا المسلك بقوله : « اذا أردت يا أمير اكتساب الحرب فعليك أن تقودنا بنفسك » ، فأطاعهم حتى اذا صاروا على كثب من معسكر العدو عملت الرشوة عملها فيهم. فأركبوا سليمان بغلته وأسلموه الى خصمه ٠

وفي يوم الأحد أول يوليو ١٠١٦ م [٢٢ محرم ٤٠٧ هـ] دخل على وحلفاؤه العاصمة ، وكان أول هم خيران والصقالبة البحث عن هشام الثاني ، وراحت جهودهم فى هذا السبيل عبثا ، وكان ذلك من حسن طالع على الذى استقدم سليمان بين يدى الوزراء والفقهاء وسأله عما حل بهشام فأجاب سليمان فى ايجاز : « لقد مات » فقال على : « فأين لحدتموه ؟ » فدلهم سليمان على أحد القبور فنبشوه وأخرجوا جثة مولاه ، فما كان من الخادم الذى يؤكدون علمه بوجود هشام حيا فى هذه اللحظة الا أن أكد أنها جثته مدفوعا الى ذلك بخوفه من على بن حمود، بل لقد أراد زيادة البرهنة على ذلك فلاحظ ضرسا أسود فى فم الميت مؤكدا أنه كان لهشام مثل ذلك ، وأكد شهادته آخرون أرادوا اكتساب رضاء على عليهم أو لعلهم خافوا نقمته عليهم ٠ وهكذا اضطر الصقالبة للاعتراف بموت السلطان الشرعى والاقرار بخلافة على الذى ضرب عنق سليمان وأمر بقتل أخيه وأبيه ، فلما وصلوا الى الأب قال له ابن حمود : « أهكذا يا شيخ قتلتم هشاما ؟ » فأجابه الشيخ التقى ابن السبعين الذى كانت العبادة شغله ولم يساهم قط فى الأحداث السياسية بقوله : « لا والله ما قتلناه ، وانه لحى يرزق » فعاجله على مخافة الجهر بما يفسد عليه خطته،وأمر الجلاد بضرب عنقه فضربه (١١) ٠ ثم دفنوا الجثة التى زعموها لهشام ــ مرة أخرى ــ بجميع مظاهر التشريف الملوكية ٠

فهل حقيقة مات هذا الحاكم ؟

ان روح التحزب تلقى على هذه الناحية حجابا كثيفا لا يمكن اختراقه ، ومن المؤكد أن هشاما لم يظهر بعد ذلك أبدا ، وان الجثة التى قيل انها له كانت مزعومة ٠

غير أنه من ناحية أخرى لم يقم الدليل البين هل مات هشام على يد سليمان أم أنه لاقى حتفه فى عهد هذا الأمير ٠ كما أن الموالى الأمويين الذين كانوا يعرفونه راحوا يؤكدون أن الجثة التى أخرجها على بن حمود لم تكن جثة هشام ، ومع أن سليمان نفسه صرح أمام كبار رجال قرطبة

بموت هشام منذ مدة الا أننا نشك في شهادته ، فلعل عليا مناه بالابقاء على حياته لو أنه صرح به فما كان من سليمان أبدا سفاك دماء ولم يكن يخطر بباله قط أن يقدم على جريمة أحجم عنها المهدى بالله رغم ضراوته ، كذلك يجب أن نذكر انه كان لابد لسليمان من أن يعرض جثة هشام على أهل قرطبة — كما جرت العادة — لو أن هشاما مات في أيامه لا سيما وأن ذلك يزكي صالحه ٠

واذا كان الأمويون صادقين فيما ادعوه من أنه كان يستصغر (١٢) شأن القرطبيين حتى انه لم يفكر في عرضها عليهم ، فقد تناسوا أنه كان لا يستهين بالصقالبة بل كان يبذل كل ما في وسعه لحملهم للاعتراف بخلافته ، لذلك كانت أحسن وسيلة تساعده للتغلب على معارضتهم له هي أن يحملهم على الاقتناع بموت هشام ٠

ثم ان لدينا أخيرا شهادة أبى سليمان العجوز الذى أشهد الله على أن هشاما لا يزال حيا يرزق رغم اصرار ابنه على مخالفته ، أفهل كان لهذا الشيخ الورع أن يكذب في اللحظة التي هو ماض فيها لملاقاة ربه ٠٠ ؟ اننا نستبعد ذلك ٠

هذا الى أن جميع الأحوال تحملنا على الظن بصدق ما كان يتحدث به نسوة الحريم وخصيانه من قصص تتضمن كيف أن هشاما تمكن من التسلل من القصر أيام سليمان ثم اختفى بعد ذلك في قرطبة حيث أخذ يتكسب كعامل ومن هناك مضى الى الشرق ٠٠٠ أفهل كان لسليمان يد في هربه بعد أن أقسم له ألا يكون سبب ازعاجه ٠

وهل ظل متصلا به ؟

وهل كان يدرى مكانه ؟

ان أقوال أبى سليمان تدفع المرء على القاء هذه الأسئلة ، غير أننا لا نستطيع الاجابة عليها اجابة قاطعة ، وعلى أية حال فليس من المستبعد أن يكون هشام قد سئم استغلال اسمه في الدعوة الى الحرب على ألسنة جماعة من ذوى الأطماع لم يدعوا له ظلا من السلطة فذهب للانزواء في ركن مظلم من آسيا حيث أمضى بقية أيامه مطمئن البال مجهولا من الناس ، ونعم بحياة خالية من الأوجاع والأوصاب والمخاوف ٠

ومهما يكن الأمر فقد أخذ على بن حمود مقاليد الأمور في يده ، وظن الناس أنهم قادمون على عهد أحسن من سابقه ، وعلى الرغم من أن مؤسس الأسرة الحمودية كان نصف بربرى فقد مال الى الأندلسيين ، وأصغى في طرب الى قصائد شعرائهم التي لم يكن يفهمها فهما تاما ،

كما أنه لم يجعل بينه وبينهم حجابا فكان يجلس للاستماع لكل ما يريدون قوله ، وقمع أعمال السلب التى كان البربر يقومون بها ، وأسرف فى معاقبتهم على أتفه جرم يأتونه بسلب ما ليس لهم ، من ذلك مثلا ما حدث ذات يوم من أنه صادف أحدهم راكبا وأمامه سلة مملوء عنبا فاستوقفه وسأله من أين له بهذا العنب فتردد الرجل لحظة وقال فى اضطراب : « أخذته كما يفعل الناس » فدفع رأسه ثمن ما اختلس ·

كذلك اتخذ على بن حمود خطة نبيلة هى أنه رد على القرطبيين كل ما سلبه منهم البربر أثناء الفتن ، غير أنه لسوء طالع سكان العاصمة انقلب عليهم فجأة نتيجة لطمع خيران ·

لقد أخلص له خيران فى بادىء الأمر فتعقب دعاة الأمويين فى ولايته بالحبس والتنكيل (١٣) ، ولو كان قد استمر على معاونته لعلى بن حمود لعاد الهدوء يرفرف على البلد ، لكنه أراد أن يمثل الدور الذى مثله المنصور من قبل ، فلما أدرك أن عليا ليس بالرجل الذى يرضى أن يكون دمية فى يده كهشام الثانى فقد دبر مشروعا سعى من ورائه الى اعادة الأسرة القديمة كى يحكم باسمها ، وأخذ يبحث عن مدع يستعمله فى هذا الغرض ، فلما كان حوالى شهر مارس (١٤) سنة ١٠١٧ م [= شوال/ ذو القعدة سنة ٤٠٧ هـ] (١٥) وجد هذا المدعى فى شخص ابن حفيد عبد الرحمن الثالث واسمه أيضا عبد الرحمن ويسكن بلنسية(١٦)،فوعده كثير من البربر بمد يد المساعدة اليه وكان من بينهم المنذر حاكم سرقسطة وهو من أسرة بنى هاشم فزحف شطر الجنوب مستصحبا معه حليفه ريموند كونت برشلونة ، ولما شعر على كذلك بخيانة القوم الذين كان يتجمل لهم · ولما تبين أيضـــا رغبة أهل العاصـــمة فى رد الخـــلافة للأمويين رأى نفسه مضطرا لأن يسلط عليهم ما كان يمنعه عنهم حتى الآن وارتمى فى أحضان البربر الذين كان يضطهدهم من قبل ، فأطلق لهم العنان فاستباحوا قرطبة كمدينة مغلوبة على أمرها وسار هو بنفسه على هذا المنوال ودفعته حاجته للمال الى فرض الضرائب الفادحة عليهم وقبض على جماعة كثيرين من أعيانهم ، من بينهم (أبو الحزم) بن جهور أحد أعضاء مجلس المشورة البارزين ولم يطلقهم الا بعد أن فدوا أنفسهم بمبالغ طائلة ولم يكتف بما أنزله بهم من المظالم بل أخذ فى امتهانهم ، من ذلك أنه فى اللحظة التى أطلق فيها سراحهم وجاءهم خدمهم بدوابهم أمر من أخذ الدواب وتركهم ينزلون الى دورهم راجلين (١٧) ·

كذلك لم يحترم على بن حمود أوقاف المساجد التى أوقفها الأتقياء عليها، واشترى ــ لتحقيق ذلك بالثمن البخس ــ ذمة فقيه اسمه عبد الجبار ،

وبهذا أرغم الأوصياء على تسليمه الأوقاف فعم قرطبه الذعر ، وزخرت المدينة برجال الشرطة والجواسيس والوشاة ، وانعدم العدل ، ذلك أن القضاة كانوا أميل الى جانب الأندلسيين حين كان يعطف عليهم ، أما الآن فان تعلقهم بوظائفهم أدى بهم الى عدم الاصغاء الى شكاوى العامة من البربر مهما بلغت هذه الشكايات من الصحة ، وباع آخرون أنفسهم للخليفة حتى ليقول أحد المؤرخين المعاصرين لهم « صار شطر الناس اشراطا على سائرهم » فأقفرت الشوارع من سالكيها ، ولم يكن يرى فى الغالب سوى تعشاء حامت حولهم الشبهات يقادون الى السجون ، وأما من نجوا من القبض عليهم « فقد اختفوا فى الأقبية ، فان رغبوا فى شراء ما يحتاجون اليه انتظروا دخول الليل وتسربلوا به » ..

وأقسم على فى لحظة من لحظات غضبه على الأندلسيين أن يخرب العاصمة بعد أن يتصيد أهلها ويبيدهم غير أن الموت أجله من يمينه ، ففى ١٠١٧ (= ٤٠٧/٤٠٨ هـ) زحف على وادى آش لتأديب العصاة ، غير أن الأمطار أرغمته على الارتداد على عقبيه ، وفى شـــهر ابريل ١٠١٨ م (ذى القعدة ٤٠٨ هـ) علم أن الحلفاء قد بلغوا جيـان فأعد العـــدة لاستعراض جيشه يوم ١٧ منه (١٨) ليزحف بعد ذلك ، وفى اليوم المحدد طال انتظار الجند دون أن يطلع عليهم فلما مضى الضـــباط الى القصر للاستفسار عن علة غيابه وجدوه مقتولا فى الحمام .

لقد اقترف هذه الجريمة ثلاثة من صقالبة القصر كانوا من قبل فى خدمة الأمويين ، ولم يكن واحد من هؤلاء الثلاثة يضمر الكراهية الشخصية للسلطان بل كانوا موضع عطفه وثقته ، كما أنهم لم يقدموا على جرمهم تحت اغراء خيران أو القرطبيين ، ولما قبض عليهم فيما بعد وأدينوا أصروا على أنهم قتلوه من تلقاء أنفسهم لم يدفعهم أحد الى ذلك ، وتجلى للعيان أنهم فتكوا به ليخلصوا البلد من طاغية لم يعد أحد يطيق استبداده .

ومهما كانت الحقيقة فقد استبشر أهل العاصمة لمقتل على وان لم يكن معناه القضاء على الحموديين ، فقد ترك من بعده ولدين أكبرهما يحيى حاكم سبتة والقاسم (١٩) متولى أمر أشبيلة ، وحدث أن مالت جماعة لاستخلاف يحيى مكانه ، ورأى آخرون أن الخير فى مبايعة القاسم لقربه منهم ، وانتصر الأخيرون ، فما انقضت ستة أيام على موت على حتى دخل القاسم العاصمة وبايعه الناس .

أما خيران (الصقلبى) ومنذر (التجيبى) فقد دعيا جميع الزعماء

الذين يمكنهما الاعتماد عليهم الى اجتماع عقد يوم ٣٠ ابريل (= الأربعاء ١١ ذو الحجة سنة ٤٠٨ هـ) ، وقر المجتمعون — وهم كثيرون وأغلبهم من الفقهاء — أن تكون الخلافة انتخابية وأقروا اختيار عبد الرحمن الرابع ولقب بالمرتضى ، فلما تم ذلك ساروا الى غرناطة فلما بلغوها كتب المرتضى الى زاوى كتابا رقيقا يطلب منه الاعتراف بخلافته ، فلما قرىء الكتاب على زاوى رده بعد أن أمر كاتبه أن يكتب على ظهره (٢٠) « قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعد ، لكم دينكم ولى دين » ، فلما وصل الكتاب الى المرتضى وجه الى زاوى رسالة تفيض بالوعيد جاء فيها « أنا خارج لكم فى وجوه من الافرنج والأندلسيين ، فماذا أنت فاعل ؟ » ثم ختمها بهذا البيت :

ان كنت منا فأبشر بخير   أو لا فأيقن بكل شر

فرد عليه زاوى مقتبسا هذه السورة من القرآن الكريم (٢١) « ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » ، فاستشاط المرتضى غضبا من هذا الرد وصمم على محاربته ٠

غير أن خيران والمنذر عرفا أن المرتضى لم يكن بالشخص الذى يريدانه ، ذلك أنهما فى الواقع لم يكن يعنيهما فى قليل أو كثير حق الأسرة الأموية ، وانهما اذا كانا يحاربان من أجل أموى فانما يفعلان ذلك لقاء أن يترك لهما تدبير الأمور ، وأنف المرتضى تمثيل هذا الدور ولم يكن ليرضى قط أن يكون مسلوب السلطان ، بل لقد فرض رغائبه على قائديه بدلا من الرضوخ لهما ، ومن ثم أضمرا الغدر به فعاهدا زاوى على التخلى عن المرتضى حالما تبدأ المعركة الا أنهما لم يفعلا ما اتفقا عليه واستمرت الوقعة عدة أيام ، وأخيرا طلب زاوى من خيران الوفاء بعهده ، فأجابه خيران : « انما توقفت حتى ترى مقدار حربنا وصبرنا ، ولو أنا كنا معك فأثبت جمعك لنا ونحن ننهزم عنه ونخذله فى غد » ٠

فلما تنفس صباح اليوم التالى استدبر خيران والمنذر ظهرهما للعدو فى ثلة غير ضئيلة من رجالهما فأسخط ذلك الكثيرين لاسيما سليمان بن هود قائد الكتائب النصرانية فى جيش المنذر فلم ينهج نهج الجبناء بل مضى يرتب جنوده للمعركة فمر المنذر بجواره وصاح به : « النجاة يا ابن الفاعلة ، فلست أقف عليك » ،فأجابه سليمان (بن هود) :

« جئت بها والله صلعاء وفضحت أهل الأندلس » ، ثم لم يلبث أن تبع رئيسه حين أيقن باستحالة المقاومة .

لما هجر المرتضى أكثر جنده أخذ يقاتل فى شجاعة اليائس المستميت ، وما لبث وقع فى أيدى أعدائه ، غير أنه تمكن من الافلات منهم والهروب الى وادى آش خارج حدود غرناطة ، لكنه قتل على يد جماعة من جواسيس خيران كانوا يترصدونه .

وكفر خيران عن تلك الخيانة الوضيعة المستنكرة بفشل شيعته اذ لم يعد الصقالبة فى حال تمكنهم من ضم صفوفهم كجيش ، وأذعن سادة الأندلس لأعدائهم البربر ، ومع ذلك فقد نعمت قرطبة بالرفاهية التى يمكن الحصول عليها فى ظل حكومة أجنبية ، وأوشك عهد الارهاب ان يولى وحل محله عهد كان أقل اضطرابا وأسكن فى الفتنة بفضل الحكومة القائمة ، اذ كان القاسم أميل للسلم والهدوء ولم يشأ أن يزيد من آلام القرطبيين باضطهاد جديد ، وأراد تناسى الأضغان القديمة فاستقدم خيران وصالحه ، وولى زهيرا الصقلبى — أمير مرسية — اقطاعات جيان وقلعة رباح وبياسة،وشك الناس فى سنيته وقالوا انه شديد التعلق بالمذهب الشيعى . ومهما كانت صفة مبادئه فانه لم يحاول فرضها على أحد أو التكلم عنها ، ولم يغير شيئا من دولة الاسلام فى الأندلس ، ويرجع الفضل الى اعتداله هذا فى استمرار بقاء الأسرة الحمودية فى الحكم رغم قلة عطف أهل العاصمة عليها .. غير أنه كان من المحتمل أن يؤدى مرور الأيام الى ان يسحب النسيان ذيوله على ما لحق سادتهم القدماء من النكبات لو لم تجد ظروف لم تكن لهم يد فى دفعها عنهم أحيت الآمال الهاجعة .

لم تكن للقاسم ثقة فى البربر فبحث عن أنصاره فى غير صفوفهم ، وكان فى خدمة البربر جمع كثيف من السودان فاشتراهم القاسم منهم واستقدم آخرين من افريقية ، وألف جنده من الفريقين واختص قادتهم بأرفع المناصب (٢٢) مما أسخط البربر عليه فقام يحيى ابن أخيه واستغل لصالحه تذمرهم منه وكتب لهم كتابا يقول لهم فيه :

« ان عمى أخذ ميراثى من أبى ، ثم انه قدم فى ولايتكم التى أخذتموها بسيوفكم العبيد السودان ، وأنا أطلب ميراثى وأوليكم مناصبكم وأجعل العبيد السودان كما هم عند الناس » فوعده البربر بالوقوف الى جانبه كما هو المنتظر منهم فى مثل هذه الحال ، واذ ذاك غادر يحيى العدوة مع جنده وبلغ مالقة وكانت تحت حكم أخيه ادريس الذى كان يؤيده فى خطته ، وهنا تسلم يحيى رسالة من خيران الصقلبى الذى كان مستعدا على

الدوام لتأييد كل مغتصب للعرش ثم لا يلبث أن يقلب له ظهر المجن عقب انتصاره ، وأشار خيران في هذه الرسالة الى ما أداه لأبيه من قبل وراح يعرض عليه خدماته ، فأشار عليه ادريس برفض هذه اليد قائلا له : « ان خيران رجل خداع » ، فأجابه يحيى : « نحن منخدعون فيما لا يضرنا » ثم كتب الى والى المرية يخبره بأنه قبل عرضه ، وشرع يتأهب للزحف على قرطبة ، ورأى عمه أن الخير في الفرار ، وفي ليل ١١/١٢ أغسطس ١٠٢١ م (= ٢٨ ربيع الآخر سنة ٤١٢هـ) (٢٣) فر الى اشبيلية غير مستصحب معه سوى خمسة فرسان ، وبعد ذلك بشهر واحد دخل ابن أخيه العاصمة ولم تطل مدة حكمه اذ لم يتأخر السودان عن اللحاق بالقاسم ، وحذى حذوهم كثير من القادة الأندلسيين ، فتلفت يحيى أخيرا حوله فوجد أنه قد انصرف عنه كثير من البربر الذين أنفوا من غطرسته فأصبح مركزه اذ ذاك بالغ الخطورة حتى لقد كان يخاف أن يقبض عليه بين آونة وأخرى وهو في قصره ، واذ أراد الاطمئنان على نفسه فقد فر عن قرطبة متسترا بالليل ومضى الى مالقة فعاد القاسم بعدئذ ، وفي يوم ١٢ فبراير ١٠٢٣ م (= ١٨ ذى القعدة ٤١٣ هـ) صرفت اليه الخلافة مرة أخرى ، غير أن سلطانه كان مضطربا وقد أخذ في التضاؤل يوما بعد يوم ، ففي افريقية قام ادريس حاكم سبتة وانتزع منه مدينة طنجة التى كان القاسم قد عنى بتحصينها وبذل في ذلك جهدا كبيرا ، كما كان يعد العدة للرجوع اليها اذا فشل في التمكن من الحكم فيما وراء العدوة ، كذلك استولى يحيى في اسبانيا على الجزيرة الخضراء وكانت بها زوجة عمه وأمواله ، ولم يستطع الخليفة الاعتماد في العاصمة ذاتها على غير السودان .

أما القرطبيون الذين لم يكترثوا للصراع الناشب بين العم وابن أخيه فقد أغرتهم هذه الظروف على التحرك من جديد لأن فكرة التخلص من البربر كانت مسيطرة على كل النفوس ، وشاع الخبر بأن أحد الأمويين موشك على الظهور لاسترداد العرش فتسرب الخوف الى نفس القاسم من تلك الشائعة ، ولما كان اسم هذا الأموى مجهولا فقد أمر بالقبض على كل من يعثر عليه من الأمويين الذين تفرقوا اذ ذاك في البلاد ودخلوا في أغمار الناس .

بيد أن التدابير التى اتخذها القاسم لم تحل دون اندلاع الثورة اذ أن مظالم البربر أرهقت أهل قرطبة فامتشقوا الحسام يوم ٣١ يوليو ١٠٢٣ (= الأربعاء (٢٤) = جمادى الأولى سنة ٤١٤ هـ) ، وجرت معركة حامية الوطيس أمضى الفريقان بعدها معاهدة — أو بالأحرى هدنة — فيما بينهما واتفقا على أن يحترمها الجانبان ، لكنها لم تكن طويلة المدى رغم محاولات القاسم اطالة أمدها باصطناعه اللطف مع الشعب ، ففي يوم

صلاة الجمعة نودى « الحرب · الحرب » فرددت جميع النواحى الدعوة وأخرج القرطبيون القاسم ورجاله البربر عن المدينة لا عن الضواحى ، فمضى القاسم الى المغرب وضيق الخناق على العصاة أكثر من خمسين يوما كانت الحرب خلالها حربا عنيفة فقل الطعام عند القوم حتى سألوه أن يأذن لهم بمغادرة المدينة بنسائهم وأطفالهم لكنه رفض طلبهم ، وحينذاك قام أهل قرطبة بعمل أملاه اليأس عليهم اذ خلعوا أحد الأبواب وانثالت جموعهم من المدينة يوم الخميس ٣١ أكتوبر (= ١٣ شعبان ٤١٤ هـ). وحملوا بشدة على عدوهم الذى ركن الى الفرار وقد اختلت صفوفه وارتد القواد الى مقاطعاتهم ، ولجأ القاسم نفسه الى اشبيلية التى أغلقت أبوابها فى وجهه وخلعت طاعتها له ، وقد شجعها على ذلك موقف قرطبة فاضطر للخروج الى « شريش » ، لكن يحيى مضى اليه وحاصره بها وأرغمه على التسليم وبذلك انتهى دور القاسم السياسى واقتاده يحيى الى مالقة مكبلا بالحديد وأقسم ليقتلنه ·

غير أن الوساوس أقضت مضجعه فتراجع عن يمينه اذ رأى فى نومه أباه يقول له : « أخى أكبر منى ، وكان محسنا الى فى صغرى ومسالما لى عند أمارتى···فالله الله فيه » · غير أنه أراد قتله وهو ثمل الا أنه كان كلما هم بالفتك به وكل الأمر الى مشورة ندمائه الذين أفضوا اليه ذات مرة ألا خطر عليه من عمه القاسم طالما هو فى الحبس ، وبذلك ظل القاسم سجينا ثلاثة عشر عاما فى قلعة من قلاع مالقة ، بيد أنه فى عام ١٠٣٦ م (= ٤٢٧ هـ) علم يحيى أنه يحاول دفع الحامية الى العصيان فقال : « أو بقى فى رأسه حدث بعد هذا العمر » ، ثم أمر بخنقه (٢٥) ·

حين استرد أهل قرطبة استقلالهم فكروا فى تنظيم الأمور بهـا وترتيبها بارجاع الأمويين الى العرش دون اللجوء الى الثورة ، وفى شهر نوفمبر ١٠٢٣ م (شعبان رمضان ٤١٤ هـ) عقدت عدة اجتماعات وتبودلت الآراء فاقترح الوزراء على أبناء جلدتهم ثلاثة أشخاص ليختاروا منهم من يحبون ، أولئك هم : سليمان بن عبد الرحمن الرابع المرتضى ، وعبد الرحمن أخو المهدى بالله ومحمد بن العراقى وكان الكل على ثقة من اختيار سليمان فوضعوا اسمه فى أعلى القائمة وكتب أحمد بن برد الكاتب عهد التولية باسمه ·

لكن نفوذ هؤلاء كان أقل مما هو متوقع ففشلوا فشلا ذريعا حين فاتهم أن يحسبوا حساب منافسه عبد الرحمن (أخى المهدى بالله) وكان شابا فى الثانية والعشرين من عمره حين أخرجه الحموديون عن العاصمة لكنه تسلل اليها خفية قبل ذلك الاجتماع بزمن قصير ، وانتهز فرصة

هياج القرطبيين على البربر لتكوين جماعة تؤيده فى طلب الخلافة ففشل في هذا المشروع • أما الوزراء الذين دبروا الثورة ولم يكونوا ميالين اليه فقد زجوا برجاله فى السجن ، وأطبق عليهم فيه حتى تمت البيعة بالانتخاب فأطلقوا •

كذلك حاول هؤلاء الوزراء القبض على عبد الرحمن نفسه غير أنهم حينما أخذوا يعدون أسماء المرشحين للخلافة رأوا ضرورة ذكر اسمه مخافة اغضاب الكثيرين من مواطنيهم ان هم تناسوه ، لكن لم يكن يخطر لهم ببال أن يكون هذا الأمير منافسا خطيرا لسليمان ، لذلك كتبوا اسمه قريبا بعض الشيء من السطر الذى كتبـوا فيـه اسم المنـافس الثالث محمد بن العراقس الذى لم تكن له أدنى مكانة فى نفوس العامة •

حين وثق الوزراء من عملهم دعوا الخاصة والجند والعامة للاجتماع فى المسجد الجامع يوم أول ديسمبر ١٠٢٣ م [١٥ رمضان سنة ٤١٤ هـ] لاختيار من يريدون ، وفى ذلك اليوم كان سليمان بن المرتضى أول من وافى المسجد مستصحبا معه الوزير عبد الله بن مغامس وهو فى أبهى حلله ، والسرور باد عليه لثقته من أن العامة سوف تختاره ، فاستقبله أصحابه أحسن استقبال والتمسوا منه أن يجلس على مرتبة أكثر ارتفاعا خصصوها له ، ثم ما لبث عبد الرحمن أن دخل المسجد من باب آخر فى خلق كبير من الجند والعامة ، فما كادت جماعته تعبر عتبة الباب حتى نادوا به بشعار الخلافة ، فدوت أرجاء المكان بالهتاف العالى •

أما الوزراء الذين لم يكونوا قـط يتوقعون هـذا الأمر فقد ريعوا وألجموا ، وصار من المستحيل عليهم الانتظار وسط هذا الحشد فبايعوا عبد الرحمـن بالخلافة ، واقتدى بهم سليمان الذى كان أكثرهم ذهولا واضطرابا ، فأخذه القوم الى عبد الرحمن الذى قبل يده وجلس الى جواره •

أما المنافس الثالث محمد بن العراقى فسرعان ما أقسم له يمين الولاء ، واذ ذاك قام الكاتب فمحا اسم سليمان من عهد البيعة ، وأثبت مكانه اسم عبد الرحمن الخامس الذى تسمى بالمستظهر •

الفصل السابع عشر

حب المستظهر لحبيبة بنت عمه سليمان ورفض أمها زواجها منه

شعره • حياؤها وأدبها • ابن حزم •

الفصل السابع عشر

واحـــة المؤرخ

ربما كان مؤرخ العصر الذى مزقته الفتن الأهلية وعصفت به الأعاصير الهوجاء أحوج ما يكون للابتعاد قليلا عن مناظر الصراع التى كانت بين الأحزاب والفتن الاجتماعية والدماء المهراقة ، وربما كان هذا المؤرخ أشد الناس احساسا بالحاجة الى تهدئة الخاطر والمضى به شطر مثل أعلى من الهدوء والطهارة والأحلام ، وها نحن ذا نتوقف لحظة يتجه فيهـا تفكيرنا نحو قصائد أملاهـا الحب الطاهر السليم على الشاب عبد الرحمن المستظهر ووزيره ابن حزم ، فقد عبقت أشعارهما بعطر الشباب وامتازت بالبساطة والرقة ، فهى تدخل على النفس بلا استئذان ٠

لذلك يطيب لنا أن ننصت الى هذه الأنغام العذبة الصافية وسط تلك الفوضى الشاملة ، ونستمع الى ترجيع البلبل وسط العاصفة الهادرة ٠

كان عبد الرحمن لا يزال فى ميعة صباه حين شغف حبا بحبيبة ابنة عمه سليمان الخليفة لكنـه لم يوفق فى هواه ، فقد عارضت أمها زواجه بها ، وأفهمته الفارق بين مكانتيهما ، فنظم اذاك تلك الأبيات التى سرت فيها روح الأنفة المجروحة جنبا الى جنب مع الوله العميق (١) :

وجالبة عـــذر التصرف رغبتى ... وتأبى المعالى أن تجيز لها عذرا
يكلفهـا الأهلـــون ردء جهالة ... وهل حسن بالشمس أن نمنع البدرا؟
ومـاذا على أم الحبيبـــة اذ رأت ... جلالة قدرى أن أكون لها صهرا ؟
جعلت لها شرطا على تعبدى ... وسقت اليها فى الهوى مهجتى مهرا
تعلقتهـــا من عبد شمس غريرة ... مخدرة من صيد آبائهـــا غـــرا
حمـــامة عش العبشميين رفـرفت ... فطرت اليها من سراتهمو صقرا
لقد طال صوم الحب عنك فما الذى ... يضرك منه أن تكونى له فطرا

واني لأستشفي بمرى بداركم | هدوءا ، وأستسقى لساكنها القطرا
وألصق أحشائي ببرد ترابها | لأطفيء من نار الأسى بكمو جمرا
فان تصرفيني يا ابنة العم تصرفي | — وعيشك — كفا مد رغبته سترا
واني لأرجو أن أطوق مفخري | بملكي لها وهي التي عظمت فخرا
واني لطعان اذا الخيل أقبلت | جرائدها ، حتى ترى جونها شقرا
واني لأولى الناس من قومها بها | وأنبههم ذكرا ، وأرفعهم قدرا
وعندي ما يصبي الحليمة ثيبا | وينسى الفتاة الخود عذرتها البكرا
جمال ، وآداب ، وخلق موطأ | ولفظ اذا ماشئت أسمعك السحرا

ونحن نجهل كل شيء عن مشاعر حبيبته ، ولم يسعفنا الكتاب العرب بشيء عن هذه الناحية ، ولم يتركوا لنا سوى صورة غامضة عن هذه المسألة الرقيقة التي شاء الخيال أن يلون جوانبها ، ومع ذلك فيظهر أنها لم تكن تنكر حب الأمير عبد الرحمن · فقد حدث أن صادفته ذات يوم فخفضت عينيها أمام نظراته الملتهبة ، واحمرت وجنتاها خجلا ، وأنساها اضطرابها أن ترد عليه سلامه ، فأساء عبد الرحمن تفسير هذا الموقف وعزاه الى جفائها اياه وانصرافها عنه ، ولم يكن ما جرى الا حياء وعفة ، وحينذاك أنشد :

سلام على من لم يجد بكلامه | ولم يرني أهلا لرد سلامه
سلام على الرامي الذي كلما رمى | أصاب فؤادي عامدا بسهامه
بنفسي حبيب لم يجد لمحبه | بطيف خيال زائر في منامه
ألم تعلمي يا عذبة الاسم انني | فتى فيك مخلوع عذار لجامه ؟
واني وفي حافظ لأزمتي | اذا لم يقم غيري بحفظ زمامه

وليس ثم دليل على أن عبد الرحمن وفق في الاتصال بحبيبته ، والواقع أن سوء التوفيق لازمه في حكمه ، وان كانت هناك فاتنة غيرها عطفت عليه وان لم تبر بوعدها له ، مما تشهد به الأبيات التي وجهها اليها وفيها يقول :

طال عمر الليل عندي | منذ تولعت بصدي
يا غزالا نقض السود | ولم يوف بعهدي
أنسيت العهد اذ بتنا | على مفرش ورد ؟

واجتمعنـا في وشــاح	وانتظمنـا نظم عقـد
وتعانقنـــا كغصــنين	وقدانـــا كقـــد
ونجـــوم الليـــل تحكي	ذهبـــا في لازورد (٢)

وكان لعبد الرحمن صديق يشبهه كل الشبه استحجبه لنفسه ، ذلك هو علي بن حزم الذى سكن أجداده كورة لبلة وأقاموا على نصرانيتهم حتى جاء جد أبيه حزم فاعتنق الاسلام ، ودفعه خجله من أصله لمحاولة محو كل أثر له ، فأنكر أسـلافه ، وكذلك فعل أبوه أحمد الذى تولى الوزارة أيام العامريين اذ دعى أنه مولى فارسى أطلقه يزيد أخو معاوية بن أبى سفيان (٣) .كما كان شديد الاحتقار لدين أجداده ، يستدل على ذلك مما جاء فى أحد فصوله عن الأديان (٤) من أن النصارى يقولون بثلاثة ويقولون بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، أحد هم الآب ، والثانى الابن والثالث الروح القدس ، وأن الأب هو الابن وانه ليس بالابن وأن الناسـوت هو الله وليس بالله ، وأن المسـيح هو الله . ومن فرقهم اليعقوبية وهم مئات الألوف عدا ، ويقولون ان الله الخالق مات وصلب وقتل ، وأن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر ثم قام من بين الموتى ورجع » .

لم تكن هذه التهكمات تهكمات رجل شاك بل مسلم شديد التمسك بدينه ، وكان ابن حزم من جماعة الظاهرية التى تتقيد كل التقيد بالنصوص وتعنى بتدخل العقل البشرى فى مشكلات القانون الفقهى كمسألة وجود الشـــر (٥) .

أما فى السياسة فقد كان ابن حزم من أنصار الأسرة الشرعية التى أصبح مولى لها بالنظر الى أصله المزعوم ، ولم يكن للأمويين مولى أشد منه اخلاصا لهم وتعلقا بهم وغيرة عليهم ، ولما اعتلى على بن حمود العرش واستسلم له خيران كبير الصقالبة أدرك ابن حزم أن مستقبله قد ضاع لغير رجعة ، لكنه كان من الفئة القليلة التى لم يطر قلبها شعاعا ، فدأب على تدبير المؤامرات والدسائس رغم ما يحوطه من الأعداء والجواسيس لأنه كان يعتقد ـ شأن كل متحمس أن التريث هو عين الجبن ، ولما وقف خيران على مكائده ألقاه فى السجن بضعة أشهر ليرجع عن حماسته التى لم يعد ما يبررها ثم عاد فنفاه ، فاستعاذ ابن حزم بحاكم حصن القصر القريب من اشبيلية ، وبقى هناك حتى ورد الخبر باختيار عبد الرحمن الرابع خليفة فى بلنسية ، وحينذاك أبحر ليكون فى خدمته واستبسل فى حربه فى الوقعة التى غدر فيها أصحاب المرتضى به ، واذ ذاك وقع فى يد البربر الغالبين وظل فى أسرهم ردحا طويلا من الزمن (٦) .

وأخيرا جاء الوقت الذى عرف الناس فيه قدر ابن حزم حتى عد أعظم علماء عصره وأخصب الكتاب الذين أخرجتهم اسبانيا منذ زمن بعيد • أما فى اللحظة التى نتكلم عنها فلم يكن الناس يعدونه الا شاعرا أو أحد لهاميم الشعراء الذين أنجبتهم بلاد الأندلس العربية ، ومع ذلك فقد كان لا يزال فى ريق الشباب ونضـــارة الحيـــاة ، اذ لم يكن يكبر الشاب عبد الرحمن الا بثمانية أعوام ، وكانت لابن حزم هو الآخر قصة غرامه أيضا وهى قصة ساذجة رواها هو نفسه في صدق وصراحة ولفظ مستساغ لا تستطيع حياله الا أن ننقلها بنصها حيث يقول : (٧) •

« ألفت فى أيام صباى جارية نشأت فى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما ، وكانت غاية فى حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، قليلة الكلام ، لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، وجهها جالب كل القلوب وحالها طارد من أمها ، تزدان فى المنع والبخل ، مالا يزدان غيرها بالســـماحة والبذل ، موقوفة على الجد فى أمرها غير راغبة فى اللهو ، على أنها كانت تحسن العود احسانا جيدا •

« أحببتها حبا مفرطا ، وسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبنى بكلمة وأسمع من فيها لفظةً غير ما يقع فى الحديث الظاهر الى كل سامع فما وصلت من ذلك الى شيء البتة ، فلعهدى بمصطنع كان فى دارنا لبعض ما يصطنع له فى دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخى من النساء ونساء فتياتنا ، ومن لاث بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبثن صدرا من النهار ، ثم تنقلن الى قصبة كانت فى دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن ، فانى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه أنسا بقربها ، متعرضا للدنو منها ، فما هو الا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره فى لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد الى الباب الذى صارت اليه ، فتعود الى مثل ذلك الفعل من الزوال الى غيره ، وكانت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه لانهن كن عددا كثيرا ، واذ كلهن يتنقلن من باب الى باب بسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها . وأعلم أن قيافة النساء فيمن يميل اليهن أنفذ من قيافة مدلج الآثار ، ثم نزلن الى البستان ، فرغب عجائزنا وكرائمنا الى سيدتها فى سماع غنائها فأمرتها ، فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهــد لى بمثله ، وان الشيء يتضاعف حسنه فى عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس الأحنف حيث يقول :

انى طربت الى شمس اذا غربت ... كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة فى خلق جارية ... كأن أعطافها طى الطوامير
ليست من الانس الا فى مناسبة ... ولا من الجن الا فى التصاوير
فالوجه جوهرة ، والجسم عبعرة ... والريح عنبرة ، والكل من نور
كأنها حين تخطو فى مجاسدها ... تخطو على البيض أو حد القوارير

فلعمرى لكأن المضراب انما يقع على قلبى ، وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه الى يوم مفارقتى الدنيا ، وهذا آكثر ما وصلت اليه من التمكن من رؤيتها وسماع ملامها ، وفى ذلك أقول :

لا تلمها على النفار مع الوصـ ... ـل ، فما ذاكمو لها بنكير
هل يكون الهلال غير بعيد ... أو يكون الغزال غير نفور ؟

وقلت أيضا :

منعت جمال وجهلك مقلتيا ... ولفظك قد ضننت به عليا
أراك نذرت للرحمن صوما ... فلست تكلمين اليوم حيا
وقد غنيت للعباس شعرا ... هنيا ذا ، لعباس هنيا
فلو يلقاك عباس لأضحى ... لفوز قاليا وبكم شجيا

« ثم انتقل الوزير أبى من دورنا المحدثة بالجانب الشرقى من قرطبة فى ربض الزاهرة الى دورنا القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيث فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدى بالخلافة ، وانتقلت أنا بانتقاله ولم تنتقل هى بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك .

« ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب الدولة ، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والاغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا ، الى أن توفى أبى الوزير رحمه الله ونحن فى هذه الحال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة (٨) عام اثنين وأربعمائة ، واتصلت بنا تلك الحال من الفتنة بعده الى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها وقد ارتفعت الناعية فى المأتم وسط النساء فى جملة البواكى والنوادب ، فلقد أثارت وجدا دفينا ، وحركت ساكنا ، على أنى كنت فى ذلك اليوم مرزأ مصابا من وجوه وما أنت نسيت ، ولكن زاد الشجا وتوقدت اللوعة وتأكد الحزن ،

وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامنا ، فلباه مجيبا فقلت :

يبـــكى لميت مات وهو مكـــــرم   وللحى أولى بالدموع الذوارف
فيا عجبا من آســـف لامرىء ثوى   وما هو للمقتول ظلمـا بآســـف

ثم ضرب الدهر ضرباته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر ، فخرجت عن قرطبة أول المحرم (٩) سنة أربع وأربعمائة ، وغابت عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام أو أكثر ، ثم دخلت قرطبة فى شوال (١٠) سنة تسع وأربعمائة ، فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك ، وما كدت أميزها حتي قيل لى هذه « فلانة » ، وقد تغير أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاص ذلك الماء الذى كان يرى كالسيف الصقيل ، والمرآة الهندية ، وذبل ذلك النوار الذى كان البصر يقصـــد نحـــوه مبهـــورا ، ويرتاد فيـــه متخـــيرا . وينصرف عنـــه متحـــيرا ، فلـم يبـق الا البعض المنبىء عن الـكل ، والخبـر المخبـر عـن الجميـــع ، وذلك لقـلة اهتبالهـــا لنفسهـا ، وعـــدم الصيانة التى كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا ، ولتبدلها فى الخروج فيما لابد لها منه ، مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك وانما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت ، لذلك قال من قال : (ان حسن الرجال أصدق صدقا ، وأثبت أصلا ، وأعتق جودة لصبره على ما لو لقى بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكن ، وانى لو نلت منها أقل وصل ، وأنست لى بعض الانس لخولطت طربا ، أو لمت فرحا ، ولكن هذا النفار الذى صبرنى وسلانى ، وهذا الوجه من أسباب السلو : صاحبه فى كلا الحالين معذور اذ لم يقع تثبت يوجد الوفاء ، ولا عهد يقتضى المحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه :

هواك فلست أقربه غرور   وأنت لكل ما يأتى سرير » (١١)

* * *

لا مشاحة فى أنه من اليسير على المرء أن يتبين فى هذه القصـــة السالفة نفحة الاحساس الرقيق النادر بين الجماعات التى تؤثر فى العادة وصف المحاسن التى تجذب الشخص والعيون التى تسببه ، والبسمة التى تغريه .

ولا شك أن الحب الذى يتصـــوره ابن حزم انما تمتزج به الفتنة المـادية ، وهو حب يعبق بالهـوى العف والأناقة المستحبة والتقدير والحماسة . ولعل ما يدفع المرء الى الاعجاب به هو ذلك الجمال الهادىء

والتواضع ، لكن يجب ألا ننسى أيضا أن هذا الشاعر الشديد العفاف الذى أجرؤ على القول بأنه كان نصرانيا بين شعراء المسلمين لم يكن عربيا خالصا فهو حفيد أسبانى مسيحى ، لذلك لم تعتد تفكير الجنس الذى خرج منه ولا شعوره ، وعبثا ما كان يحاوله أولئك الاسبان المستعربون من محاولة انكار أصولهم ، وسخريتهم بأسلافهم النصارى ، فقد كان فى قلب أولئك الاسبان على الدوام شىء خالص من الرقة والروحانية .

الفصل الثامن عشر

تقديم عبد الرحمن صغار الخاصة • مكائد ابن عمران ـ تحريضه العامة وهجومهم على قصر عبد الرحمن • ثورتهم على البربر ، استخلاف محمد المستكفى بن عبد الرحمن • سوء معاملته للرجال • الثورة فى قرطبة • هروب المستكفى متخفيا وقتله بالسم • عرض الخلافة على يحيى بن حمود وتوقفه فى قبولها • القرطبيون يختارون هشاما ويبايعونه• ضعف شخصيته • استجابة الحكم بن سعيد الحائك • قيامه بفرض ضرائب جديدة واستعماله القسوة فى جمعها • تقريبه ابن عبد الجبار المعتدى على أوقاف المساجد • تذمر العامة والأشراف • مصرع الحكم بن سعيد وخلع هشام •

الفصل الثامن عشر

اضطراب الأمور الداخلية

لم تكد تنقضى سبعة أسابيع منذ وقع اختيار القرطبيين على عبد الرحمن [بن هشام بن عبد الجبار] ومنذ أن استحجب هذا ابن حزم حتى مات عبد الرحمن فودع الثانى السياسة واللذائذ الدنيوية الى غير رجعة ، وراح ينشد السلوى ونسيان الماضى فى العكوف على القراءة والعزلة والانهماك فى الصلاة ، ولعل تجهم الأيام وما صادفه البعض من النفى قد أدى منذ زمن بهم الى معرفة الرجال معرفة تامة وفهمهم والحكم على الحوادث ، غير أن الخطر كان محدقا بالقوم ، ذلك أن عبد الرحمن لم يقدم الا صغار الخاصة ولم يتخذ من المشيرين سوى ابن حزم وابن عمه عبد الوهاب بن حزم وأبى عامر بن شهيد ، ورغم ما كان عليه هؤلاء من الكفاءة والتبريز الا أن حرية أفكارهم جعلتهم يصطدمون بالجامدين ، أما من يكبرونهم فى السن من الخاصة فكانوا أميل الى انتخاب منافسه سليمان الذى استبعدته العامة ، واذ ذاك أخذ هؤلاء الأشراف فى تدبير المكائد جهرا لصالح سليمان حتى لقد وجد عبد الرحمن نفسه أخيرا مضطرا للقبض عليهم ، وأيده العقلاء فى عمله هذا لأنهم أدركوا ألا محيص له عن تلك الخطوة التى أقدم عليها وان تكن قد أغضبت منه جماعة الأشراف ، كما جعل السلطان نفسه هدفا للوم لابقائه منافسيه الاثنين رهن الحبس ، اذ أنه رغم معاملته اللطيفة لهما الا أنه حرم عليهما مغادرة القصر ، أضف الى ذلك أنه لما كانت الثورات والفتن قد عطلت معظم الأعمال العامة فقد نجم عن ذلك أن تخلف جمهور كبير من العمال العاطلين الذين أصبحوا على أتم أهبة للعمل بمعاولهم فى تقويض دعائم ذلك المجتمع القديم ، ومما زاد الطين بلة أن تمكنت هذه الجماعة الهدامة من أن تجد لها رئيسا من الأمويين اسمه محمد وهو الذى كان يؤمل أن يقع عليه الاختيار لحظة أن اجتمع القوم لانتخاب الخليفة ، غير أن الكل تجاهلوه وأنكروه فلم يجر اسمه على لسان أحد منهم ، ولا عجب فى ذلك فقد كان محمد هذا رجلا قدما لم يصب حظا من الفهم أو التعليم وانما همه ملؤ بطنه وارضاء حواسه ، لكنه كان

فى عينى نفسه شيئا غير ذلك ، حتى لقد تسخط حنقا حين علم بانصراف القوم عن اختياره ، وأنهم صرفوا العرش الى شاب حدث ، وحينذاك استغل تأثيره على العمال الذين عدوا غلظته صراحة منه ، واتصل بهم اتصالا وثيقا ، فكان أدنى خواصه حائكا اسمه أحمد بن خالد الذى تمكن محمد بفضل معونته اياه من اغراء الصناع على النهب والتخريب ، وهيأهم جميعا لثورة بائرة .

لم يتوقع القوم فى بادىء الأمر أى خطر من تعصب العامة ولم يظنوا أن ينال رذاذ هذا الغضب الأشراف المحبوسين طالما هناك متنافسون كثيرون ولكل منهم أتباعه ، غير أنه لما مات سليمان اتحد الأشراف والعامة وكان الوسيط بين الطرفين رجل منهم اسمه ابن عمران الذى كان اطلاق سراحه على يد عبد الرحمن الخامس [المستظهر] طيبة منه وغفلة ، هذا على الرغم من معارضة أحد أصدقائه له فى ذلك بقوله له : « ان مشى ابن عمران فى غير سجنك باعا بتر من عمرك عاما » .

والواقع أن ابن عمران كان رجلا شديد الخطورة حاول استمالة زعماء الحرس الى جانبه ، ولم يجد أدنى عسر فى هذا السبيل ، فكره « الدائرة » (١) الخليفتية ذلك أنه كان قد حدث قبل ذلك بيومين من هذا الحادث أن جاءت الى قرطبة كتيبة من البربر قصد العمل تحت امرة الخليفة الذى قبلها عن طيب خاطر لما أحسه من الخطر المحدق به ولحاجته الى الجند فأثار ذلك غيرة « الدائرة » الذين هاجمهم ابن عمران فتوجهوا الى الشعب قائلين : « نحن الذين قهرنا البرابرة وطردناهم عن قرطبة ، وهذا الرجل يسعى فى ردهم الينا وتمكينهم من نواصينا » .

★ ★ ★

كان الجمهور المتلهف على الثورة فى انتظار الاشارة ، فلم يكن من العسير حمله على الاستجابة الى هذه التحريضات ولم يلبث الرجالة أن اقتحموا قصر عبد الرحمن على حين غفلة من صاحبه ومن فيه واستنقذوا الأشراف المحبوسين داخله ، وسرعان ما أدرك الحاكم المنكود ميل الجمهور الى الفتك به فسأل وزراءه المشورة — وكانوا هم أشد حرصا على حياتهم — فراحوا يتدبرون المسألة فيما بينهم ، واذ ذاك طمأنهم الحراس على أنفسهم ان هم تخلوا عن عبد الرحمن وانفضوا من حوله ، وحينذاك تغلبت الأنانية على معظمهم فتسللوا عن خليفتهم وانصرفوا عنه واحد أثر آخر ، الا أنهم سرعان ما أدركوا الا قيمة لعهود الحراس الذين فتكوا بالكثيرين منهم حين هموا بمغادرة القصر من باب الحمام ، وكان من بين القتلى متقلد (٢) المدينة .

امتطى عبد الرحمن جواده وطمع فى أن يتمكن من مغادرة القصر من نفس الباب فمنعته الدائرة بتسديد أطراف رماحهم اليه وانهالوا عليه سبا فارتد على عقبيه وترجل عن فرسه ودخل الحمام وتجرد من ملابسه كلها الا من قميصه واستخفى فى موقد الحمام ٠

فى هذه الأثناء كان العامة والدائرة يتصيدون البربر المنكودين كأنهم الوحوش الشاردة ويقتلونهم أنى ثقفوهم سواء آكانوا فى القصر أم فى الحمام أم فى المسجد ، وتقاسم الحراس حريم عبد الرحمن وحملوهن الى بيوتهم ٠

بذلك انتصر محمد [بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر] ونودى به خليفة فى الحجرة التى كان الخليفة المخلوع مختفيا بها ، ثم اتجه [محمد] نحو « دار الملك » وجلس على السرير وحوله الدائرة والعامة ، غير أن مركزه كان لا يزال مهددا بالخطر طالما كان خصمه على قيد الحياة ، لذلك أمر أن يبحث عنه فى كل ناحية ، حتى اذا عثروا عليه جاؤه به فقتله بيده (٣) يوم ١٨ يناير ١٠٢٤ م ٠

لقب محمد بالمستكفى وحاول التقرب الى العامة بتوزيع المال وخلع الألقاب على كل طامع فيها ، غير أن سخط الطبقة الوسطى وجماعة الأشراف على محمد بلغ غايته حينما عهد بالحجابة الى صديقه الحائك ، ولذلك لم يقدر لعهده أن يدوم طويلا ، فقد أساء الولاية كما هو مفروض فيه ، ولما كان يعرف أن هناك جماعة تعمل للكيد له والتآمر عليه فقد زج فى السجن بالكثير من أعضاء أسرته وأمر بخنق أحدهم (٤) مما أدى الى تسعر نيران السخط عليه بقرطبة ، كما ألقى القبض على كبار رجال دولة الخليفة السابق كابن حزم ، فخاف أبو عامر بن شهيد وكثيرون معه أن يلقوا ما لقيه صاحبهم ابن حزم فغادروا العاصمة ويمموا وجوههم شطر مالقة حيث ذهبوا الى أميرها يحيى بن حمود وهونوا عليه القيام بعمل يقضى على الفوضى الضاربة بأجرانها على قرطبة (٥) ، غير أن محاولاتهم فى هذا السبيل لم تبق طى الكتمان فقد ذاع القول فى قرطبة بأن يحيى يتأهب للنهوض لمهاجمة المدينة ومن ثم نشبت الفتنة بها فى شهر مايو (٦) سنة ١٠٢٥ م ، وفتك الناس بالوزير الحائك ، واستبد الغضب بالشعب فلم يكف عن ضربه حتى بردت أوصاله ٠

ثم مضت العامة الى قصر محمد المستكفى فأضرمت به النيران ، وحينذاك جاءه الحرس الخليفى وقالوا له : « قد اضطررنا الى مكافحة عدونا (٧) ونحن خارجون اليه ولا تدرى ما يحدث عليك بعدنا » ٠ فلما

رأى محمد أن زمام الأمور قد أفلت من يده الى غير رجعة لم يجد مناصا من التلطف في الرد عليهم والانقياد لهم ثم غادر القصر والمدينة ولبس ثياب ذوات الحجال وخرج متنقبا بين امرأتين ، ثم راح ينشد ملجأ له في قرية صغيرة من قرى (٨) الثغر ، ولم يلبث أن مات مسموما بيد أحد جنده (٩) ٠

بقيت قرطبة ستة أشهر بلا حاكم يدبر أمورها ، وقام مجلس الملك بادارة حكومتها على خير وجه ، الا أنه ما كان لمثل هذا الوضع أن يدوم طويلا ، بل كان لابد من يوم تؤول فيه الحكومة الى خليفة ما ، لكن لم يكن هذا اليوم قد حان موعده بعد ٠

ومع أن العهد القديم كان قد زال الا أنه كان لابد للعهد الجديد من أن يواجه أدوارا من المحن ، وكانت هناك جماعة من ذوى التفكير الصائب رأت أن الملوكية لا تزال الصورة الوحيدة التي يمكن أن تكون عليها الحكومة لاقرار النظام ، لكنهم كانوا في حيرة لمن يسوقون هذه الملوكية ، وهل تبقى للأمويين ؟

واذن فليحاولوا ما أرادوا ٠

★ ★ ★

واختار القوم خير أمير من أمراء البيت الأموى حين ساقوا العرش الى عبد الرحمن الخامس الا أنهم أخفقوا في هذه المحاولة ٠

كان اقرار النظام وارضاء الشعب المضطرب الثائر المستعد في كل لحظة للتمرد والسلب والنهب يقتضى اختيار أمير تكون تحت امرته قوات أجنبية مما لا يتوفر للأمويين ، ومن ثم أشار البعض أن يساق العرش الى يحيى بن حمود الذى لم يكن مكروها من الجماعة كل الكراهية ، ويخيل الينا أن الأخذ بهذه الفكرة لا يرجع الى ذوى المقاصد السيئة كما يذهب الى ذلك أحد المؤرخين العرب (١٠) ، بل نادى بها شيعة النظام الذين رأوا ألا سبيل للتفاهم سواها ، فأخذوا حينذاك في مفاوضة يحيى وكان مقيما بمالقة ، ولم يظهر يحيى لهفة في قبول ما عرضه عليه أهل قرطبة بل أبدى عدم الاكتراث ، ذلك أن حذره من تقلب القوم الدائم ومعرفته أنه لم يكن أمامهم من أحد يسألونه هذا السؤال سواه دفعاه للاقامة حيث هو ، واكتفى بأن يرسل الى قرطبة أحد (١١) القواد المغاربة على رأس بعض القوات ، وكان ذلك في نوفمبر (١٢) ١٠٢٥ م ٠

برهنت الأحداث على صدق ما رآه يحيى اذ سرعان ما تأفف سكان العاصمة من الاحتلال المغربي لهم واستمعوا بآذان واعية الى ما يقوله لهم كبيرا صقالبة الشرق : خيران صاحب المرية ومجاهد أمير دانية، وقال هؤلاء الرسل

ان موليهما على استعداد لمد يد المعونة اليهم اذا كانوا يرغبون في التحرر ، ولم تذهب هذه العهود بددا ، ففي شهر (١٣) مايو سنة ١٠٢٦ م جهز الأميران رجالهما وزحفا على العاصمة في عسكر غفير ، واذ ذاك قام أهل قرطبة بالثورة وخلعوا الحاكم الذى فرضه يحيى عليهم بعد أن قتلوا العدد الكبير من جنده ، حتى اذا فرغوا من ذلك فتحوا أبوابهم لخيران ومجاهد فدخلاها ، لكنهما ما لبثا أن تنازعا الأمر فيما بينهما حين أخذا يتشاوران في اقامة الحكومة،وخاف خيران أن يغدر حليفه به فأسرع بالعودة الى المرية (١٤) يوم ١٢ يونيو ١٠٢٦ م ، وبقى مجاهد فترة من الوقت بالعاصمة الا أنه غادرها هو الآخر دون أن يعيد اليها السلطنة التى صمم رجال مجلس المشورة على ارجاعها عقب خروجه من بينهم ، وهكذا كانت أمامهم تجربة محزنة أدركوا منها أنهم كانوا مقدمين على المستحيل •

ذلك أن المجيء بأمير أموى الى العرش من غير أن تكون تحت امرته قوات أجنبية ووضعه بين طائفتين لا يمكن التوفيق بينهما معناه الحكم عليه مقدما بالهلاك اما عن طريق ثورة شعبية أو مؤامرة يدبرها ضده الوطنيون من أهل البلد • ومعنى ذلك أن ارجاع الأمويين الى العرش ـ لاقامة حكومة ثابتة الدعائم ـ كان محاولة فاشلة ، لكنها كانت في نظر رجال الساعة المسئولين الوسيلة الوحيدة التى لابد لهم منها •

كان أبو الحزم بن جهور ـ أبرز أعضاء مجلس الحكم ـ أشد الناس أخذا بهذه الفكرة وترويجا لها ، ومن ثم شرع في مشاورة ولاة الثغور من أنصار الحزب الأموى والصقالبة ، وان لم يكن ثم ما يربط بينهم أجمعين سوى كراهيتهم الشديدة للبربر •

تشاور القوم وقلبوا الموضوع طويلا فيما بينهم وانتهى الأمر ببعض هؤلاء السادة الى الموافقة على ذلك المشروع لاعتقادهم الجازم بخروج أزمة الأمور من أيديهم ، واقترح بعضهم أن يسوقوا العرش الى هشام أكبر اخوة عبد الرحمن المرتضى وكان ينزل اذ ذاك « ألبونت » التى كان قد فر اليها معتصما بها بعد مصرع أخيه •

ومنذ شهر أبريل (١٥) ١٠٢٧ م أخذ سكان قرطبة في مبايعته ، غير أنه انقضت قرابة ثلاث سنوات قبل أن تذلل من أمامه جميع العقبات ، وفي خلال هذه الفترة كان هشام الثالث الملقب بالمعتد (١٦) الذى دأب على التنقل من بلد الى آخر لمعارضة كثير من الزعماء للفكرة التى أخذ بها أهل قرطبة (١٧) الذين علموا بما هو جار ، وسرعان ما التأم شمل أعضاء « دارة الملك » للاتفاق على الاستعدادات اللازم اتخاذها لاستقبال الأمير

أروع استقبال ، غير أنه تناهى اليهم الخبر (١٨) يوم ١٨ ديسمبر ١٠٢٩م بأن هشاما قد دخل المدينة قبل أن يعدوا العدة لاستقباله ، واذ ذاك خف الجند للقائه وتعالت صيحات الفرح فى جميع أرجاء البلد واحتشدت العامة فى جميع الشوارع التى سيسير فيها الأمير وتوقعوا عرضا ملوكيا رائعا ، غير أن القوم أخفقوا فيما أملوه فقد أقبل هشام على فرس دون مركب الملوك مختصر الحلية ، ودخل فى زى تتقحمه العين وتستنكره ، وعليه كسوة رثة لا تتفق أبدا ومرتبة الخلافة مما لا يحرك النفوس ، ومع ذلك فقد راح الناس يهنئونه ويصيحون بالدعاء فى وجهه طامعين أن تكون دولة الفوضى قد دالت ، وممنين أنفسهم بحكومة عادلة حازمة .

كان هشام الثالث أضعف من أن يحقق الآمال المعقودة عليه ، ذلك أنه رغم طيبته وسماحته الا أنه كان فى الوقت ذاته ضعيفا مترددا كسولا ، لا يعنيه غير ملء بطنه ، وقد تبين للأشراف غداة مقدمه عدم توفيقهم فى اختيارهم اياه ، وعقد فى دارة الملك اجتماع كبير قدم فيه جميع الموظفين الى الخليفة الذى لم يألف هذه الاجتماعات ولا تلك الخطب ، فلم يفتح عليه بغير كلمات قلائل حتى لقد أناب فى الكلام عنه أحد الوزراء ، أما هو فقد ارتج عليه ولم يفه بكلمة يطيب بها خاطر الشعراء الذين كانوا ينشدون بين يديه ما أعدوه من قصائد بمناسبة اعتلائه العرش ، بل لقد ظهر عليه أنه لم يفهم شيئا مما كانوا ينشدونه .

هكذا بدت فاتحة عهد الخليفة كل أمل فيه لاسيما حين استحجب بعد قليل الحكم بن سعيد (اقزاز) الذى كان للموالى العامرين الا أنه كان يحترف فى بادىء الأمر الحياكة بالعاصمة حيث تعرف بهشام ، ذلك لأن الأمراء الأمويين كانوا كثيرى الاختلاط بطبقات المجتمع الدنيا ينشدون منها المعونة ، فلما دبت الفتن انخرط الحكم كجندى وسرعان ما رفعته شجاعته وكفاءته الحربية واكتسب تقدير أصحاب الثغور الذين خدم تحت امرتهم ، فلما بويع هشام بالخلافة راح الحكم يفتش عنه وذكره بصداقته القديمة له وعرف من أين تؤكل الكتف ، ولم يلبث أن سيطر عليه ، فلما صار حاجبه بذل غاية همه لجعل مائدة مولاه مملوءة على الدوام بأطيب الطعام وألذ الشراب ، وأحاطه بالجوارى والمغنيات والراقصات ، ومجمل القول انه حاول أن يجعل مولاه يتقلب فى أعطاف البلهنية ، ولم يكن هشام الغبي يهمه سوى هذا ، بل لقد أرضاه كل الرضى أن يتخلص من عبء معالجة الأمور التى تزعجه ، وقرت نفسه أن يكل للحكم بن سعيد تدبير شئون الحكم .

وجد الحكم خزينة الدولة خاوية ، ورأى أن سد النفقات يتطلب منه توفير دخل أكبر وأعظم مما يأذن له به الشرع ، فكيف يتأتى له تحقيق هذا المطلب .

كان لابد من فرض ضرائب جديدة ، غير أن ذلك العمل لابد وأن يؤدى الى ضياع مكانته عند الشعب لذلك اضطر الوزير الى اصطناع الحيل المختلفة ، وهى وان تكن بعيدة عن الشرف الا أن الحاجة فى الواقع هى التى حملته عليها فصادر كل ثمين اكتشف أن أبناء المظفر قد عهدوا به الى أصدقائهم ، وأرغم كبار التجار على شراء ذلك كله بالثمن الباهظ ، كما ألزمهم بشراء الرصاص والحديد المتخلف من القصور الملوكية التى دكت أثناء الفتنة ، ومع ذلك فان هذه الأموال المأخوذة بتلك الطريقة لم تقف بسد الحاجة ، فاتصل بفقيه مرذول هو ابن عبد الجبار الذى دل الخليفة عليا [بن حمود] من قبل على كل ما يملأ الخزينة وان يكن ذلك بطرق مرذولة .

لم يعدم ابن الجبار فى تلك المرة الوسيلة لتقديم مبالغ طائلة من وقف المساجد الى الحكم بن سعيد ، ولم يبق خبر هذا العمل سرا مكتوما فقد أرجف به أهـــل قرطبة لاسيما الفقهاء ، وكانت رواتب الفقهاء من أعضاء المحكمة قد زادت قبل ذلك فلم يرفضوا تلك الزيادة رغم يقينهم بأنها جاءت من طلايق الضرائب غير الشرعية ، لذلك كان من الطبيعى أن يحنق الحكم على الفقهاء ، ومن ثم كان رده عليهم ردا قاسى اللهجة وضعه أبو عامر بن شهيد وتلاه علانية فى القصر أولا ثم فى الجامع ثانية فى يونيو (١٩) سنة ١٠٣٠ م ، فاغتم الفقهاء أشد الغمة وحاولوا تحريك الشعب ودفعه لمشاطرتهم غضبهم ، لكنهم أخفقوا فى محاولتهم هذه اذ الظـاهر أن الجمهور لم ير فى ذلك العمل ما يدعـوه للتبرم والسخط وضاعفت الحكومة من جانبها نقمتها فقتلن وزيرا الى احدى المؤامرات ، وحثها ابن شهيد على اطاحة الرؤوس الكبيرة كما قال فى قصيدة له رفعها الى الخليفة ، وفيها ينصحه ألا يلقى سمعا الى أصحاب المطامع هؤلاء وأن يترك للسانه تأديبهم والنيل منهم .

ربما كان الأمر سهلا هينا على الحكم بن سعيد الحائك أنه لم يكن هناك من يعارضه سوى الفقهاء الذين كانوا اذ ذاك أهون من أن يبلبلوا خاطره ويشغلوا باله ، لكنه كان يواجه أعداء أشد خطرا وأقوى شكيمة وأعنى بهم أولئك الأشراف الذين ناصـبه معظمهم العداء ، فقد كانت وضاعة نشأته قذى فى عيونهم لا يزول ، فلم ينظروا اليه كجندى سما به جده ، علت به كفاءته ، بل نظروا اليه على أنه حائك وضيع لا يفرقونه

أبدا عن وزير محمد الثانى عى الرغم من الفارق الكبير بين الوزيرين ، اذ كان أحدهما صانعا أما الآخر فقد قضى الشطر الأكبر من حياته فى المعسكرات وفى حاشية أمراء الثغور ، ولما كانوا قوما لا يأبهون بالأساليب التى تتخذ لملء الخزينة فقد كان من اليسير عليهم غض النظر عما قد يعمد اليه أحـد رجال طبقتهم من الوسـائل المالية التى اضطر الوزير [القزاز] اليها ، ولكن وضاعة نبعته دفعتهم للتشهير به عند العامة التى استغلوها لتشاطرهم حقدهم الذى حملتهم عليه منفعتهم الخاصة ٠

لم يغضب الحكم فى بادىء الأمر منهم ، لذلك لم يحرمهم نصيبهم من المسـاهمة فى الحكم بدليل معاطاته ابن شـهيد وده واتخاذه اياه موضع ثقته ، لكنـه لما رأى أنهم لم يجيبوا نداءه الا بالازدراء والاحتقار وأنه لا يحركهم سوى سوء الطوية والكراهية والعداوة فقد تسعر غضبا وراح ينشر موظفيه بين الرعاع ، وكان هؤلاء الذين استعملهم ممن استجابوا لدعوة الأشراف ، ولسنا فى حاجة لأن نقول ان الوزير لم يعهد بالوظائف الا الى « أغمار من ديدنهم حث الكاس ، وتنضيد الآس ، والتفكه بأعراض الناس ، فان ضج مظلوم سخروا منه » ٠

وكانوا يعدون الحكم بن سعيد متآمرا مسلوب القدرة ، وجنديا لكن تعوزه الشجاعة ، وفارسا تغلب عليه السذاجة ، وربما أعمتهم الكراهية عن حقيقته وان يكن الثابت المؤكد انهم عمدوا الى أدنأ الأساليب لاسقاط عدوهم ، ذلك انهم حاولوا أولا تحريك الناس للتمرد عليه قائلين لهم ان ركود التجارة الذى كان السبب الفعلى للنكبات العامة لايرجع الا الى فداحة الضرائب التى فرضها الوزير على معظم أنواع التجـارة ، وأتت هذه الأقوال أكلها ، فاتفق جماعة من الشعب مع الخاصة على مهاجمة بيت الوزير الذى أنهى اليه أحد معارفه الخبر قبل أن يقدم المتآمرون على انجاز ما اتفقوا عليه ، فغادر داره وأقام بقصر الخليفة ، وأسقط الضرائب التى يتذمر الناس منها ، وقرأ على الناس منشورا طويلا قال فيه انه لم يفرض تلك الضرائب الا لسد حاجات بيت المال المتزايدة ولكنه لن يعمد الى ذلك بعد الآن ، فركن الناس الى الهدوء ، واذ ذاك عمد الأشراف الى باب آخر يحققون به غرضهم ذلك انه لما كان الحكم قليل الثقة فى الجنود البلديين صنائع الخاصة فقد حاول تكوين بعض الفرق البربرية (٢٠) ، مما دفع الأندلسيين للتذمر ، وعمـد الأشراف الى عمـل ما يزيد تسعير السخط عليه ، فلما عرف ابن سعيد ما يدبرونه ضـده سلك السبيل الناجحة لابقاء الجند على الطاعة له بأن عاقب رؤوس الفتنة فأخر أعطيـاتهم ، واذ ذاك حاول الأشراف افساد ذات البين بينه وبين هشام فأخفقوا ،

لأن تأثير الحكم على السلطان الضعيف كان أشد من تأثيرهم هم عليه ، حتى حرم عليهم دخول القصر ، لم يستثن من ذلك سوى ابن جهور وحده — رئيس المشيخة — فقد احتفظ بشيء من السلطان على الخليفة الذى كان يعد نفسه رهين فضله اذ يدين له بالجلوس على العرش ، أو بلفظ آخر أنه كان مدينا له بالمكانة الجوفاء التى هو فيها ، لذلك فشلت جميع المحاولات التى بذلها الحكم لصرف ابن جهور عما بيده من الأعمال ، ومع ذلك لم يداخله اليأس بل دأب على ملاحقة الخليفة حتى تمكن فى النهاية من التغلب على تردده ، وشعر ابن جهور بما يدبر له ، ولعله أحس بضعف مركزه فقرر أن يبعد الوزير والخليفة معا ليكون الحكم للمشيخة وحدها ، ورحب زملاؤه بمشروعه هذا ٠

لكن كيف يتأتى لهم أن يجدو من يناصرهم فى هذا العمل ؟

هنا كانت المشكلة ٠

لقد كان فى المجلس كثيرون ممن لا يحجمون عن المساهمة فى خلع هشام الثالث عن العرش ، لكن يظهر أنه لم يكن هناك غير أعضاء المجلس ممن يفكرون فى استبدال الفوضى بالملوكية لأن القلوب والأذهان كانت لا تزال متعلقة بالخلافة ، لذلك رأى الأعضاء أن الحكمة تقتضيهم كتمان ما هم بسبيله ، وتظاهروا بأنهم يريدون ابدال هشام بخليفة غيره ، وأخذوا يفاوضون — على هذا الأساس — أحد أقارب الخليفة ويدعى أمية [بن عبد الرحمن العراقى] ، وكان شابا شديد التهور طماعا قليل التبصر ، وأفهمه الأعضاء أنه من اليسير عليه الاستحواذ على العرش اذا رضى أن يتزعم الفتنة ، فرحب الأمير الشاب بما عرضوه عليه دون أن يفكر فى انه لن يكون سوى آلة فى أيديهم يلقونها جانبا حين يتم لهم ما يريدون تحقيقه ، ولما كان أمية بن عبد الرحمن العراقى مبسوط الكف فقد سهل عليه أن يضم اليه الجند الذين حرمهم القزاز أعطياتهم ٠

وفى ديسمبر ١٠٣٠ م (محرم ٤٢٣ هـ) (٢١) كمن هؤلاء الرجال فى كمين نصبوه للحكم بن سعيد ثم وثبوا عليه وهو يغادر القصر وطرحوه أرضا وفتكوا به قبل أن يتمكن من تجريد سيفه ، ثم حزوا رقبته وغسلوها فى طشت سمك لأن الدم والوحل عفراها ورفعوها على رمح ، وحينذاك مضى أمية فقاد الجموع من العسكر والعامة الذين انضموا اليه ، بينما اعتلى هشام « العلية » ومعه نساؤه وأربعة من غلمانه ، وقد ارتجفت أوصاله حين سمع الصيحات المروعة تتجاوب بها أبهاء قصره ، ثم توجه الى الثوار الذين دخلوا القصر وسألهم ماذا يريدون منه وهو لم يفعل

شيئا ينكرونه عليه ، وعرفهم أن كانت لهم ظلامة فليرفعوها الى وزيره ، فأجابوه « وأي حاجب تعني ؟ » ثم رفعوا رأس حاجبه ابن القزاز على سنان رمح .

بينما كان هشام يحاول تهدئة ثائرة أولئك الرجال السفاكين الذين كانوا لايجيبونه الا بالسباب والقذف تقدمت طائفة أخرى الى مخدع الحريم ونهبت كل ما وصلت اليه يدها ، وعثروا على قيود جديدة زعموا أن الحكم صنعها لتصفية الأشراف ، فأثار أمية ثائرة النهاب بالحركة والقول اذ قال لهم : « هذه لكم فاستبقوها عندكم ، وتسلقوا العلية وافتكوا بالخبيث » .

وحاول بعضهم الصعود فلم يفلح لشدة ارتفاع العلية ، واستغاث هشام بأهل البلد الذين لم يساهموا في النهب فلم يغثه أحد .

اعتقد أمية أن الوزراء سوف يستخلفونه ، فمضى الى دارة الملك وجلس على أريكة هشام وحوله زعماء الفتنة الذين خلع عليهم الوظائف المختلفة ، وأصدر اليهم أوامره كما لو كان هو الخليفة حقا ، فقال له أحدهم : « اما تخاف عليك في هذا اليوم القتل لما نرى من انقلاب الناس عليك » .

فقال له أمية : « بايعوني أنتم اليوم واقتلوني غدا » (٢٢) .

لم يكن هذا الشاب الطموح يدري شيئا عما يجري في بيت ابن جهور اذ ذاك ، فقد اجتمع منذ بداية الفتنة رئيس المجلس للتشاور مع رفاقه الذين دعاهم الى داره وأخذوا يتباحثون عما يتخذونه ، فلما تم اتفاقهم فيما بينهم تهدوا الى القصر في مواليهم وخدمهم وكلهم شاكي السلاح وصاحوا بهم « لاسلب ولا نهك حرمة ، سنخلع هشاما وعلينا التبعة » . وسواء أكان حضور هؤلاء الرجال العظام قد أرهب الجمهور أم أنه خاف أن يعتمد حرسهم الى فضه » أم لم يعد ثم شيء قيم ينهبونه فقد أخذ النظام يعود بالتدريج ، واذ ذاك هتف الوزراء بهشام « أن انزل من العلية فانك مخلوع ، ولكنا سنمن عليك بالحياة » ، واستسلم هشام اليهم مكرها اذ لم يكن في العلية مئونة ، ونزل فقاده الشيوخ هو ونساءه الى ناحية من الساحة المصاقبة للمسجد الجامع فقال لهم أثناء سيره : « ليتني قرب البحر ترمون بي في لجته فيكون أخف لشانئي ، فافعلوا بما شئتم واحفظوني في ولدي وأهلي » .

فلما كان المســاء دعى الوزراء زعمــاء قرطبة الى الجامع وتشــاوروا ما يصنعون بهشام فقر الرأى منهم على المبادرة الى حبسه فى قلعة اتفقوا عليها فيما بينهم ، ووكل الى جماعة من المشيخة حمل هذا القرار الى أسيرهم الخليفة .

حين بلغ الشيوخ الدهليز طالعوا منظرا محزنا ، اذ رأوا هشــاما مفترشــا الأرض ومن حوله نساؤه يبكين مسبلات شعورهن مشقوقات الجيوب ، وقد ارتسم الأسى والشجى فى عينى هشام وهو يحتضن طفلته ساترا لها بكمه من قر ليله وكان شديد الحب لهــا ، وكانت الطفلة المسكينة أصغر من أن تدرك الخطب الملم بأبيها فظلت تنتفض بردا فى هذه البقعة الفاسدة الهواء الرطبة ، اذ كانت الليلة شديدة الزمهرير وكادت الطفلة أن تموت جوعا اذ لم يفكر أحد فى ارسال شىء من الطعام لتلك العائلة المنكودة ، ولعل مبعث ذلك هو الاهمــال أو المبالغة فى النكاية والقســوة .

ثم تكلم أحد الشيوخ فقــال انهم جاءوا اليه ليعلنوه أن المشيخة ووجوه أهل البلد المجتمعين بالمسجد قد اتفقوا على ....

فلم يدعه هشام يتم مقالتــه بــل قال له « ليكن ما أرادوا ، لكن سألتكم كسرة خبز أسد بها جوع هذه الطفلة » .

وهز الموقف مشاعر الشيوخ فلم يستطيعوا أن يمســكوا دمعهــم وجاؤوه بالخبز ، ثم تكلم الشيخ الذى كان يدير دفة الحديث قائلا له :

« لقد استقر الرأى على أن تؤخذ عنــد انبلاج الصبح الى احــدى القــلاع » .

فقال هشام : « ألا سألتكم سراجا آنس بضوئه مع نسائى ؟ » .

***

ثم جاء الغد .

ونقل هشام الى ظاهر المدينة وأصدر الشيوخ بيانا الى أهل قرطبة أنبأوهم فيه أن رسوم الخلافة زالت ، وأن زمام الأمور قد انتقل الى أيدى المشيخة ، ثم عادوا الى القصر حيث كان أمية الذى كان شديد الثقة بعهود الوزراء السرية ، لذلك استدعى وجوه الجند ليبايعوه لكن سرعان ما زالت الغشاوة عن عينيه حين أخذ الوزراء فى لوم الموظفين والجند على تسرعهم فى مبايعة مثل هذا الأفاق دون أن ينتظــروا قرار مشــيختهم ، وقال ابن جهور :

« ان الشيوخ محوا رسم الخلافة وارتاح الناس لما فعلوه فلا تثيروها يا عسكر فتنـــة تذهب بالكل ، وهذه نعمتنا عليكم ، وترقبـــوا المزيد كلما ازددتم لنا طاعة » .

ثم التفت الى الحرس وقال لهم : « لا يبقي بقرطبة أحد من بنى أمية ولا يكنفنهم أحد ، واستنزلوا أمية ذاته وأخرجوه عما بيده » .

★★★

حـــواشى الكتـــاب

حواشي الفصل الأول

(١) راجع ابن النديم ٢٨٩/١ ·

(٢) G. Weill : Geschichte der Califen, t. II, p. 107.

(٣) فيما يتعلق ببابك والخرمية راجع ما جاء في دائرة المعارف الاسلامية ·

(٤) Browne : A Literary History of Persia, Vol. I, Ch. IX.

(٥) راجع نص المقريزي الوارد في :
Journal Asiatique, IIIZ Serie II, p. 134.

(٦) فيما يتعلق بهذه الناحية انظر ما كتبه هوتسمان في الدائرة ·

(٧) Browne : Op. Cit., Vol. II, p. 406 seq.

(٨) راجع الجويني في الجريدة الاسيوية (السنة الرابعة) المجلد الثامن ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ·

(٩) De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes (Paris 1836), Introd. p. CLXIV.

(١٠) Ibid., pp. 139-153.

(١١) De Sacy : Op. cit., pp. 112, 153-156.

(١٢) راجع ما كتب عن الاثنى عشرية في الدائرة ·

(١٣) اما اسمه الكامل فهو الحسين بن أحمد بن محمود ، وكان يدعى أيضا بالمحتسب ، راجع في ذلك دائرة المعارف الاسلامية والمراجع المذكورة هناك ، ونضيف الى ما قاله المؤلف من أن علة تسميته بالمحتسب هي انه كان محتسبا بالبصرة وفي غيرها من مدن العراق ·

(١٤) De Sacy : Op. cit., p. CXIX.

(١٥) انظر مقال « الفاطميون » في الدائرة ·

(١٦) راجع ابن عذارى : البيان المغرب (طبعة دوزى) = ١٩٠/١ ، وترجمته ص ٢٦٤ ·

(١٧) سئل الخليفة المعز عن صحة النسب الذى يربطه بالرسول (صلى الله عليه وسلم) فأجاب اجابة حاسمة بأن استل سيفه من غمده الى منتصفه وقال : « هذا حسبى » ثم ملأ كفيه ببدرة من الذهب ونثرها على الحاضرين وقال « وهذا نسبى » وبهذا سكت كل معترض ، انظر : Journal Asiatique, 3ème. Serie, p. 167.

(١٨) أمر عبيد الله بسب الصحابة فى الصلوات العامة ولم يستثن سوى على وأربعة آخرين ٠

(١٩) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ١/٢٩٥ ، وترجمته ص ، ٤٢٤ ٠

(٢٠) ابن حوقل : المسالك والممالك (طبعة دى خويه) ليدن ١٨٧٣ ، ٢/٧٣-٧٤ ، وقد نقل المقرى هذه العبارة فى نفح الطيب ١/١٣٠ ٠

(٢١) تاريخ ابن حبيب ، ص ١٦٠ ٠

(٢٢) راجع دائرة المعارف الاسلامية ٠

(٢٣) راجع صاعد الطليطلى ، طبقات الأمم (طبعة لويس شيخو) ، بيروت سنة ١٩١٢ ، ص ٦٤ ٠

(٢٤) راجع الحميدى ، مخطوط اكسفورد ، ورقة ٤٧ أ - ب ، وقد ترجم دوزى هذه النبذة فى : Journal Asiatique, 5éme Serie, t. II, p. 93.

ثم قارن هذه المجتمعات المذكورة فى النص بما جاء فى أبى المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة جينبول) ، ج ١/٤٢٠ - ٤٢١ ؛ والمسعودى فى نخولسون ، والمرجع السالف ٢/١٢٢ ٠

(٢٥) المقرى نفح الطيب ، ١/١٣٦ ٠

(٢٦) جاء فى أمارى : المكتبة العربية الصقلية Amari : Bibliot. Ar. Sicula

« كان ابن مسرة كلفا بفلسفة أبيذ قلس ملازما لدراستها ، وخرج الى المشرق فارا لما اتهم بالزندقة لاكثارة فى فلسفة أبيذ قلس واشتغل بملاحاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم عاد الى الاندلس فاظهر التمسك والورع ، واغتر الناس بظاهره واختلفوا اليه ثم ظهروا على معتقده ، وقبح مذهبه ، فانقبض منه البعض ولازمه بعض ودانوا بنحلته ، وكان له لسان خلوب يتوصل به الى مراده ونضيف الى ما ذكره دوزى فى المتن أن ابن مسرة كان يعرف بالجبلي ، وفى زيادة التعريف به نقول هو أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن مسرة ، وقد درس على جماعة من ائمة العلم فى قرطبة ، ثم تفقه على يد المعتزلة وأهل الكلام فى المشرق ، ثم تظاهر بالنسك ويصفه ابن حيان « بالظنين المنطوى على دخل السريرة ، الرابض للفتنة » وذلك فى مخطوط له اطلع عليه المرحوم محمد عبد الله عنان ونقل عنه فى كتابه دولة الاسلام فى الأندلس ، ٢/٤٣٢ ٠ وانظر الحاشية التالية ٠ (المترجم) ٠

(٢٧) راجع عن ابن مسرة ما كتبه القفطى فى تاريخ الحكماء (طبعة ميلر) ، ص ١٦ ، والفتح فى المطمح (طبعة القسطنطينية ، ١٣٠٢) ص ٥٨ ، ويوجد هذا الفصل أيضا فى المقرى : نفح الطيب ٢/١٣٦ ، وقد ألف الزبيدى كتابا يدحض فيه آراء هذا الفيلسوف ، راجع أيضا عن ابن مسرة : الضبى : بغية الملتمس ص ٧٨ ، ترجمة رقم ١٦٣ ، وابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، ترجمة رقم ١٢٠٢ ، وقد كتب الأستاذ ميشيل آثين بلاثيوس (مدريد ١٩١٤) رسالة مفصلة عن ابن مسرة بعنوان :

Abenmasarrah y escula, origines de la filosofia hispano musulmana.

(٢٨) لقد بلغ من مدى نجاحهم أن عبد الرحمن الثالث - كما سنقص فيما بعد - أطاح برأس أمير من أسرته لآرائه الشيعية ٠

(٢٩) ابن حوقل : المسالك والممالك ، ٧٦/١ ٠

(٣٠) جاء فى Moralés : Chronica General, III, p. 324. الموضوع فى القرن السادس عشر وصف مسهب وتصويرى قوى لهذا الوادى وذلك الكهف ٠

(٣١) راجع المقرى : نفح الطيب ، ٩/٢ ، ١٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ٠

(٣٢) المقرى : شرحه ٠

(٣٣) هذا هو الأرجح فى أصله وان كانت هناك رواية نصرانية تزعم أنه نصرانى من زعماء أشتوريس وهى رواية ضعيفة ، والصواب انه زعيم مسلم كان قد ولى بعض الولايات الشمالية (فى سبتمانيا) فى الاندلس فسعى الى مهادنته الدوق النصرانى « أودو » أمير أكويتانيا حتى زوجه احدى بناته واسمها « لامبيجيا » ونستطيع من استقراء الأحداث التاريخية أن نقول ان الذى دعى « أودو » لمحالفة منوسة هو ما كان من نزاع شديد بين الدوق النصرانى وبين شارل مارتل الذى كانت أطماعه تمتد الى ولاية اكويتانيا ٠
(المترجم)

(٣٤) أما المؤرخون الاسبان الذين بالغوا كثيرا فى أهمية النجاح الذى صادفه بلاى فيزعمون كذلك أن منوسة قتل أثناء ارتداده ، لكن الواقع هو عكس ذلك تماما ، اذ أن هذا القائد ظل حيا بضع سنوات بعد هزيمته هذه ، ثم مات فى شرطانيس ، انظر : Isidore, e. 58. وقارن ذلك بما جاء فى ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧/٢ ، وترجمته ، ص ٣٨ ، حاشية رقم ٣ ٠

(٣٥) تكلم ايزيدور (الفصل ٧٦) عن هذه المجاعة الكبرى ٠

(٣٦) يقول دوزى فى Recherches, t. I, p. 126. ما نصه « وكان نزولهم فى مقاطعة شذونة ، ولما كانت سفن المسلمين المعدة للسفر موجودة بنهر رباط فقد سمى المسلمون هذه السنوات المهلكة بسنى رباط » ، راجع أيضا أخبار مجموعة ، ص ٦٢ ، وترجمته ص ٦٧ ، والبيان المغرب ، ٣٩/٢ ، وترجمته ص ٥٧ ٠

(٣٧) أخبار مجموعة ، ص ٦٢ ، وترجمته ص ٦٧ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٣٨/٢ ــ ٣٩ ، وترجمته ص ٥٦ ــ ٥٧ ٠

(٣٨) Sebastien : Chronic. (Esp. Sagrada), t. XIII, p. 14

(٣٩) Dozy : Recherches, t. I, p. 140-141.

(٤٠) لقد ظلت بعض المدن مثل اشتورقة وتوى غير مسكونة حتى بعد سنة ٨٥٠ م ٠

(٤١) Dozy : op. cit., t. I, p. 116 et seq.

(٤٢) أما أحمد بن يعقوب الذى كتب حوالى سنة ٨٩٠ م فيقول ان امارة ماردة (الواقعة على نهر الوادى اليانع) هى حصن على الحدود ، راجع دى خويه فى ص ١٦ من النص العربى الوارد فى :
Specimen Liter. Exhibens descripteonem al Maghreb.

(٤٣) Menachi, Silensis Chronicon (Esp. Sagr.) t. XVII ; Chron. Albeldense. وكذلك المجلد الثانى والعشرين من نفس المجموعة ٠

(٤٤) Chronic. Albeldense. (E p. Sagr. 1, t. XIIII, p. 64.
أما لفظ Castra de Napza الذى يستعمله مؤلف هذه الحوليات فالمقصود به حصون القبيلة البربرية نفزة التى كانت تسكن المنطقة الواقعة بين تريجلو والوادى اليانع ، راجع ابن حيان ، ورقة ٩٩ ب ، ١٠١ أ ٠

(٤٥) راجع ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٩٩ ب .

(٤٦) المقتبس ، ورقة ٨٣ ب ، راجع كذلك وصف سمورة الذى ذكره المسعودى فى مروج الذهب (طبعة باربييه دى مينارد) = ٣٦٣/١ ، وقد ورد هذا الوصف فى نفح الطيب ، ٢٢٣/١ ، وترجمته ، فى : Dozy : Recherches t. I, p. 165-166.

(٤٧) أسهب ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٩٨ ب - ١٠٢ ب ، فى ذكر تفاصيل هذه الحوادث ، راجع أيضا ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤٤/٢ ، وترجمته ص ٢٣١ ، حيث يشير الى أن أحمد بن معاوية مات فى مستهل ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ ، (= فبراير سنة ٩٠١م ، راجع أيضا Sampiro : Chronicon (Esp. Sagr.), t, XIV c. 14.

(٤٨) Chronica de los principes de Asturias y cantabria, Escr. I.

هذا وتوجد وثيقة اخرى (من سنة ٩٩٣م) فى :

Espagna Sagrada, t. xix, p. 383.

(٤٩) Charte chez Bergarnza ; Antigiiedades de Espagna, t. I, p 197, Col. 2.

حواشي الفصل الثاني

(١) كانت هذه القلعة تقع جنوبي ماردة ، وكانت في هذه الأيام التي يتكلم عنها دوزي مسكنا لبرانس كتامة بقيادة زعيمهم المعروف بابن راشد الذي مات في محاربته الملك النصراني ومحاولته دفعه عن الحصن ، وقد تمكن أردونيو الثاني من الاستيلاء على الحصن : الأمر الذي أفزع بقية المسلمين في ماردة التي بادر صاحبها وهو محمد بن تاجيت الى موادعة أردنيو الثاني بما بعث اليه من الهدايا والتحف ، فاكتفى الأمير النصراني بذلك وعاد الى بلاده ، وقد أشار الى ذلك ابن خلدون في تاريخه • (المترجم) •

(٢) Chronique du Moine de Silos, c. 44, 45.
وابن خلدون ، العبر ، ١٣٨/٤ ، هذا وقد اتبعنا المؤلف الاخير فيما يتعلق بتحديد التاريخ •

(٣) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٨٦/٢ ، وترجمته ص ٢٩٤ •

(٤) البيان المغرب ، ١٧٧/٢ ، ١٧٨ ، وترجمته ص ٢٨٣ ، وانظر أيضا •
Sampiro Chronicon, c. 17 ; Moine de Silos, c. 46, 47.
ويلاحظ أن هذه القلعة كانت من أمنع حصون تلك الناحية •

(٥) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ١٧٧/٢-١٧٨ ، وترجمته ، ٢٨٤ ، والفصل السابع عشر من حوليات سامبيرو ، وكذلك مذكرات كاهن سيلوس ، الفصل ٤٦ ، ٤٧ ، ويضيف المترجم الى ذلك أنه يلاحظ أن هناك اختلافا بينا في تقدير هذه المعركة بين المصادر العربية الاسلامية والمصادر النصرانية ، اذ تذكر الأولى أن الجيش المسلم ارتد بقيادة أمرائه سالما الى أرضه ، على حين تؤكد المصادر المسيحية أن الهزيمة كانت تامة ، وأن ساحة القتال كانت مغطاة بجثث قتلى المسلمين وأسلحتهم وعتادهم ، وقد بنى دوزي على هذه المصادر الأخيرة رأيه ، وان كان في الوقت ذاته استعمل المراجع الاسلامية وفي مقدمتها البيان المغرب ، لكن ليس من شك في أن الجماعة الاسلامية التي قدرت لها الحياة والعودة الى أرضها كانت من القلة بالصورة التي تشير صراحة الى مدى النكبة ، يدل على هذا ما أورده ، ابن حيان في المقتبس (المخطوطة) من قوله في التعليق على هذه الهزيمة « وانقلب الكفرة لعنهم الله الى بلادهم أعزة » فكان هذا مما أحفظ الناصر لدين الله وحركه لمجاهدة أعداء الله » • انظر عنان : ٣٩٥/٢ ، حاشية ١ - (المترجم) •

(٦) أما عن هذه البلدة التي كانت تقع الى الجنوب قليلا من الفرضة المسماة اليوم Alhircemas الرابضة على شاطىء مراكش في الريف فيمكن مراجعة الادريسي في Description de l'Afrique et l'E pagne, p. 199, 205. وانظر أيضا البكرى :
Description de l'Afrique Septenterionele, p. 212-213.
وكتاب الاستبصار ، ترجمة دي فانيان ، ص ٤٥ •

(٧) راجع Dozy : Recherches, t. II, 281. نقلا عن البكرى (شرحه) ، ص وكذلك ابن عذارى البيان المغرب ، ١٧٩/١ وترجمته ص ٢٤٩ ، وابن خلدون : العبر =

= ٢٨٢/١ وترجمته ١٣٩/٢ ، ويذكر البكرى أن هاتين الأميرتين هما ابن المعتصم بن صالح وتدعيان أمة الرحمن وخولة ·

(٨) البيان المغرب ، ١٧٩/١ ، وترجمته ص ٢٤٩ ، ونزيد على ما قاله دوزى فى المتن ان مصرعه كان حين حضر غزوة أبى العباس القائد ، أما ديسم بن اسحق فكان الرجل الذى اشتد امره فى تدمير « فسير اليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٨٣ هـ (= ٨٩٦ م) جندا جعل الامارة فيهم الى عمه هشام بن عبد الرحمن بن الحكم الذى انتصر وان لم يكن انتصاره حاسما · (المترجم) ·

(٩) واسمه الكامل سعيد بن صالح بن سعيد بن ادريس بن منصور ·

(١٠) أورد البكرى : Description de l'Afrique Septenterionale, p. 219. نص هذه الأبيات ، وكذلك ابن عذارى : البيان المغرب ١٨١/١ وترجمته ص ٢٥٢ ، وابن خلدون : العبر ، ٢٨٤/١ وترجمته ١٤٠/٢ ونضيف الى ما ذكره دوزى فى المتن أعلاه أن مما جاء فى رسالة عبيد الله الشيعى قوله :

فان تستقيموا أستقم لصلاحكم ... وان تعدلوا عنى أقتلكموا قتلا
وأعلو بسيفى قاهرا لسيوفكم ... وأدخلها عفوا وأملؤها عدلا

وانظر ما قاله دوزى عن نص الأبيات الواردة فى المتن ومرماها فى :
Gottingische Anzeigen, 1858, p. 1091-92.

وكذلك تعليق دى سلين على ابن خلدون · (المترجم) ·

(١١) وهذه هى المدة من أول الى ثالث ذى الحجة ·

(١٢) كان هذا القائد رجلا من البربر واسمه احمد بن العباس من بنى يطوفت ·

(١٣) ذكرت المراجع العربية أنهم كانوا يلقبونه باليتيم ·

(١٤) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع البكرى :
Description de l'Afrique, p. 94-95.

وابن عذارى : البيان المغرب ١٧٧/١ — ١٨٣ ، وترجمته ص ٢٤٧ — ٢٥٥ ، وابن خلدون : العبر ، ٢٨٢/١ـ٢٨٥ ، وترجمته ١٣٨/٢ وما بعدها ·

(١٥) انظر ما سبق ·

(١٦) كان هذا الحليف هو شانجة بن غرسية ملك نفارة حينئذ ، وقد اكتفى دوزى بالاشارة الى ملكة نفارة ·

(١٧) Chronic. de Moine de Silos, c. 47.

(١٨) لاندرى مكانة الصدق فى قول البيان المغرب ، غير أن ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ، رقم ١٤٥٧ ، والفتح فى العقد ، ٢٧٣/٢ ، قد تناولاها فى حياد دقيق ، راجع فانيان فى ترجمته للبيان المغرب ، ٢٨٦/٢ ، حاشية رقم ١ ·

(١٩) راجع ابن عذارى البيان المغرب ، ١٧٩/٢ـ١٨١ ، وترجمته ص ٢٨٥ـ٢٨٧ وانظر أيضا : Sampiro : Chronicon c. 18.

(٢٠) هكذا فى البيان المغرب ، لكنها واردة فى دوزى باسم Osma (المترجم) ·

(٢١) هكذا اسمها فى البيان وهى فى دوزى Alcubilla (المترجم) ·

(٢٢) راجع مراصد الاطلاع .

(٢٣) يشير المؤلف هنا الى ما كان من قيام أهل نفارة بمحاربة شارلمان وصده عن عاصمتهم بانبلونة لكن لم تجد محاولتهم هذه المرة ولم تمنع المدينة من السقوط فى يد المغير الافرنجى الذى أعمل يد التخريب والتدمير فيها حتى لا تكون مصدر مضايقة له . ثم تأهب للرجوع وفى أسره أمير عربى كره ولداه ما ألحقه شرلمان بأبيهما فهاجما مع جماعات أخرى مؤخرته عندما بلغ ناحية تعرف بممر رونشفال او باب شيزروا ، واتسم الهجوم الاسلامى بعنصر المباغتة التى لم يكن يتوقعها شارلمان ، على أن الرواية النصرانية تقول أن البشكنس هم الذين قاموا بهذا الهجوم المباغت — . (المترجم) .

(٢٤) يقع هذا الوادى بين استيلا وبانبلونة ، أو على وجه الدقة بين مويش وساليناس دى أور .

(٢٥) نزيد على ما ذكره المؤلف ما قاله أحد المؤرخين مشيرا الى هذه الظاهرة من الرخص فيقول « كانت تبدل كل ستة أقفزة بدرهم فلا يوجد من يشتريه » . (المترجم).

(٢٦) وذلك يوم الخميس ١٢ ربيع الثاني سنة ٣٠٨ ، كما تذكر المراجع الاسلامية . (المترجم) .

(٢٧) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٨٣/٢ — ١٨٩ ، وترجمته ص ٢٩١—٢٩٧ ، وابن خلدون : العبر ، ١٣٥/٤ وانظر أيضا ما جاء فى :
Sampiro : Chron., c. 19 ; Ragull : Vita Vel Passio Sancti Pelgii (Schott), t. IV, p. 348.

(٢٨) كان الواجب أن تعتبر حملة أردونيو فى هذه السنة ذلك لأن سامبيرو يقول ان الملك فى عودته الى سمورة وجد زوجته قد ماتت ، والثابت أن الملكة ماتت فى صيف سنة ٩٢١ م ، انظر فى ذلك Espagna Sagrada, t. XXXVII, p. 269.

(٢٩) Sampiro, Ch. c. 18.

(٣٠) Ibid., c. 19.

(٣١) تكلم ياقوت فى معجمه عن بقيرة فذكر موضعين فى اسبانيا بهذا الاسم ، احدهما متاخم لطليطلة والآخر فى اقليم مرية ، راجع أيضا ابن الفرضى : تاريخ علمـاء الأندلس ٢٦/٢ ، انظر فيما بعد حاشية رقم ٣٣ .

(٣٢) أورد شانجة هذا النص فى انعام ممنوح بعد الاستيلاء على بقيرة ، انظر :
Espagna Sagrada, t. xxxiii, p. 466.

(٣٣) كان القوامون بالدفاع عن بقيرة جماعة من كبار وجوه بنى لب وبنى ذى النون ، وقد وقعوا أسرى فى يد عدوهم أردونيو الذى قتلهم ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى بن ذى النون لفراره من حبسه ، وكان لذلك وقع شديد فى نفوس المسلمين تمثل فى لومهم الشديد للناصر . — (المترجم) .

(٣٤) نصيب هذه الشائعة من الصحة ضئيل ، وقد نجحت شرذمة قليلون من الأشراف فى النجاة ، قارن ما جاء فى ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٩٥/٢ ، وترجمته ص ٣٠٥—٣٠٦ بما جاء فى ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٥٥ ب .

(٣٥) فيما يتعلق بهذه الحملة راجع البحث المفصل عنها فى البيان المغرب ، ١٩٦/٢ — ٢١٠ ، وترجمته ص ٣٠٧ — ٣١٣ .

(٣٦) كان ذلك فى أواخر سنة ٣١١ هـ ، راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢ ١٦٥ ، ص ٣٠٧ . والواقع أنها كانت قبل ٩ أبريل سنة ٩٢٤م ٠

(٣٧) Dozy : Recherches, pp. 142-152.

(٣٨) فيما يتعلق بالجوانب التاريخية والسياسية لهذه المسألة راجع ما كتبه سير توماس أرنولد فى الدائرة تحت كلمة « خليفة » ٠

(٣٩) Nicholson : a Literary History of the Arabs, p. 264.

(٤٠) ابن خرداذبة ، مخطوط أكسفورد ، ورقة رقم ٩٠ ٠

(٤١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ١٦٢/٢ ، ٢١١ـ٢١٢ ، وترجمته ص ٢٦١ . ٢٢٣ـ٢٢٨ ٠

(٤٢) راجع ما كتبه ليفى بروفنسال فى الدائرة تحت مادة « مغراوة » ٠

(٤٣) فى الأصل الفرنسى « الحاكم الاسبانى » وقد آثرت بدلا منها كلمة « عبد الرحمن » لايضاح المعنى (المترجم) ٠

(٤٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٠٨/١ ، ٢١٣ ، ٢٢٠/٢ ، وترجمته ص ٢٨٩ ، ٢٩٧ ، ٣٢٩٠

(٤٥) Espagna Sagrada, t. xxxiv, p. 241.

(٤٦) راجع البيان المغرب ، ٢٢٠/٢ ، وترجمته ص ٣٢٩ ٠

(٤٧) Dozy : op. cit., p. 150.

(٤٨) Sampiro : Chronicon, c. 22.

(٤٩) البيان المغرب ، ٢٢٢/٢ ، وترجمته ص : ٣٤٢ ٠

(٥٠) Sampiro : Chronicon, c. 22.

(٥١) Dozy : op cit., pp. 152-156.

(٥٢) ابن خلدون : كتاب العبر ، ١٣٦/٤ ٠

(٥٣) بنو قصى أسرة قوطية الأصل جبت المسيحية وقت الفتح العربى ٠ (المترجم) ٠

(٥٤) الواقع أن هذه مبالغة من دوزى ، ولعل الذى بعثه على أن يقول هذا القول هو ما رآه من محاولة محمد بن هاشم التجيبى فى موادعة النصارى ، والحقيقة أن استقرار تاريخ هذه الأسرة فى تلك الحقبة يفسر اتجاهه ، ذلك أن التجيبيين كانوا يتحدثون عن سياسة الناصر فى استنزاله الولاة ، هذا على الرغم من أنه لما مات محمد بن عبد الرحمن التجيبى سنة ٣١٢ هـ ، أقر الناصر ولاية ولده هاشم الذى أظهر المودة للسلطان فلما مات هاشم ٣١٨ تطلع ولده محمد للحكم مكانه فتلكأ الناصر ثم عاد فأقره ، فبقى فى نفس محمد بن هاشم التجيبى شك ظهر أثره حين تخلف دون بقية آل بيته عن السير مع السلطان فى خروجه سنة ٣٢٢ ، ما حمل السلطان على التريث لقتاله ، ثم ما كان بعد ذلك من موادعة محمد بن هاشم لراميرو ملك ليون ٠ (المترجم) ٠

(٥٥) راجع ابن خلدون فى .Dozy, Recherches, t. I, p. 221 وانظر أيضا الملحق رقم ١٢ بنفس المرجع ، P. xxxii - xxxiii

(٥٦) .Ibid., op. cit., loc. cit

(٥٧) يكاد مطالع هذه الصفحات وهذا الكتاب الذى بعثه الناصر الى أحمد بن اسحق يؤكد انه من أسرة وضيعة ، لكن الواقع أنه كان يمت الى الناصر بصلة القربى ، وان كنا لا نعرف مدى هذه القرابة ، فاذا تذكرنا ذلك عرفنا السر فيما يقوله دوزى فى المتن أعلاه من أن أحمد بن اسحق هذا كان يتطلع لولاية العهد ، كما يفسر عدم تسرع الناصر فى قتله الا حين اتصل بالفاطميين فى المغرب ، انظر ابن الأثير ، ١١٥/٨ . ــ (المترجم) .

(٥٨) نص هذا الخطاب وارد فى أخبار مجموعة ، ص ١٥٧ ــ ١٥٨ .

(٥٩) وكان خروجه للصيد ــ المترجم .

(٦٠) أما هذا القائد فهو أحمد بن محمد بن العباس ، وكان يشغل منصب قائد القوات السلطانية المرابطة قرب سرقسطة ، وكان السلطان قد بعثه لمحاربة نصارى برشلونة الذين حاولوا غزو البلاد الاسلامية ، وهزمهم أحمد بن محمد بن الياس هزيمة منكرة أفنت عددا لا بأس به من مقاتليهم ، واستولى على الكثير من عتادهم وسلاحهم ، وذلك فى شوال سنة ٣٢٤ هـ ، أما الكلام الذى بالمتن فيؤرخه جمادى الأولى سنة ٣٢٦ هـ حين سار الى ملك ليون وحليفه أمية بن اسحق ، فقد أمر الناصر قائدا آخر هو عبد الحميد بن بسيل بالانضمام الى أحمد بن محمد بن الياس . (المترجم) .

(٦١) راجع ابن خلدون فى : .Dozy : Recherches t. I, app. II وانظر أيضا المسعودى فى مروج الذهب طبعة باربييه دى مينارد ، ٧٢/٣ ، والمقرى : نفح الطيب ٢٨٨/١ .

(٦٢) كان محمد بن هاشم التجيبى قد راسل السلطان فى المصالحة وطلب الامان ثم عمد الناصر ــ على غير انتظار الى القبض على من أرسلهم ابن هاشم من اخوته وأصحابه الى السلطان لتوكيد الموادعة . وحين ذلك تبين لابن هاشم الغدر الذى أصابه وما يترتب عليه من تقليم أظافره ، فعاود طلب الأمان وكتب الناصر أمانا له ولاخوته وأصحابه من أهل سرقسطة ، واشترط عليه شروطا اذا وفى بها كتب له السلطان عهدا على مدينة سرقسطة ويستعمله عليها وتم ذلك كله وفق ارادة السلطان الذى دخل سرقسطة فى محرم ٣٢٦ هـ (= نوفمبر ٩٢٧م) دخول الظافر المنتصر . (المترجم) .

(٦٣) كانت طوطة ملكة نفارة وأرملة شانجة والوصية على ولدها غرسية ، وكان وفودها على الناصر وهو فى قلهرة . ــ (المترجم) .

(٦٤) راجع ابن خلدون فى : ,Dozy : Recherches, t. I, p. xxxii-xxxiii app. xii.

حواشي الفصل الثالث

(١) Vita Johannis Gorziensis (Pertz. Mon. Germ.), c. 316.

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٢٤ ٠

(٣) راجع المقرى : نفح الطيب ٩٢/١ ، وراجع أيضا ما كتبه ليفى بروفنسال فى الدائرة ، مادة « الصقالبة » وما أورده هناك من المراجع ٠

(٤) انظر ما كتبه بارتولد فى الدائرة ، مادة Slaves وراجع أيضا ابن حوقل المسالك والممالك ٧٥/٢ ، ويطلق مؤرخو قرطبة على أوتو الأول اسم « ملك الصقالبة » ، انظر ابن عذارى : البيان المغرب ٢٣٤/٢ ، وترجمته ص : ٣٦٢ ، حاشية رقم ٢ ، والمقرى : نفح الطيب ، ٢٣٥/١ ٠

(٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ٧٥/٢ ٠

(٦) Liudraprand : Antapadosis, t. VI, c. 6.

(٧) راجع ابن حوقل : المسالك والممالك ٧٥/٢ ، والمقرى : نفح الطيب ٩٢/١ ، وقارن هذا بما جاء فى :
Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, p. 233.

راجع المقرى : نفح الطيب ، ٥٧/٢ ٠ أما الكتاب المشار اليه فى المتن فاسمه « كتاب ...ـــــر والمبالغة على من انكر فضل الصقالبة » ، أما مؤلفه الذى أشار اليه ابن الابار فى كتابه : تكملة الصلة رقم ٨٩ فقد عاش زمن الخليفة هشام الثانى ، انظر :
Pons Boigues : En aya-bio-bibliographico sobre los Hitoria dores y geografos arabigo espanoles, (Madrid 1898), pp. 114-116.

(٩) المقرى : نفح الطيب ، ٣٧٢/١ ــ ٣٧٣ ٠

(١٠) أخبار مجموعة ، ص ١٥٦ ٠

(١١) ليس من شك فى أن ما انطوت عليه قلوب البعض من الحقد على الناصر لتقريبه الصقالبة وعلى رأسهم نجدة بن حسين قد كان له دخل كبير فى هذه الهزيمة ويصرح بذلك المؤرخ ابن الخطيب حين يقول « أن طائفة من جند الناصر لدين الله حسدته على ما هيأه الله من الصنع له ولم تناصحه فى الحرب حق النصح ، فجالت داخل مصاف القتال وجرت الهزيمة على المسلمين بسببها ٠ وما كاد الناصر يصل الى قرطبة حتى قبض على نحو الثلاثمائة من الفرسان فصلبهم وأمر بالنداء عليهم « هذا جزاء من غش الاسلام وكاد أهله ، وأخل بمصاف الجهاد » وهذا ما يشير اليه دوزى فى المتن أعلاه قبل صفحات قلائل فى عبارة موجزة ، انظر فى ذلك ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٣٧ (طبعة بيروت ، ١٩٥٦) ٠ المترجم ٠

(١٢) لا أقل من أننا لن نعود نسمع عنه شيئا ما ٠

(١٣) لقد بذل الخليفة قصارى جهده لفك اساره ، غير أن محمد بن هاشم لم يسترد حريته الا بعد عامين .

(١٤) فيما يتعلق بوقعتى شلمنقة والخندق ، راجع ما كتبه Dozy : Recherches, t. I, pp. 156-70. ولم يرد لهزيمة المسلمين هذه ذكر فى حوليات مؤرخى عهد عبد الرحمن ولا فى ابن عذارى ، واذا استثنينا ما كتبه المؤرخون المسيحيون أمثال Sampiro : op. cit., c. 22, 23 ; Liudprand : Antapodosis, L. V, c. 2 de l'edition de Pertz, Annales de Saint Gall, (in) Pertz : Monum. Germ., t. I, p. 78.

فلا يعرف المرء الا شيئا قليلا من تاريخ اخبار مجموعة ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ، وابن خلدون والمسعودى فى مروج الذهب ٣٦٣/١ ، ٧٢/٣ . وقد نقلها عنه المقرى فى نفح الطيب ٢٢٨/١ ، أما النصوص العربية المبعثرة هنا وهناك فقد جمعها دوزى فى المرجع السابق ، انظر نفس المرجع ، ملحق رقم ٤ ، ص xxviii-xxix كما أن هناك بعض الروايات العربية المتعلقة بهذه الحملة وهى واردة فى الحلة السيراء ، ص ١٥٠ ، وفى الكامل لابن الأثير . انظر ايضا : Annales du Maghreb et d'Espagne, pp. 323-324.

راجع كذلك البكرى (مخطوط باريس) رقم ٥٩٠٥ ، ورقة ١٥٠ ، وترجمة فانيـــان للبيان المغرب ، ٣٤٨/٢ ، حاشية رقم ٣ .

(١٥) عرف هذا باسم Tejiare أو Teliare وقد وردت كلمة Patalium فى كتاب Sampiro, op. cit., c. 19 (طبعة فلوريز) ولكن الصحيح فيها هو أن تكون Placitum على أن البحث الصحيح المتعلق بهذا الموضـــوع وارد فى مخـطوط ليدن fonds Vossius, no 91. أما لوكاس Lucas du Tuy فقد أستعمل فى ص ٩٢ كلمة Iuncia وهى خونتا Junta فى الاسبانية الحديثة التى هى اقرب ما تكون للكلمـة Placitum راجع فى تحقيق ذلك : Espagna Sagrada, t. IX, p 383.

(١٦) Sampiro : op. cit., c. 19.

(١٧) Bergenza : Antigüedades de Espagna, t. I, p. 215.

(١٨) اضفنا ما بين الحاصرتين من الترجمة الانجليزية لايضاح المعنى . (المترجم) .

(١٩) Sampiro, op. cit., c. 23

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٣٦/٢ ، وترجمته ص ٣٤٨ .

(٢١) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٤٠ .

(٢٢) يقصد المؤلف بذلك أبا بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . (المترجم) .

(٢٣) انتهى كثير من المؤرخين الى نتائج خاطئة فيما يتعلق باقامة أبى يزيد الأولى فى القيروان ويمكن الاعتماد على ما جاء فى البيان المغرب ، ٢٢٤/١ ـ ٢٢٦ ، وترجمته ص : ٣١٣ـ٣١٦ ، وذلك نقلا عن ابن سعدون وهو مؤلف معاصر يفوق غيره من المؤلفين فى أن كتاباته مطبوعة بطابع الدقة اكثر منهم .

(٢٤) فيما يتعلق بالقائم راجع ما كتبه سوبرنهايم عنه فى الدائرة .

(٢٥) كان ذلك سنة ٩٣٦ م . (المترجم) .

(٢٦) Alkairawan, Histoire de l'Afrique, trad., Pellisier et Remùsat, p. 104.

(٢٧)فيما يتعلق بابى يزيد وثورته راجع ما كتبه باسيه فى الدائرة والمصادر الواردة هناك .

(٢٨) Sampiro : op. cit., c. 23.

(٢٩) Berganza : Antigüedades de Espagna, t. II, Esc., 329, et Risco : His- toria de Leon (Madrid, 1792), t. I, p. 211.

(٣٠) انظر المراسيم الواردة فى المرجع السابق . Bergaza : op. cit.

(٣١) فقد أعطى على سبيل المثال بستان الكونت الى دير كاردين ، انظر مرسوم ٢٣ أغسطس ٩٤٤ فى المرجع السابق ، وثيقة رقم ٣٤ .

(٣٢) Cronica Rimada, p. 12 (Wiener Jahrbüchen) Anziige — Blatt du Tome cxvii.

(٣٣) Sampiro, op. cit., c. 23.

(٣٤) اهملت النسخة الانجليزية ترجمة هذا السطر وما يليه ـ (المترجم) .

Sampiro, op. cit., c. 23.

: البيان المغرب ، ٢/٢٢٦ـ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، وترجمته
لوية النصر فى هذه المعارك هما احمد بن العباس وقند

(٣٧) راجع البيان المغرب ، ٢/٢٢٩ـ٢٣٠ ، وترجمته ص ٣٥٤ـ٣٥٥ . وقد انتهت هذه الاعمال فى صفر سنة ٣٣٥ (= سبتمبر ٩٤٦م) .

(٣٨) Sampiro, op. cit., 24.

(٣٩) فيما يتعلق بحقيقة تاريخ موت راميرو راجع : Dozy : Recherches, t. I., pp. 170-173.

ويلاحظ ان دوزى فى هذا البحث يميل لترجيح الرواية القائلة بانه مات فى سنة ٩٥١م .

(٤٠) وكذلك اعتمادا على تأييد جدته الملكة طوطة ـ (المترجم) .

(٤١) كانت أم شانجة وزوجة فرديناند شقيقتين .

(٤٢) Sampiro : Chronic. c. 25.

(٤٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٣٢ ، وترجمته ص ٣٦٠ .

(٤٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٣٢ـ٢٣٦ ، ويلاحظ أن أحمد بن يعلى هو قائد هذه الحملات .

(٤٥) Chronicon de Cardéna (Espagna Sagrada), t. XXIII, p. 317.

(٤٦) العبر لابن خلدون ١٤٣/٤ .

(٤٧) فيما يتعلق بهذا العالم اليهودى راجع :
Graetz : Les Juifs d'Espagne, trad., G. Stenne, Paris 1872, p. 75. cf. also History of the Jews, 1892 ; Vol. II, pp. 220-225.

(٤٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٣٧/٢ ، وترجمته ص ٢٦٧ ، هذا وينبغى قراءة حسداى بن « سبروط » بدلا « من شبروط » الواردة فى المخطوط ، انظر ابن خلدون : العبر ، ١٤٣/٤ .

(٤٩) ابن خلدون : نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٥٠) Amari : Storia della Musulmane di Sicilia, II, pp. 242-248.

(٥١) Amari : op. cit., II, p. 249-250.

(٥٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٣٧/٢ ، وترجمته ص ٢٦٦ .

(٥٣) يقصد المؤلف بذلك تونس – (المترجم) .

(٥٤) ورد اسم أردونيو الثالث فى المنشورات حتى شهر مارس ٩٥٧ . انظر فى ذلك :
Espagna Sagrada, t. XXXIV, p. 268.
على أنه بمقارنة ما جاء فيها بما هو وارد فى الحوليات العربية يتجلى خطأ التاريخ المذكور فى مخطوطات سامبيرو حول موت هذا الملك من القول بأنه مات فى سنة ٩٥٥ م .

(٥٥) كان عبد الرحمن قد قلده أمر بطليطلة عام ٩٥٤ م ، انظر ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١٤٠ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٣٥/٢ وترجمته ص ٣٦٣ .

(٥٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٣٧/٢ ، السطر الأخير ، ص ٢٣٨ وترجمته ، ص ٣٦٨ .

حواشي الفصل الرابع

(١) ابن خلدون فى : Dozy : Recherches, t. I, p. 97.

(٢) قال سامبيرو ما يقرب من هذا القول فى معرض حديثه عن راميرو الثانى .

(٣) كما كان فى الوقت ذاته صهر فرديناند جونثالث – (المترجم) .
Luzzato : Notices sur Abu-Jousuf Hasdaii ibn Shaprut, p. 24.

(٤) انظر ابن خلدون : العبر ١٤٣/٤ : Dozy : op. cit., loc. cit.

(٥) Espagna Sagrada, t. XXXIV, p. 269.

(٦) وكذلك جدته الملكة طوطة ملكة نفارة . (المترجم) .

(٧) كما كان فى الوقت ذاته صهر فرديناند جونثالث – (المترجم) .

(٨) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥/١٢ ، وترجمته ص : ٣٨٨ .

(٩) سيمر عليك فيما بعد قصة لقاء اردون الرابع مع الحكم الثانى .

(١٠) ويسمونه فى الاسبانية بال Il-malo أى الخبيث أو الردىء ، راجع المقرى : نفح الطيب : ٢٥٢/١ .

(١١) لقد اخطأ سامبيرو فى تذييله فحشاه بالاخطاء فيما يتعلق بتاريخ مملكة ليون حتى انه كثيرا ما يقول أن اردون الثالث طلق « اوراك » فكان ذلك علة ثورة فرديناند عليه ، أما ريسكو Risco – كما جاء فى Esp. Sagrada, t. xxxiv, p. 261-263. فقد اعتمد على ما جاء فى الوثائق فدلل على أن « اوراك » ظلت تحت اردونيو الثالث حتى موته .

(١٢) Sampiro : c. 26.

(١٣) البيان المغرب ، ٢٣٧/٢ ، وترجمته ص ٣٦٧–٣٦٨ .

(١٤) راجع حياة جوهانس حيث يقول :

Judem quendam cui nomen Hasadew, quo neminem unquam prudentiorem se vidisse aut audisse nostri testati sunt; cf. Vita Johannism, Gorziensis, c. 12.

(١٥) يلاحظ ان دوزى لم يشر الى المرجع الذى استقى منه هذه القصيدة وتابعه فى ذلك الأستاذ ليفى بروفنسال ، أما الترجمة الانجليزية فقد اشارت الى المصدر وذكرت أنه هو : Graetz : History of the Jews Vol. III, p. 232. – (المترجم) .

(١٦) المقرى : نفح الطيب ٢٠٣/١ .

(١٧) هكذا فى الأصل الفرنسى ، أما فى الترجمة الانجليزية فهو راميرو الثالث والصحيح هو كما جاء فى الأصل وما اثبتناه هنا فى الترجمة العربية — المترجم .

(١٨) راجع فى Sampiro : Chronicon, c. 26. قصيدة « دوناش بن لبرت » العبرية وقصيدة مناحم بن سرك الواردة فى :
Luzzato : Notices sur Abu Jousowf Ha daii Ibn Schaprut, pp. 24, 25, 29-31.
وعبارة ابن خلدون التى بعث بها دوزى الى مسيو لوزاتو والتى طبعها هذا العالم فى كتابه السابق ، ص ٤٦ــ٤٧ ، والتى يراها القارىء فى كتاب :
Dozy : Recherches. t. I, p. 98.

(١٩) لم يشر المؤلف دوزى ولا ليفى بروفنسال الى تاريخ هذه الحملة لكنا نثبت هنا — بناء على ما جاء فى المصادر العربية — أن هذا الابحار كان يوم أول المحرم سنة ٢٤٧ هـ وأن السفن قصدت مدينة الشيعى « معد بن اسماعيل » . — (المترجم) .

(٢٠) راجع ترجمة العبر لابن خلدون ٤٥/٢ ، وابن عذارى البيان المغرب ، ٣٨٢/٢ ، وترجمته ص ٣٦٩ .

(٢١) Sampiro : Chronicon, c. 26.

(٢٢) انظر ما ورد من ابن خلدون فى Dozy : Recherches, t. I. p. 98.

(٢٣) Esp. Sagrada, t. XXXIV, p. 270.

(٢٤) Sampiro : op. cit., c. 26.

(٢٥) Espagna Sagrada, t. XXXIV, pp. 270-271.

(٢٦) راجع ابن خلدون : العبر ، ١٤٣/٤ .

(٢٧) Annales Compostellino, وراجع ابن خلدون فى Dozy : Recherches, t. I, p. 98.

(٢٨) Sampiro : Chronicon, c. 26.

(٢٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٦١/٢ ، ٢٣٩ ، وترجمته ص ٢٥٩ ، ٢٧٠ .

(٣٠) الاضافة من الترجمة الانجليزية لايضاح المعنى . (المترجم) .

(٣١) ابن عذارى : البيان المغرب ٢٤٧/٢ ، وترجمته ص : ٢٨٢ .

(٣٢) ابن حوقل ، المسالك والممالك ، ٧٧/٢ .

(٣٣) بن حوقل ، نفس المرجع والجزء ، ص ٧٦ــ٧٧ .

(٣٤) نفس المؤلف والمرجع ، ص ٧٦ ، ٧٨ .

(٣٥) انظر كتاب حسداى الذى بعث به الى الخزر فى :
Carmoly : Des Khozars au Xeme siecle, p. 37.

(٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٤٧/٢ــ٢٤٨ ، وترجمته ص : ٢٨٣ ، انظر ايضا ابن حوقل : المسالك والممالك ، ٧٦/٢ ، والمقرى : نفح الطيب ٣٦٦/١ ، ٣٧٣ .

(٣٧) المقرى ، شرحه ، ٢٠٢/١ .

(٢٨) Hroswitha : Passio, s. Pelagii.

(٢٩) أضفنا هذا التاريخ فى الترجمة العربية فقد وجدناه مكتوبا بالقلم الرصاص بخط الأستاذ تسبولد فى هامش المقرى : نفح الطيب : ١/٣٤٤ ٠ فى النسخة الموجودة بمكتبة جامعة القاهرة ـ (المترجم) ٠

(٤٠) فيما يتعلق بأعمال التنقيب فى مدينة الزهراء ، راجع ما جاء فى جريدة التيمس بتاريخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٠ ، تحت عنوان an arabic Pompii أما عن صور ولوحات المكتشفات والدراسة الفنية فانظر عنهـا :

E. Wikishaw : Hispano-arabic Art at Medina-el-Zahra'a (Burlington Magazine, August 1911).

(٤١) راجع ابن حوقل : المسالك والممالك ٢/٧٦ـ٧٧ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٤٦ـ٢٤٧ ، وترجمته ص : ٣٨١ـ٣٨٢ ٠ والمقرى : نفح الطيب ، ١/٣٤٤ـ٣٤٦ ، ٣٧٠ ، وما بعدها ، وانظر ما كتبه ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الاسلامية ، تحت كلمة « الزهراء » ٠

(٤٢) Vita Iohannis Gorziensis, c. 135.

حواشي الفصل الخامس

(١) المقرى : نفح الطيب ١/٢٥٤ ·

(٢)راجع ابن خلدون فى : Dozy : Recherches t. I, p. 98.

(٣) Sampiro : Chronicon, c. 26.

(٤) راجع ابن خلدون : العبر ، ٤/١٤١ ·

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٥٠ ، وترجمته ص : ٣٨٨ ·

(٦) كان هذا القصر يعرف بدار الناعورة ـ المترجم ·

(٧) ورد فى عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ، ص ٤٥٨ باسم « خيزون » وقال انه قاضى قضاة أهل الذمة فى قرطبة ـ (المترجم) ·

(٨) وردت هذه القصة بأكملها فى ابن حيان وفى المقرى : نفح الطيب ١/٢٥٢ـ٢٥٦ ، انظر أيضا ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٥١ وترجمته ص : ٣٨٨ · وفى هذا المرجع ينبغى على القارىء أن يستبدل عام ٣٥١هـ الوارد فى صفحة ٢٥٠ بعام ٣٥٢ ، وذلك لأن حوادث سنة ٣٥٢ لم تبدأ الا من صفحة ٢٥١ ، سطر ١٩ ، راجع أيضا ابن خلدون العبر ، ٤/١٤٥ ·

(٩) ابن خلدون : العبر ٤/١٤٥ ، وكذلك : Dozy : Recherches, t. I, p. 98.

(١٠) أما ابن خلدون فيسميه فى نفس الجزء والصفحة بابن المغيث ، ويسميه المقرى بابن الخيرزان ·

(١١) نعته ابن خلدون : العبر ، ٤/١٤٥ بالكاثوليكى ، ومنه نعرف أن القوم فى قرطبة كانوا يسمون المطران بهذا الاسم الذى يطلق على القسيس النسطورى فى الشرق ، راجع كتاب البلدان لأحمد بن يعقوب ·

(١٢) ويسميه ابن خلدون : العبر ٤/١٤٥ بعبد الله ·

(١٣) انظر ابن خلدون ، نفس المرجع والجزء والصفحة ·

(١٤) Samptro : Chronicon, c. 27.

(١٥) الواقع ان الخوف تسرب الى نفس شانجة من هذا العطف الكبير من جانب الخليفة الحكم على أردونيو الرابع ، وأدرك أن ما تعهد به الحكم للملك النصرانى لابد وأن تكون له عواقبه الوخيمة عليه هو ذاته ، لذلك لم ير بدا من أن يفعل ما فعله أردونيو حتى يفسد عليه خطته أو على الأقل يكف خطر الحكم عن ناحيته ، لذلك بادر لارسال سفارة من قبله الى الحكم يجدد ما قطعه على نفسه لأبيه الناصر من تسليمه بعض القلاع ، انظر الحاشية التالية ـ المترجم ·

(١٦) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمته ص ٣٨٩ ، وابن خلدون : العبر ، ١٤٥/٤ ٠

(١٧) مخطوط ميا ، ورقة رقم ١٥ ، Sampiro : op. cit., c. 26.

(١٨) راجع البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمة ص ٣٨٩ ٠

(١٩) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢٥١/٢ ، وترجمته ص ٣٨٩ ، وابن خلدون : شرحه ١٤٥/٤ ٠

(٢٠) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥٧/٢ ، وترجمته ص ٣٩٨ ٠ هذا ويلاحظ أن الحملة التى زحفت على قلهرة كانت بقيادة غالب بن عبد الرحمن وسعيد بن الحكم الجعفرى وكانت سنة ٣٥٧ ٠

(٢١) Sampiro : op. cit., c. 27.

(٢٢) كان من بين ما قام به الكونت بوريل للتدليل على حسن نيته تجاه الخليفة انه بعث مع سفارة من رجاله ثلاثين من أسرى المسلمين كانوا لديه — (المترجم) ٠

(٢٣) ابن خلدون : وعبر ، ١٤٦/٤ ٠

(٢٤) Sampiro : Op. Cit., 27. وقد مات شانجة حوالى نهاية سنة ٩٦٦م (= ٣٥٥هـ) انظر فى ذلك : Risco : Historia de Leon, t. I, p. 212.

(٢٥) Chron. du Moine de Silos, c. 70.

(٢٦) راجع خبر هذه الحملة فى Dozy : op. cit., II, p. 286-299.

(٢٧) Sampiro : op. cit., c. 28.

(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥٥/٢ ، وترجمته ص : ٣٩٥ ٠

(٢٩) راجع ابن الآبار : الحلة السيراء ، ص ١٠١–١٠٣ ، والمقرى : نفح الطيب ٣٥٦/١ ، أما فيما يتعلق بأبى الفرج الأصفهانى فانظر ما كتبه عنه بروكلمان فى الدائرة والمراجع المذكورة هناك ٠

(٣٠) راجع طبقات الأمم لصاعد الطليطلى ، ص ٦٥–٦٦ ٠

(٣١) ابن خلدون فى المقدمة ٠

(٣٢) راجع البيان المغرب ٢٩٦/٢ ، وترجمته ص : ٣٩٧ ٠

(٣٣) نفح الطيب ، /١٣٦ ٠

(٣٤) فيما يتعلق بهذا المحدث المعروف أيضا باسم ابن الأحمر والمتوفى سنة ٣٥٨هـ (= ٩٦٨م) راجع ما كتبه الضبى فى بغية الملتمس ، رقم ٢٧١ ، ص ١١٦–١١٨ ، وابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٢٨٧ ، ص ٣٦٢–٣٦٤ ، وابن عذارى : البيان المغرب ٢٧٤/٢ وترجمته ، ص ٤٢٩ حاشية رقم ٥ ٠

(٣٥) فيما يتعلق بأبى على القالى راجع ما كتبه عنه محمد بن شنب فى الدائرة ٠

(٣٦) فيما يتعلق بابن القوطية راجع ما كتبه عنه محمد بن شنب فى الدائرة ٠

(٣٧) المقرى : نفح الطيب ، ٣٤٦/٢ ٠

(٣٨) يعنى بذلك المنصور بن ابى عامر ٠

حواشي الفصل السادس

(١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧٤/٢ ، وترجمته ص ٤٢٦ ٠

(٢) يقصد بالاسفنج : التين — (المترجم) ٠

(٣) فيما يتعلق بهذه القصة راجع ابن الخطيب : الاحاطة (مخطوط جيانجوس) ورقة ١١٧ ب ، وعبد الواحد المراكشى : المعجب : ص ١٨ ، ١٩ وترجمته ص ٢٢ـ٢٣ ، وذلك نقلا عن الحميدى فى كتابه الأمانى الصادقة ٠

(٤) سيرى القارىء حين مراجعته النسخة الفرنسية اختلافا بسيطا اقتضاه الوضع الفرنسى ، وقد آثرنا فى هذه الترجمة العربية ايراد النص كما هو مذكور فى المصادر العربية (المترجم)

(٥) ذلك هو القاضى محمد بن بشير بن شراحبيل المعافرى ، راجع عنه على وجه الخصوص الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٥١ وما بعدها ٠

(٦) هو محمد بن اسحق بن السليم الذى أصبح قاضى قرطبة عام ٣٥٦هـ (= ٩٦٧م) ، أما فيما يتعلق به فراجع الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٢٠٧ ٠

(٧) أورد هذه القصة أيضا عبد الواحد المراكشى فى كتابه المعجب ، ص ١٨ ، وترجمته ص ٢١ـ٢٢ ، نقلا عن الحميدى حين كلامه عن ابن حزم ، أما مضيف ابن أبى عامر فاسمه : أبو عبد الله محمد بن اسحق التميمى ٠

(٨) راجع ابن عبد الملك المراكشى (مخطوط باريس ، رقم ٦٨٢) ، ملحق عربى ورقة ١٠١ ٠

(٩) وردت بشأنه كلمة موجزة فى المقرى : نفح الطيب ، ٩٠٤/١ ، راجع أيضا ابن الأبار : تكملة الصلة ، رقم ١٢٥١ ، ص ٤٣٧ـ٤٣٨ ٠

(١٠) فيما يتعلق بهذا الشخص راجع ما ورد عنه فى طبقات الأمم لصاعد الأندلسى (طبعة لويس شيخو) ص : ٧٨ ، وابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (طبعة بولاق) ، ١٢٩٩ هـ ، ٤٣/٢ ، كذلك الضبى : بغية الملتمس ، رقم ١٦٤٠ ، ص : ٤٨٣ ، والمقرى : نفح الطيب ١١٩/٢ ٠

(١١) راجع ابن عذارى : البيان ، ٢٧٣/٢ـ٢٧٤ ، وترجمته ص : ٤٢٤ـ٤٢٦ ، وعبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص : ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ ، وترجمته ص ٢١ ، ٣٢ ، وابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٤٨ـ١٥٢ ، وهذه هى سلسلة نسبه الكامل : أبو عامر محمد بن أبى حفص عبد الله (وأمه بريهة) بن محمد (وابن بنت يحيى الحاجب) بن عبد الله بن عامر (نديم السلطان) بن أبى عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك ٠

(١٢) راجع أبيات محمد بن حسين التبنى الواردة فى ابن عذارى : البيان المغرب ٢٧٣/٢ ، وترجمته ص ٤٢٥ ٠

(١٣) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء والصفحة ، ٢٧٤ ، وترجمته ص : ٤٢٦ ٠

(١٤) راجع ابن الابار الحلة السيراء ، ص ١٥٢ ٠

(١٥) المقرى : نفح الطيب ، ٢٥٩/١ ٠

(١٦) الخشني : تاريخ قضاة قرطبة ، ص ٢٠٧ ٠

(١٧) البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمته ص : ٣٨٩ ٠

(١٨) فى الترجمة الانجليزية ، ٢٣ فبراير ٠ (المترجم) ٠

(١٩) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٦٧/٢ـ٢٦٨ ، وترجمته ص : ٤١٥ ، وكذلك يوجد اسم « عامر » منقوشا على سكة ذلك العهد ٠

(٢٠) قارن ذلك بما جاء فى المقرى : نفح الطيب ، ٢٥١/١ ٠

(٢١) المقرى : نفح الطيب ، ٦١/٢ ٠

(٢٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٦٨/٢ ، وترجمته ص : ٤١٦ـ٤١٧ ، وكذلك المقرى : نفح الطيب ٦١/٢ ٠

(٢٣) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء والصفحة ، وترجمته ص ٤١٧ ٠

(٢٤) ابن عذارى : شرحه ، ص ٢٦٩ ، وترجمته ص : ٤١٧ ٠

(٢٥) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٦٧ـ٢٦٨ ، وترجمته ص : ٤١٥ـ٤١٦ ٠

(٢٦) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ١٦٠ ، ١٧٠ ، وترجمته ، ص ٣٠٤ ، ٣١٩ ٠

(٢٧) نفس المرجع والجزء ، ص ٢٧٥ ، وترجمته ص : ٤٢٩ ٠

(٢٨) واسمه الكامل هو : محمد بن قاسم بن طملس ، ويتضح من البيان المغرب ضبط اللفظ الاخير ، أما القاموس فقد ضبطه بفتح الطاء والميم وتشديد اللام المفتوحة ، وقد جاراه فى هذا الضبط مترجم البيان ـ (المترجم) ٠

(٢٩) أما عن هذه الناحية التى درسها البكرى ، ص ٤٦ ، فيمكن مراجعة البيان المغرب ، ٤٠٦/٢ ، حاشية رقم ١ ٠

(٣٠) كانت هزيمة بن طملس فى ناحية تعرف بفحص مهران ٠ ـ (المترجم) ٠

(٣١) أسس هذا الحصن جماعة من الادارسة عام ٣١٧هـ (= ٩٢٩ م) ٠ أما فيما يتعلق بحجر النسر وتأسيسه فيمكن مراجعة ما كتبه ابن حوقل : المسالك والممالك ، ٥٦/٢ ، وكذلك الادريسى ، Description de l'Afrique, p. 203. ، وكذلك البكرى فى Description, pp. 250-257. وانظر ابن خلدون . العبر ، الجزء الأول ، فى الملحق ٠

(٣٢) ترجمها دوزى فى الفرنسية بصخرة النسور Roche des Aigles وتبعه فى ذلك ستوك فى الترجمة الانجليزية فجعلها The Eagles' Roch — (المترجم) •

(٣٣) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع بن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ — ٢٦٩ ، وترجمته ص : ٤٠٤ـ٤١١ ، ٤١٧ـ٤١٨ ، وابن ابى زرع : روض القرطاس ، ص ٥٦ـ٥٨ ، وابن خلدون : العبر ٢/١٤٩ـ١٥٠ ، ٣/٢١٥ـ٢١٦ من ترجمته •

(٣٤) البيان المغرب ، ٢/٢٦٥ـ٢٦٧ ، وترجمته ص ٤١١ـ٤٢٩ •

(٣٥) البيان المغرب ، ٢/٢٦٥ ، وترجمته ص ٤١١ •

(٣٦) البيان المغرب ، ٢/٢٦٩ـ٢٧٦ ، وترجمته ص : ٤١٨ـ٤٢٩ •

(٣٧) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٥٨ ، وابن خلدون : العبر ، ٢/١٥٢ من الترجمة •

(٣٨) راجع بن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٦٥ ، وترجمته ص ٤١٢ ، وابن خلدون : العبر ٢/١٥١ـ١٥٢ ، ٣/٢١٦ •

(٣٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٦٥ ، وترجمته ص ٤١١ ، وقارن ذلك بما جاء فى ابن خلدون : العبر ، ٣/٢١٦ •

(٤٠) وردت كلمة « الاحوس » فى الترجمة الانجليزية • — (المترجم) •

(٤١) البيان المغرب ، ٢/٢٦٦ ، وترجمته ص : ٤١٣ •

(٤٢) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص : ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، وترجمته ص ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ •

(٤٣) المقرى : نفح الطيب ، ٢/٥٩ •

(٤٤) يسميه ابن عذارى بالجعفرى ، أما « جعفر فاسم اطلقه الحكم على « صبح » • انظر فى ذلك البيان المغرب ، ٢/٢٦٩ ، وترجمته ص : ٤١٨ ، ولهذا السبب سمى هذا العبد الطليق بالجعفرى ، أو « الجعيفرى » ، هذا ويلاحظ أن الخلفاء — فى بغداد — كانوا يحبون أن يطلقوا أسماء الرجال على نسائهم •

(٤٥) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٦٥ـ٢٦٦ ، وترجمته ص ٤١٣ •

(٤٦) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٤٩ ، وترجمتـه ص : ٣٨٥ ، ويلاحظ انه فى صفحة ٢٦٩ من الاصل العربى من البيان (ص ٤١٨ من الترجمة) وردت كلمة « رمضان » بدلا من صفر ، وهذا خطأ •

(٤٧) البيان المغرب ، ٢/٢٦٨ ، وترجمته ص : ٤١٦ •

حواشي الفصل السابع

(١) ويعرف في المراجع العربية بالنظامي .

(٢) هذا النص الذى أورده المؤلف مأخوذ من البيان المغرب ٢٧٦/٢-٢٧٧ - (المترجم)

(٣) راجع فيما يتعلق بترجمته ما كتبه دوزى فى كتابه :
Notices sur quelques manuscrits arabes, 1851, p. 141-147.

والمراجع الواردة فى الحواشى هناك . (المترجم) .

(٤) تفسيرا وتأكيدا لما أورده دوزى فى المتن اعلاه ننقل ما جاء فى ابن عذارى ، شرحه ٢٧٧/٢ : « وقد عزما على رد الأمر للمغير بن الناصر أخى مولاهما الحكم خشية من ايثاره على ابنه هشام لصغر سنه وانكار الناس لتقديمه ، على أن يقر ابن اخيه هشاما على العهد بعده ، فيمنان على المغيرة بسوق الخلافة اليه ويبقيا لمولاهما بارتقاب كبر ولده ، ويكون الملك فى ايديهما بحاله . » المترجم » .

(٥) ليس هناك من المراجع ما يشير الى أخوة الدم بين فائق وجوذر ، لكن جرت العادة باطلاق هذا اللفظ على الخصيان ، انظر عبارة ابن الخطيب الواردة فى :
Dozy : Recherches, I, p. 37.
وانظر أيضا الترجمة الفرنسية للبيان المغرب ، ٤٣٢/٢ ، حاشية رقم ١

(٦) هذا ما جاء فى ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧٧/٢ حيث اشار الى انه قال . « هل انا الا تبع لكما وانتما صاحبا القصر ومدبرا الأمر ؟ » والظاهر أن جل اعتماد دوزى كان على ابن عذارى وحده فى هذه الناحية .

(٧) فى الأصل الفرنسى « وابن أخته » ، ولكن ابن الأبار فى الحلة السيراء ، ص ١٤٢ يذكر أنه « أخوه » .

(٨) ابن الأبار : نفس المرجع ، ص ١٤٨ - ١٥٣ .

(٩) نفس المؤلف والمرجع ، ص : ١٥٤ - ١٥٥ .

(١٠) هذه العبارة كلها مأخوذة من ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧٩/٢ ، ويلاحظ أن دوزى قد أورد هذه العبارة فى شكل خطابى على لسان المغيرة ، وكذلك فعلت الترجمة الانجليزية ، اما المقرى : نفح الطيب ، ٦٠٩٢ فنراه لم يورد فى هذا الصدد سوى هذه الجملة « أنا سامع مطيع !! » . - (المترجم) .

(١١) اضافة الى ما يقوله دوزى فى المتن وتأكيدا لهذا المعنى تسوق ما ذكره المقرى فى نفح الطيب ، ٢٧٩/٢ ، فى هذا الصدد حيث قال فى شأن جوذر وفائق انهما « انكفآ الى جعفر فاظهرا له السلامة والاستبشار بما اتاه الله ، والاعتذار عما رآياه ، وقالا له : ان الجزع اذهلنا عما ارشدك الله اليه فجزاك الله عن ابن مولانا خيرا ، وعن دولتنا وعن المسلمين هـ ، فاظهر لهما بعض القبول » . - (المترجم) .

(١٢) كل ما سبق وارد بالتفصيل فى البيان المغرب ، ٢/٢٧٦_٢٧٩ ، وترجمته ص ٤٣٠ _ ٤٣٥ ، وراجع ايضا المقرى : نفح الطيب ٢/٥٩_٦٠ ٠

(١٣) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٧٠_٢٨٠ ، وترجمته ص : ٤١٩_٤٣٠ ، وابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٤١ ٠

(١٤) المقرى : نفح الطيب ، ٢/٦٠ ٠

(١٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٧٥_٢٧٦ ، وترجمته ص ٤٢٩ ٠

(١٦) المقصود بذلك المصحفى وابن ابى عامر _ (المترجم) ٠

(١٧) المرجع الوحيد فى كل ما يتعلق بهذه الحوادث هو ابن عذارى البيان المغرب ، ٣/٢٨٠_٢٨١ ، وترجمته ص : ٤٣٥_٤٣٨ ٠

(١٨) نزيد على ما قاله المؤلف فى المتن أن الفرحة استولت على الأندلسيين واستبدت بهم اذ أحسوا أنهم تخلصوا من الصقالبة وشرورهم ، واطمأنت نفوس القوم فقد زالت دولتهم ، ولم يكتموا ذلك فى أحاديثهم وظهر على السنة شعرائهم حتى ليقول أحدهم :

أخـرج من قصر أمير الهـدى كل فتى منبسـط حـائر
فمن رأينـا منهمو قـال : لا مـاس قبل النـاس بالشـاكر
فخف ظهـر الملك المرتضى اذ خف من ثقـلهم الظـاهر

والقول فى ذلك كثير ، والشعر جم ، والفرحة عامة _ (المترجم) ٠

(١٩) نزيد على ما قاله المؤلف ابن الابار من انه « لما انتقض العدو على اثر ذلك وخيف الاضطراب ولم يكن عند المصحفى غنى ولا دفاع ضمن محمد بن ابى عامر لصبح أم هشام سكون الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها ، على أن يمد بالمال ويميل اليه قواده » ، انظر الحلة السيراء ، ص ١٤٨ _ (المترجم) ٠

(٢٠) يسمى المؤرخون العرب هذه القلعة باسم حصن الحامة ، وهى من أرض جليقية ، وهذه الكلمة ترجمة حرفية لكلمة Baleneos كما هو مذكور فى : Sampiro : Chronic. c. 23. أما اليوم فتعرف هذه القلعة باسم : Los Banos أما فيما يتعلق بحملة ابن أبى عامر فراجع ابن عذارى : البيـان المغرب ، ٢/٢٨٢ ، وترجمته ص : ٤٣٩ ٠

(٢١) ومن شعره الذى يفخر فيه بنفسه ومخاطراته قوله :

رميت بنفسى هـول كل كريهـة وخاطرت ، والحـر الكريم مخـاطر
وما صـاحبى الا جنـان مشيع وأسـمر خـطى وأبيـض باتـر
وانى لزجـاء الجيـوش الى الوغى أسـود تلاقيهـا أسـود خوادر
ومن شـيمى أنى على كل طـالب أجود بمـا لا تتقيـه المعـاذر

راجع البيان المغرب ، ٢/٢٩٢ ، وابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١٥٢ ، وقد جاء فى هذا المرجع الأخير قوله :

الم ترنى بعت الاقامة بالسرى ولين الحشايا بالخيول الضوامر
تبدلت بعد الزعفران وطيبه صدا الدرع من مستحكمات المسامر
أرونى فتى يحمى حماى وموقفى اذا اشتجر الأقران بين العساكر
أنا الحاجب المنصور من آل عامر بسيفى أقد الهام تحت المغافر
تلاد أمير المؤمنين وعبده وناصحه المشهود يوم المفاخر
فلا تحسبوا أنى شغلت بغيركم ولكن عهدت الله فى قتل كافر

(٢٢) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٨١ـ٢٨٢ ، وترجمته ص : ٤٣٧ـ٤٣٩ ، والمقرى : نفح الطيب ، ٢/٦٠ـ٦١ .

حواشي الفصل الثامن

(١) ذكر ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٤٢-١٤٧ ، جملة من أشعاره فراجعها هناك .

(٢) ابن الأبار : نفس المرجع ، ١٤١-١٤٢ . وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٤١/٢ ، ٢٧١ ، وترجمته ص : ٣٥٦ ، ٤٢٠ ، وهناك كثير من المراجع عن المصحفى ، أما اسمه الكامل فأبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر القيسى ، ويمكن للقارىء الرجوع الى ما ذكره الضبى عنه فى بغية الملتمس ، رقم ٦١٤ ، ص ٢٤٠ .

(٣) المقرى : نفح الطيب ، ٦٠/٢ .

(٤) ابن الأبار : الحلة السيراء : ص ١٤٢ .

(٥) المقرى : نفح الطيب ، ٢ /٦٠ .

(٦) المقرى : نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٧) شرحه ، ص ٦١ .

(٨) راجع ابن خلكان ، ترجمة دى سلين ، ١٣٠/٢ .

(٩) لم يعد لهذه الناحية وجود اليوم ، راجع البيان المغرب ، ٤١٠/٢ ، حاشية رقم ١ .

(١٠) لم يشر دوزى الى المصدر الذى رجع اليه ، ولكنا نقلناه من ابن عذارى : البيان المغرب ٢٨٣/٢ ، ويلاحظ أن المقرى : نفح الطيب ٦١/٢-٦٢ يوجز فى هذه الناحية ايجازا شديدا - (المترجم) .

(١١) راجع ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٤٢ ، وقارنها بما جاء فى ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٨٤/٢ ، وترجمته ص : ٤٤٢ .

(١٢) انظر ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص : ٢٩٠ ، وترجمته ص : ٤٥١ .

(١٣) وذلك شريكا لأبى جعفر المصحفى - (المترجم) .

(١٤) انظر ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص : ١٤٢ .

(١٥) لم ينفرد ابن عذارى وحده بذكر هذا التاريخ بل ذكره أيضا النويرى (طبعة واميرو جاسبرو) ، ص ٢١٨ .

(١٦) راجع فى كل ما سلف ابن عذارى : المرجع السابق ٢٨٢/٢-٢٨٥ ، وترجمته ص ٤٣٩-٤٤٤ ، والمقرى : نفح الطيب ، ٦١/٢ ، ٦٢ .

(١٧) ابن عذارى : شرحه ٢٨٨/٢ ، وترجمته ص ٤٤٨-٤٤٩ ، والمقرى : نفح الطيب ، ٣٩٥/١ ٠

(١٨) ابن عذارى : المرجع السابق ، ٢٨٥/٢ ، وترجمته ص ٤٤٤ ، والمقرى : نفح الطيب ٦٢/٢ ، اما فيما يتعلق بهشام فراجع : Dozy : Recherches, t. II p. 237.

(١٩) فيما يتعلق بوصف هذا القصر وأحداث هذه الفترة راجع ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ٢٠٠/١-٢٠١ (تحقيق د/شوقى ضيف) دار المعارف القاهرة ١٩٦٤ - (المترجم) ٠

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب ٢٨٥/٢ ، وترجمته ص : ٤٤٤ ، ونفح الطيب ٦٢/٢ ٠

(٢١) وردت هذه الأبيات فى الفتح ، ص ٧ ، والبيان المغرب ٢٩١/٢ وترجمته ص ٤٥٢ ، والحلة السيراء ص ١٤٧ ، ونفح الطيب ٢٧٥/١ ٠

(٢٢) وردت هذه الأبيات بصورة أطول من هذه فى الذخيرة لابن بسام ، ق ٤ ، المجلد الأول ، القاهرة ، ص ٥١١ ٠

(٢٣) وذلك فى قوله تعالى : « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها ، أو ردوها » سورة النساء ، آية ٨٦ - (المترجم) ٠

(٢٤) البيان المغرب ، ٢٨٦/٢ ، ٢٩١ ، وترجمته ص : ٤٤٥-٤٤٧ ، ٤٥٢ ، والمقرى : نفح الطيب ٢٧٥-٢٧٦ ٠

(٢٥) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٨٩ ، وترجمته ص ٤٥٠ ٠

(٢٦) مما كتبه الى المنصور بن ابى عامر قوله :

هبنى أسأت فأين العفو والكرم	اذ قادنى نحوك الاذعان والندم ؟
يا خير من مدت الأيدى اليه أما	ترى لشيخ نعاه عندك القلم
بالغت فى السخط فاصفح صفح مقتدر	ولو تشفع فيك العرب والعجم

على أن ذلك لم يرقق عليه قلب المنصور الذى رد عليه ردا غليظا بقصيدة على الروى نفسه ختمها بقوله :

نفسى اذا سخطت ليست براضية　　ولو تشفع فيك العرب والعجم

وهذا البيت وغيره مما يوضح ما انطوت عليه نفسه من حقد كريه كان أولى به أن ينزه نفسه عنه لاسيما وقد بلغ من النفوذ والقوة والتمكن ما بلغ - (المترجم) ٠

(٢٧) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢٨٦/٢ ، وترجمته ص : ٤٤٥ ، والمقرى : نفح الطيب ٣٩٦/١ ٠

(٢٨) البيان المغرب ، ٢٨٨/٢ ، وترجمته ص ٤٤٩ ، وابن الأبار : الحلة السيراء ص : ١٤٣ ، والنويرى : ص ٢١٨ ٠

(٢٩) المقصود بذلك كاتب المنصور بن ابى عامر - (المترجم) ٠

(٣٠) البيان المغرب ، ٢٨٨/٢ -٢٨٩ ، وترجمته ص : ٤٤٩-٤٥٠ ٠

حواشي الفصل التاسع

(١) راجع النويرى ، ص ٢١٩ .

(٢) يقصد بذلك غالبا والد أسماء زوجة المنصور بن أبى عامر – (المترجم) .

(٣) ابن حزم : طوق الحمامة ، طبعة بتروف ، ص ٣٥ .

(٤) لقد اضربنا عن ذكر البيت الذى يلى هذا رغم أن المقرى : نفح الطيب ١/٣٩٦ اورده وذلك لا يغاله فى الفحش مما ينبو عنه السمع ويكره اللسان النطق به – (المترجم) .

(٥) هو أبو عمر يوسف بن هارون الرمادى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، راجع عنه ابن بشكوال : كتاب الصلة : رقم ١٣٧٦ ، ص ٦١٣ ، ٦١٤ ، والضبى بغية الملتمس رقم ١٤٥١ ، ص ٤٧٨–٤٨١ ، والفتح : المطمح (طبعة القاهرة) ١٣٢٥ ، ص ٧٨–٨٣ ، وعبد الواحد المراكشى : كتاب المعجب (الترجمة) ص ١٨ ، حاشية رقم ١ ، والثعالبى : يتيمة الدهر (طبعة دمشق ١٣٠٤هـ) ١/٣٦٥ ، والمقرى : نفح الطيب ٢/٤٤٠ ، وكذلك فهرسته .

(٦) قارن ما جاء فى عبد الواحد المراكشى : ص ١٧ ، وترجمته ص ٢٠ بشعر الرمادى الوارد فى الحاشية التالية .

(٧) انظر الشعر الوارد فى المقرى نفح الطيب ٢/٤٤٢ – (المترجم) .

(٨) سورة المائدة ، آية رقم ٥ .

(٩) راجع ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١٥٤–١٥٥ ، وابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٤١–٤٢ ، وانظر كذلك المقرى : نفح الطيب ، ١/٢٨٦ .

(١٠) راجع المراكشى : المعجب ، ص ١٧ ، وترجمته ص : ٢٠–٢١ ، الا أنه ظهر أن الرمادى قد عفا عنه فيما بعد ، لأننا نجده مذكورا بين الشعراء الذين صحبوا ابن أبى عامر فى حملته التى شنها على برشلونة سنة ٩٨٦م ، انظر ابن الخطيب : الاحاطة (طبعة القاهرة) ٢/٧١ .

(١١) هو أبو محمد بن عبد الله بن ابراهيم الأموى الأصيلى (نسبة الى قبيلة أصيلة Arcila بمراكش) وكان محدثا بارزا وفقيها معروفا ، ومات سنة ٣٩٢ ، راجع الضبى : بغية الملتمس ، رقم ٩٠٦ ، ص ٣٢٧–٣٢٨ ، وابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ٧٥٨ ، ص ٢٠٨–٢٠٩ .

(١٢) هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرطمة بن ذكوان آخر قضاة الجماعة بقرطبة فى عهد الدولة الاموية ، وقد ولد سنة ٣٤٢ هـ ، هذا وقد وردت الاشارة اليه فى ابن بشكوال : كتاب الصلة (نقلا عن ابن حيان) رقم ٦٣ ، ص ٢٠٨ــ٢٠٩ ــ (المترجم) ٠

(١٣) هو أبو بكر بن الحسن الزبيدى النحوى الأندلسى الشهير ، مات فى النصف الثانى من القرن الرابع للهجرة ، راجع الضبى : بغية الملتمس ، رقم ٨٠ ، ص ٥٦ــ٥٧ ، وابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣٥٥ ، ص ٣٨٣ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان ، ٨٣/٣ ، والفتح : المطمح ، ص ٦١ــ٦٣ ، راجع ايضا الترجمة الفرنسية للبيان المغرب ٤٨٨/٢ ، حاشية رقم ٣ ٠ ــ (المترجم) ٠

(١٤) راجع صاعد الطليطلى : كتاب طبقات الامم (طبعة شيخو) ص : ٦٧ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٣١٥/٢ ، وترجمته ص : ٤٨٧ــ٤٨٨ ، والمقرى : نفح الطيب ١٣٦/١ ٠

(١٥) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٣١٥/٢ ، وترجمته ص ٤٨٧ ، وقارن ذلك بالأسطر الثلاثة الأخيرة الواردة فى المكتبة العربية الصقلية (جمع أمارى) ٠
Amari : Biblioteca Arabo-Sicula, p. 674.

(١٦) انظر على سبيل المثال ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٥١ــ١٥٢ ٠

(١٧) راجع المقرى : نفح الطيب ٢٦٦/١ ٠

(١٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٣٠٩/٢ــ٣١٠ ، وترجمته ص ٤٨٠ ، والمقرى : شرحه ، نفس الجزء والصفحة ٠

(١٩) المقرى : نفس المرجع ٥١/٢ ٠

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب ٢٧٠/٢ ، وترجمته ص ٤١٩ ٠

(٢١) وكان ذلك فى سنة ٣٦٨ كما ذكر الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨١ ٠

(٢٢) فيما يتعلق بالزاهرة راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢٩٤/٢ــ٢٩٥ ، وترجمته ص ٤٥٧ــ٤٥٨ ، والمقرى : نفح الطيب ، ٣٨٠/١ ، ومقال ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « مدينة الزاهرة » ٠

(٢٣) راجع البيان المغرب ، ٢ /٢٩٦ــ٢٩٨ ، وترجمته ص : ٤٥٩ــ٤٦٠ ٠

(٢٤) البيان المغرب ، ٢٩٦/٢ــ٢٨٩ ، وترجمته ، ص ٤٥٩ــ٤٦٠ ٠

(٢٥) Dozy : Recherches, t. I, p. 81-83.

(٢٦) انظر ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٧٨ ٠

(٢٧) راجع ابن خلدون : العبر ٥٥٦/٢ ، ٢٣٧/٣ ٠

(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٤٠/١ ، ٢٣٧/٣ ٠

(٢٩) فيما يتعلق ببلجين وأسرته راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥٨/٢ وما بعدها ، وترجمته ص ٣٩٩ وما يليها ، وابن خلدون : العبر (الترجمة) ٥٥٣/٢ وما بعدها ٠

(٣٠) راجع ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ص ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣١٦ ، وترجمته ص ٤٤٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٩٠ ٠

(٣١) راجع المقرى : نفس المرجع ص ٢٧٣ ، السطر الاول .

(٣٢) المقرى : نفس المرجع ١/ ٢٧٢ .

(٣٣) المقرى : نفس المرجع والجزء والصفحة ، وانظر أيضا :
Dozy : Recherche , t. I, append, p. xxx.

(٣٤) المقرى : شرحه ، ١/١٨٦ .

(٣٥) ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١٠٣ .

(٣٦) راجع المقرى : نفح الطيب ٢/٦٤ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٩٩ ، وترجمته ص : ٤٦٤ ، وابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٦١ ، وراجع أيضا ابن الابار فى :
Dozy : Recherches, t. I, append, p. xxx.

اما فيما يتعلق بالتاريخ فراجع نفس المرجع ، ١/١٧٦ ، وكذلك :
Codera : Boletin de là Roy. Acad. de Historia, t. XXXII, p. 101.

(٣٧) الثابت انه مات يوم ٤ من المحرم سنة ٣٧١ هـ .

(٣٨) هذه الكلمة تعريب لكلمتى Pierre Sécha وأما اسمه الكامل فهو أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحكم الربضى ، أما نعته بالبطرشك فالأرجح أن ذلك نسبة الى بخله ، وان قال ابن الابار « البطرشك : ومعناه الحجر اليابس » ، انظر ايضا : Dozy : Recherche , t. I, p. 173-181.

(٣٩) ويعرف باسم « شانجة بن غرسية » أو « شانجة اباركة » Sancho Abarka – (المترجم) .

(٤٠) وتقع « روطة » هذه Rueda أو « روضة » فى مقاطعة بلد الوليد .

(٤١) Cf. Chronic. du Moine de Silos, c. 71 ; Dozy : op. cit., 1. p. 180-181.

(٤٢) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٩٩–٣٠٠ ، وترجمته ص : ٤٦٥ .

(٤٣) راجع المقرى : نفح الطيب ١/٢٥٨ .

(٤٤) العبر لابن خلدون ٢/١٥٢ ، ٥٥٤ ، ٣/٢١٦ .

(٤٥) انظر ابن عذارى : البيان المغرب : ٢/٣٠٠–٣٠١ ، وترجمته ص : ٤٦٦–٤٦٧ ، وراجع أيضا المقرى : نفح الطيب ، ١/٢٦٠ .

حواشي الفصل العاشر

(١) راجع ابن خلدون فى الطبعة الثالثة من :
Dozy : Recherches, t. II, pp. 99 et 174.

(٢) Sampiro : Chroni. c. 29; Chronicon Iriense, c. 12.

(٣) Dozy : op. cit., I. 179-180.

(٤) ابن خلدون فى Dozy : op. cit., I, p. 99.

(٥) Dozy : op. cit., I, p. 180.

(٦) Dozy : oo. cit., t. I, p. 99.

(٧) Chronicon Irien e, c. 12. وابن خلدون فى دوزى ، المرجع السابق ١/١٠٠ .

(٨) ابن خلدون فى دوزى ، المرجع السابق ، ١/١١٤ـ١١٥ .

(٩) يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة خلت لذى الحجة سنة ٣٧٤ وهو الخامس من مايو ، راجع ابن أبى الفياض فى ابن الآبار : الحلة السيراء ، ص ٢٥٢ ، وكان يوم ٥ مايو من سنة ٩٨٥ م يطابق يوم الثلاثاء .

(١٠) يذكر ابن الخطيب فى مقاله عن المنصور فى الاحاطة (طبعة القاهرة ، ٢/٧١ ، ٧٢) قائمة بأسماء هؤلاء الشعراء الذين اصطحبهم المنصور معه ــ (المترجم) .

(١١) أخذ بنو الخطاب منذ زمن ابن الآبار ــ اعنى فى القرن الثالث عشر الميلادى ــ يزعمون انهم عرب ، غير أن أسلافهم من أهل القرن العاشر لم يفكروا ابدا فى الانتساب الى هذا الأصل .

(١٢) يقول ابن أبى الفياض « ان ذلك كان لمدة ــ ثلاثة وعشرين يوما ، غير أننا اتبعنا ما ذكره ابن حيان .

(١٣) راجع ابن الآبار : الحلة السيراء ، ص ٢٥١ـ٢٥٢ .

(١٤) ابن الخطيب : الاحاطة ٢/٧١ .

(١٥) سقطت برشلونة ــ كما جاء فى ابن الخطيب : الاحاطة ، ٢/٧١ ــ يوم الاثنين منتصف صفر سنة ٣٧٥ ، وهو يوافق يوم ٦ يوليو ٩٨٥م ، ولا تدع الوثائق العربيـة مجالا للشك فى تحديد سنة سقوط برشلونة ، وهى تتفق تماما مع الوثائق اللاتينية التى أوردها العالم « بوفارول » الذى يذهب الى أن سقوطها جاء بعد سنة من ذلك التاريخ ، ولم يلاحظ بوفارول أن رأيه يناقض الوثيقة التى اعتمد عليها ؛ كما أن عبارة Kalendarum Julii feria quarta الواردة فى وثيقتين تشير الى أن بدء الحصار مطابق تمام المطابقة لسنة ٩٨٥ ، وليس للسنة التالية له .

(١٦) Bufarull : Les Condes de Barcelona, t. I, pp. 163-164.

(١٧) راجع ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٢٥١ ، كما أن المنصور قام بعدة حملات ضد كونت قشتالة وملك نقارة ، وهى حملات لا توجد لدينا التفاصيل الكافيةعنها ٠

(١٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٤٨/٢ ، وترجمته ص ٣٥٠ ، كما نرى عدم اتفاق كل من ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ـ ص ٢٤ .Annales, p. 394 وابن خلدون : العبر ١٢/٢ ، ٢٥٩/٣ ٠

(١٩) راجع ما جاء عنهُ فى هذا الجزء من الترجمة العربية ٠ ـ (المترجم) ٠

(٣٠) يقصد المؤلف بذلك العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله ـ (المترجم) ٠

(٣١) يلاحظ ان المؤرخين الذين يقولون بأن المنصور أرسل أيضا الى أفريقيــة جيشــا بقيادة ابنه عبد الملك المظفر انما يخلطون بين هــذه الحمــلة وبين حمــلة أخرى بقيادة زيرى سوف نتكلم عنها فيما بعد ، ذلك انه فى الوقت الذى نحن بصدده لم يكن عبد الملك يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، راجع النويرى .Histoire d'Espagne. p. 221 اما اسم عسقلاجة الحقيقى فهو عبد الله بن عمرو ٠

(٢٢) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٥٨ـ٥٩ ، وابن خلدون : العبر ١٥٢/٢ ، ٢١٩/٣ ، ٢٧٣ ، وابن عذارى : البيان المغرب : ٣٠٢/٢ ، وترجمته ، ص ٤٦٧ـ٤٦٨ ، وابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١٥٤ ٠

المنصور كان رجلا شديد الاستقامة ٠

(٢٤) وردت هده الابيات باكملها فى ابن عذارى : البيان المغرب ٣٠١/٢ـ٣٠٢ ، وترجمته ص ٤٦٨ ، وابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١١٩ ، والمقرى : نفح الطيب ، ٢٨٩/١ ٠

(٢٥) راجع المقرى ، شرحه ٣٥٩/١ـ٣٦٠ ، وابن عذارى : البيان المغرب ٣٠٧/٢ ، وترجمته ، ص ٤٧٧ وما بعدها ٠

(٢٦) راجع ابن خلدون ، فى Dozy : Recherches, I, p. 100.

(٢٧) Chronicon Conimbricense (Esp. Sagrada, t. XXIII) pts. I et IV.

(٢٨) انظر وثيقة الأب فلورا فى : Espagna Sagrada, t. XXXVI, no. 14.
وكذلك ما أورده ريسكو فى Histoire de Leon, t. I, p. 228.

(٢٩) Dozy : Recherches, t, I, p. 100.

(٣٠) هذه التفصيلات واردة فى : Lucas de Tuy اما فيما يتعلق بتاريخ هذا القائد واسمه فراجع : Dozy : Récherches, t. I, pp. 181-184. =

= وانظر كذلك القصة التى أوردها ابن الاثير فى الكامل ٢٤/٩ ، وترجمته فى :
Annales, p. 393.

(٣١) انظر الوثائق الأثينية الواردة فى :
Risco : Historia de Leon, p. 228 ; Espagna Sagrada, t. XXXIV p. 308.

(٣٢) راجع ابن خلدون فى : Dozy : Op. Cit., p. 100.

(٣٣) Dozy : op. cit., t. I, p. 224 et suiv.

(٣٤) يقصد المؤلف بالوسط هنا ما يعرف بالحضرة ، وبالشمال الثغر — (المترجم) .

(٣٥) أما التاريخ الوارد فى Annales Complutenses (Esp Sagr.), XXIII, p. 311. فهو تاريخ مغلوط . Annales Foldanes, 383.

(٣٦) فى كل ما يتعلق بهذه الأحداث وما يليها راجع على الأخص ابن عذارى : البيان المغرب ٣٠٢/٢-٣٠٦ ، وترجمته ص : ٤٧٢-٤٧٥ ، وكذلك ابن الابار فى الحلة السيراء .

(٣٧) Dozy : op. cit,, (1 ere. ed.,) t. I, p. 24-27.

(٣٨) راجع عبد الواحد المراكشى : المعجب : ص ٢٤-٢٥ ، وترجمته ص ٣٠ ، وأبا الفداء : ٥٣٤/٢ ، والمقرى نفح الطيب ٥٧/٢ ، والضبى : بغية الملتمس ، ص ٣١٠ ، وابن الاثير : الكامل : ٧٩/٩ ، وترجمته : Annales, pp. 400-401. ، أما فيما يتعلق بموت غرسية فراجع ابن خلدون فى : Dozy, Recherches t. I, p. 106.

وانظر أيضا فى كل ذلك ما أوردته المصادر التالية :
Chronicon Burgense (Espagna Sargada, t. XXIII, p. 309); Annales Compul., p. 313; Annales Compost., p. 320, Ann., Toledo, p. 384.

أما الحوليات المسماة Kal. Ianuarii فيجب أن نقرأ كلمة Iunii بدلا من "Ianuarii"

(٣٩) المتآمر الآخر الذى يقصده المؤلف هو عبد الله البطرشك . — (المترجم) .

(٤٠) راجع الوثيقة رقم ٩٩٠ الواردة فى مجموعة :
Esp. Sagrada, t. XIX, p. 382.

(٤١) راجع ابن خلدون فى الطبعة الثالثة من
Dozy, Recherches, t. I. p. 100, note 3.

(٤٢) Ibid., p. 101.

(٤٣) Ibid., p. 102, note, 1.

(٤٤) ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١١٣ .

(٤٥) راجع ابن الابار فيما نقله دوزى عنه فى الطبعة الاولى من كتابه :
Recherches, t. I, p. 280.

(٤٦) Ibid., t. I, p. 280.

(٤٧) ونضيف الى ما ذكره المؤلف فى المتن أعلاه ما وجهه البطرشك هذا وهو فى حبسه الى المنصور من شعر نقتبس منه القصيدة التالية التى تصور شدة تعلقه بالحياة :

فررت فلم يغن الفــــرار ومن يكن   مع الله لا يعجـــــــزه فى الأرض هارب
ووالله ما كان الفــــرار لحــــــالة   ســـوى حــذر الموت الذى انا راهـب
ولو انني وفقــت للرشـــــد لم أكن   ولكن أمر الله لابد غـــــــــــالب
واجمع كل النــــاس انك قاتـــــلى   وربت ظن ربــه فيــه كـــــــــاذب
وما هو الا الانتقـــــــام فتشـــتفى   وتركك منـــه واجبـــا لك واجب
والا فعفـو يرتـضى الله فعـــــــله   ويجـــزيك منـــه فوق ما انت طـالب
ولا نفس الا دون نفســـــــك فليكن   على قـــدرها قــدر الذى انت واهـب
فما خاب من جدواك منذ كنت ســـائلا   ولا رد دون المبتـــــغى عنـــك راغب
وقد منحت كفـــــاك ما يعجـــز الورى   وعمــت عمـوم الغيث منـك المواهـب
وان هم تأخيـــر لنـفسى فليــــكن   لتلقهـــــا من حاجب الملك حاجب
يسير بهـــا فى الأرض ماش وراكب
فيصرف عنى الخـطب والدهــر غالب
(المترجم)

١١٤- Dozy : op. cit, t. I, p, 279.

حواشي الفصل الحادي عشر

(١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٣١٥/٢ ، وترجمته ص : ٤٨٩ ٠

(٢) راجع ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٧٣ ٠

(٣) راجع ابن عذارى ، نفس المرجع والجزء ، ص ٣١٦ ، وترجمته ص ٤٩١ ٠

(٤) المقرى : نفح الطيب ، ٣٨٩/١ ٠

(٥) المقرى : نفس المرجع والجزء ، ص ٣٩٣ ٠

(٦) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٤١/٣ (طبعة ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٣٠) والنويرى ، ص ٢١٩ ٠

(٧) ابن خلدون : العبر ، ٤١/٢ ، وابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص : ٦٥ ٠

(٨) راجع المقرى : نفح الطيب ٦٤/٢ ، وابن عذارى : البيان المغرب ٢٦٢/١٠ ، وترجمته ص : ٣٧٨ـ٣٧٢ ، وابن خلدون : العبر ، تاريخ البربر ، ٢٤٣/٣ ، وترجمته ص ٢٤٣ ، وابن أبى زرع : روض القرطاس : ص ٦٥ـ٦٦ وابن الأبار فى الطبعة الأولى من : Dozy : Recherches, t. I, p. 285.

(٩) انظر الأبيات الأخيرة من مرثية ابن دراج القسطلى لصبح فى الثعالبى : يتيمة الدهر ٤٣٨/١ ٠

(١٠) راجع ابن أبى زرع وابن خلدون فيما سبق ٠

(١١) ورد فى تعليق بالترجمة الانجليزية بناء على ما جاء فى :
F. Myrich : The Church in Spain, (1892), p. 237.

أنه جاء فى رواية أخرى أن البابا ليو الأول هو أول من أذاع هذا النبأ ـ (المترجم)٠

(١٢) فى الترجمة الانجليزية « الفونســـو الثـــانى » والصحيح هو الوارد بالمتن ٠ ـ (المترجم) ٠

(١٣) انظر ما جاء فى Florey : Esp. Sagr., t. iii and xix. وقارنه بما ذكره ابن عذارى : البيان المغرب ٣١٦/٢ـ٣١٧ ، وترجمته ، ص ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ٠

(١٤) فيما يتعلق بشنت ياقب راجع المؤلفين العرب الذين ذكرهم ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الاسلامية تحت مادة « شانت ياقب » ٠

(١٥) جاء فى المرجع الذى اعتمدنا عليه وهو ابن عذارى « مدينة غاليسية أى عاصمتها » ، وكلمة « غاليسية » هنا قاصرة جدا فهى تعنى الولاية البرتغالية التى تسمى اليوم « بيرة » وكثيرا ما كانت هذه الولاية مملكة عاصمتها « بازو » انظر فى ذلك :
Dozy : Recherches, t. I, p. 150.

(١٦) يشير ابن عذارى فى البيان المغرب ٢١٧/٢ ، وترجمته ص ٤٩٣ الى اقليم فى هذه الولاية يسمى « فلطارش » Valadares وقد ورد اسم هذا الاقليم أيضا فى الوثيقة رقم ١١٥٦ ، المطبوعة فى : Esp. Sagrada, t. XXII, p. 275.

(١٧) فيما يتعلق بالأخبار السابقة راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٣١٦/٢ـ٣١٧ ، وترجمته ص ٤٩١ـ٤٩٢ .

(١٨) يستفاد من وثيقة « برميدو » الثانى المطبوعة فى : Espagna Sagrada, t. XIX, p. 381. أن هذا الفج واقع على شاطىء نهر منهو .

(١٩) راجع ابن حيان فى ابن عذارى : شرحه ٣١٢/٢ ، وترجمته ص ٤٨٣ـ٤٨٤ . والمقرى : نفح الطيب ، ٢٦٨/١ ، ويظهر ان ابن عذارى أضاف من عنده عبارة « الى باب الزهراء » .

(٢٠) وهى « مليقة » عند ابن عذارى .

(٢١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٣١٨/٢ـ٣١٩ ، وترجمته ص : ٤٩٣ـ٤٩٥ ، وكل ما يطالعه المرء عن هذه الجملة مما هو وارد فى :
Historia Compest., (Esp. Sagr.) t. XX, L.I., c. 2881.
انما هو صحيح ، أما ما يزعمه هذا المؤرخ من أن Rodrigo Valcsquez قد أصبح من حلفاء المنصور فهو خطأ لأنه مات قبل ذلك الوقت بتسعة عشر عاما ، إنظر فى ذلك Espagna Sagrada, t. XIX, p. 166-169.

أما فيما يتعلق بالعلاقات الواردة فى الحوليات اللاتينية عامة فيمكن مراجعة :
Dozy : Recherches, t. I, p. 199.

(٢٢) راجع ابن خلدون فى : Dozy : op. cit., I, p. 101.

(٢٣) راجع المقرى : نفح الطيب ١٤٦/٢ ، وكذلك :
Rodrigo de Tolede : De Relves Hispanieis L. V. c. 16 ; Lucas du Tuy : Chronicon mundi.

(٢٤) راجع ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٦٦ـ٦٧ ، وابن خلدون : العبر ، تاريخ البربر ٢٤٤/٣ـ٢٤٨ .

حواشي الفصل الثاني عشر

(١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٣١٠/٢ ، وترجمته ص : ٤٨٠-٤٨١ وابن الخطيب : الاحاطة ، ص ٧٢ ، والمراكشي : المعجب ص ٢٧ ، وترجمته ص ٣٢ ·

(٢) وتقع في اقليم رية على بعد تسعة فراسخ من ناجرة ·

(٣) راجع المقرى : نفح الطيب ، ٦٥/٢ ، وابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١٥١ ، وابن الخطيب ، الاحاطة ٧٣/٢ ، وابن بسام : فى الذخيرة ، وعبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٦ ، وترجمته ص ٣٢ ، ويلاحظ أن المرجع الأخير يجعل وفاة المنصور بن أبى عامر فى سنة ٣٩٣ هـ ·

(٤) ابن الخطيب : الاحاطة ، ص ٧٣ ، والمقرى : نفح الطيب ، ٢٥٩/١ ·

(٥) Chron. Borgense (Esp. Sagr., t. XXII), p. 309.

(٦) Charte de 1027 ; Llorente : Notices de los tres Provincias Vascongades (Madrid, 1806). t. III, p. 355.

(٧) Chron. du Moine de Silos (Esp. Sagr., t. XVII), c. 72.

(٨) انظر المقرى : نفح الطيب ، ٣٩٢/١ ، وقارنه بما جاء فى Rodrigue de Tolède : Histor. Arabum, c. 31.

(٩) المقرى : نفس المرجع والجزء ، ص ٣٩٢ ·

(١٠) شرحه ٢٧٤/١ ·

(١١) المقرى : نفس المرجع والجزء والصفحة ·

(١٢) هذه هى القراءة الصحيحة لاسمه ، اذ قراه Dozy : Recherches, t. II, p. 237, note 3. « سنبسى » بضم السين وسكون النون وضم الباء الموحدة ، وقد ذكره الضبى فى كتابه بغية الملتمس ، ص ٤٣٢-٤٣٣ ، باسم قاسم بن محمد القرسى الشبانسى · — (المترجم) ·

(١٣) هو أبو عمرو أحمد بن عبد الملك بن هشام الاشبيلى المعروف بابن المكوى ، راجع عنه ابن بشكوال : كتاب الصلة رقم ٣٢ ، ص ٢٣-٢٤ ، والجميدى (مخطوط اكسفورد) ورقة رقم ٥٦ ب ، ٥٧ أ ، والمقرى · نفح الطيب : ١١٧/٢ ، ونضيف الى ما ذكره دوزى ما ترجمه به ابن بشكوال فى كتابه الصلة حيث قال « انه كان حافظا للفقه مقدما فيها على جميع أهل عصره ، عارفا بالفتوى على مذهب مالك ، ولا يداهن السلطان ولا يميل معه بهواه ، وكان القريب والبعيد عنده فى الحق سواء ، ودعى الى القضاء بقرطبة ·· توفى ليلة السبت لصلاة العصر لسابع خلون من جمادى الأولى سنة ٤٠١هـ ، وكانت جنازته عظيمة شهدها واضح حاجب هشام بن الحكم ، وكان مولد ابن =

المكوى سنة ٣٢٤ ، وسمع أبو محمد بن الشقاق الفقيه يقول على قبره يوم دفنه : رحمك الله يا أبا عمرو فضحت الفقهاء بقوة حفظك فى حياتك ولتفضحنهم بعد مماتك ، أشهد انى ما رأيت أحدا حفظ السنة كحفظك ولا علم من وجوهها كعلمك » ــ (المترجم) ٠

(١٤) كان هذا القاضى يعرف بابن السريح الذى سيشير اليه المؤلف دوزى بعد قليل فى المتن ــ (المترجم) ٠

(١٥) Dozy : op. cit., t. II, p. 237-240. وهذه العبارة التى قالها المنصور واردة فى سراج الملوك لابن أبى رندكة الطرطوشى ٠

(١٦) هو صاعد بن الحسن الربيع البغدادى ، وفد من المشرق الى الأندلس زمن هشام ، ثم غادرها ومات بصقلية سنة ٤١٧ هـ (= ١٠٢٦ م) ، راجع عنه ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٣٦ ، ص ٢٣٥ــ٢٣٦ ، والضبى : بغية الملتمس ، رقم ٨٥٣ ، ص ٣٠٦ــ ٣١١ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٦٣٢/١ ، وعبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص : ٥١٩ ، وترجمته ص : ٢٣ ، وما بعدها ، والمقرى : نفح الطيب : ٥٢/٢ ، وما يليها ، وكذلك الفهرست ٠

(١٧) هناك قصة أخرى غير التى أوردها دوزى فى المتن أعلاه لا نرى بأسا من ايرادها هنا ايضاحا وتاكيدا لما ذكره المؤلف ، وهى التى ذكرها عبد الواحد المراكشى فى كتابه المعجب ، ص : ٢٠ــ٢١ ، اذ روى أن أبا العلاء دفع هذا الكتاب ــ حين كمل ــ الى غلام يحمله بين يديه وعبر النهر : نهر قرطبة ، فخانت الغلام قدمه فزل فسقط فى النهر هو والكتاب فقال ابن العريف :

قد غاص البحـــر كتـاب الفصوص وهــكذا كل ثقيـــــل يغوص

فضحك المنصور والحاضرون فلم يرع ذلك صاعدا وقال من فوره مرتجلا :

عاد الى معـــــدنه ، انمـــا توجد فى قعر البحـــار « الفصوص »

وقد وردت الاشارة الى كتاب الفصوص أيضا فى كشف الظنون ، ولقد ثبت أن هذا الكتاب الذى أجمع الأدباء والمؤرخون على فقده لا يزال موجودا ، فقد ذكر السيد هاشم الندوى فى كتابه « تذكرة النوادر من المخطوطات العربية » ص ١٢٩ــ١٣٠ ، المطبوع فى حيدر اباد الدكن بالهند سنة ١٣٧٠ هـ ، وجود نسخة نادرة من هذا الكتاب فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، وذلك نقلا عما جاء فى مجلة « معارف » التى تنشرها دار المصنفين ببلدة أعظم كده » ، ومع ذلك فان الأستاذ ليفى بروفنسال لم يشر فى طبعتــه الفرنسية للكتاب الذى نترجمه الى هذه المسألة الهامة ٠ (المترجم) ٠

(١٨) توجد فى هذا الموضوع قصــة تخـالف ما أورده المؤلف دوزى فى المتن ، وقد ذكرها المراكشى فى المعجب ، ص ٢٠ ، اذ قال ان أبا العلاء هذا دخل يوما على المنصور بن أبى عامر فى مجلس أنسه ، وقد تقدم أنه اتخذ قميصا له من رقاع الخرائط التى كانت تصل اليه فيها الأموال منه ، فلبسه تحت ثيابه ، فلما خلى المجلس ووجد فرصة له أراد التجرد ، وبقى فى القميص المتخذ من الخرائط ، فقال له المنصور « ما هذا يا أبا العلاء ، فقال « « هذه الخرائط التى وصلت الى فيها صلات مولانا اتخذها شعارا » ، فأعجب المنصور ذلك ، وقال : « لك عندى مزيد » ــ (المترجم) ٠

(١٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٣٠٩/٢ ، وترجمته ص ٤٧٩ ٠

(٢٠) المقرى : نفح الطيب ، ٢٧٤/١ ٠

(٢١) المقرى : نفس المرجع والجزء والصفحة ٠

(٢٢) ابن الخطيب ، الاحاطة (مخطوط جاينجوس) ، ورقة ١١٨ ب ٠

(٢٣) المقرى : شرحه ، ص ٢٧٣ ٠

(٢٤) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٣١٠/٢ ، وترجمته ص ٤٨١ ٠

(٢٥) المقرى : نفح الطيب ، ٤٠٦/١ـ٤٠٧ ٠

(٢٦) أورد هاتين القصتين ابن عذارى : البيان المغرب ٣١٠/٢ـ٣١١ ، وترجمته ص ٤٨١ـ٤٨٢ ٠

حواشي الفصل الثالث عشر

(١) راجع النويرى ، ص ٢٢١ .

(٢) ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١٥٩ ، وابن حيان : الذخيرة ، ورقة ٣٠ أ ٣١ ب ، وابن عذارى : البيان المغرب ٢٧/٣ ، وما بعدها ، وقد أورد كل واحد من هؤلاء المؤرخين قصة هذه المؤامرة بالتفصيل .

(٣) ابن الابار . الحلة السيراء ، ص ١٤٩ ، ولنقصان الوثائق يلاحظ القارىء أن المؤلف انتقل سريعا الى عهد المظفر ، على أن المعجب ، ص ٢٧ ، يقول ان أيامه كانت أعيادا فى الخصب والنماء والأمن ودامت سبع سنين الى أن مات ـ (المترجم) .

(٤) كانت هذه الأسرات الأربع هى التى لها الصدارة بين أشراف البلاط ، راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٩٠/٢ ، وترجمته ص ٢٥١ .

(٥) يندرج تحت لفظ « الصقالبة » نصارى شمال اسبانيا الذين كانوا يعملون فى الجيش الاسلامى ، انظر ابن الخطيب ، مادة « حباسة » (مخطوط جيانجوس) ورقة ١٢٤ ب .

(٦) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٧٥ـ١٧٦ .

(٧) راجع ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، ٢ ، ورقة ٨٠ ب ، ١٤٦ أـب ، من مخطوط ليدن ، وراجع بشأن هذه الطائفة كتاب أزين بلاثيوس :
Aben Mesarra y su escuella.

(٨) فيما يتعلق بهذه الافكار راجع :
Gobinean : Trois ans en Asie, p. 347.
حيث يصفها بأنها أفكار هندية خالصة ، وانظر أيضا ترجمة دى سلين لمقدمة ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢ـ٣ ، وحاشية رقم ٣ .

(٩) ابن حزم : الملك والنحل ، ورقة ٢٢٨ أ ـ ٢٣٠ ب .

(١٠) راجع المقرى نفح الطيب ، ٣٨٧/١ ، والحميرى : الروض المعطار (مادة : الزهراء) ، وراجع على الخصوص ابن عذارى : البيان المغرب ، ٦٤/٣ـ٦٥ .

(١١) Dozy : Recherches, 3eme ed., t. I, p. 184-192.

(١٢) أما اليوم فيسمى « شانجيلو » الا أنه فى العصر الذى نحن بصدده كانوا يقولون « شانجول » ، انظر : Dozy : op. cit., t. I. p. 188. راجع أيضا ابن عذارى البيان المغرب ، ٣٨/٣ ، ويذكر ذلك المؤلف أن أم عبد الرحمن كانت تسمى « عبدة بنت شانجة » النصرانى ، ويمكن التأكيد من عدم ثقة المؤلف بصحة نسبه حيث يشير فى صفحة ٤٣ من النص الى أنها كانت نفارية « بشكنسية » .

(١٣) راجع النويرى ، ص ٢٢٩ لاسيما البيان ٦٨/٣ نقلا عن ابن عون الله والرقيق .

(١٤) راجع ابن الاثير : الكامل (طبعة تورنبرج) ٤٩٩/٨ ، Annales, 384-5 وانظر ايضا ما ورد في : Annales Toledono , II, 403. ولم يكن هذا الأسلوب من التسميم بالنادر ، ويذكر البكرى (Description de l'Afrique, p. 121 طبعة دى سلين) مثلا آخر على ذلك ، ويشير ابن عذارى الى أن المظفر مات مسموما بتدبير أخيه على يد احدى نساء الحريم .

(١٥) ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ١٥٠ .

(١٦) أورد ابن بسام في الذخيرة ، ج ١ ورقة ٢٤ ب ، نص هذا العهد (طبعة كلية الآداب ، جامعة القاهرة) وج ١ ، ق ١ ، ص ٨٤ــ٨٦) ، راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٤٤ــ٤٦ ، والنويرى : ص ٢٢١ــ٢٢٤ ، وابن خلدون : العبر (طبعة بولاق) ١٤٨/٤ــ١٤٩ ، والمقرى نفح الطيب ٢٧٧/١ــ٢٧٨ .

ونسوق في هذه الترجمة العربية نص ذلك العهد ليتعرف القارىء على ما جاء به دوزى ، وهذا النص نقلناه عن الذخيرة ، قالت : « هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله ــ أطال الله بقاءه ــ الى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة وأعطى به صفقة يمينه : بيعة تامة بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعل الله له من امامة المسلمين ، وعصب من أمره واتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف ، وخشى ــ أن هجم محتوم ذلك عليه ونزل به مقدوره ، ولم يرفع لهذه الامة علما تأوى اليه ، ولم يوجرها ملجأ تنعطف عليه أن يكون بلقاء الله تعالى مفرطا فيها ، ساهيا عن اداء الحق اليها ، ونظر عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرها ممن يستحق أن يسند الأمر اليه ، ويعول في القيام به عليه ، ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه ورعيه ، بعد اطراح الهوادة والتبرؤ من الهوى ، والتحرى للحق والتزلف الى الله بما يرضيه ، وان قطع الأواصر وأسخط الأقارب ، عالما أن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، موقنا الا وسيلة اليه أذكى من الدين الخالص ، فلم يجد أحد أجدر أن يقلده عهده ، ويفوض اليه أمر الخلافة من بعده ، فى فضل نفسه ، وكرم خيمه وشرف مركبه ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ، ومعرفته واشرافه ، وحزمه وثقافته ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر وفقه الله ··· ··· ··· وأمير المؤمنين ــ أيده الله ــ بما يطالع من مكنون العلم ما وعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولى عهده القحطانى الذى حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص بتحقيق ما أسنده أبو هريرة الى النبى صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه ، « فلما استوت له به الأخبار ، وتقابلت عنه فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهبا ، ولا الى غيره معدلا ، خرج اليه عن تدبير الأمور فى حياته ، وفوض اليه النظر فى أمر الخلافة بعد وفاته » ــ (المترجم) .

(١٧) راجع ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٥٠ ، وانظر Dozy : Recherches, t. I, p. 189.

(١٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٦٥/٣ ، والمقرى : نفح الطيب ، ٢٨٨/١ .

(١٩) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ٤٨ .

(٢٠) فيما يتعلق بهؤلاء القوامس ، راجع : Sandoval : Cinco Reyes, fol. 62 et suiv.

(٢١) أى على المهدى بالله — (المترجم) .

(٢٢) هذا هو لقب شانجول التشريفى الذى اتخذه لنفسه أيام حكمه ، أما ابن عذارى : البيان المغرب ، ٧٢/٣ فيسميه « بالمأبون » .

(٢٣) فى كل ما يتعلق بهذه الحوادث راجع ما أورده النويرى عن هذا فى : Histoire d'Espagne, pp. 227-230. وانظر ايضا ما ورد بالتفصيل فى كل من المقرى : نفح الطيب ، ٢٧٨/١ ، ٢٧٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ٤٩/٣—٧٤ ، حيث يسهب هذا المرجع الأخير فى سرد خبر الحوادث التى صحبت مقدم ابن عبد الجبار وخاتمة شانجول .

حواشي الفصل الرابع عشر

(١) سماه دوزي في الأصل الفرنسي باسم Le Bulveur أما المراجع العربية فتنعته بهذا اللقب الذي اثبتناه في المتن ـ (المترجم) ٠

(٢) كان اسم الوزير الذي يشير اليه دوزي هو : الحسن بن حي ـ (المترجم) ٠

(٣)تكلم ابن حزم عرضا في كتابه طوق الحمامة ، ص ١٢٦ ، عن ثورة هشام الذي تسمى بالرشيد ٠

(٤) أي مبايعة سليمان بن أخي هشام ـ (المترجم) ٠

(٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، ص ٣٢٤ـ٣٢٥ ٠

(٦) ورد اسمه « وادي اره » في الاحاطة لابن الخطيب ، ٢٩/٢ ٠

(٧) أوردته الذخيرة ٣٠/١ ، سطر ١٥ ، و ص ٣١ ، س ١٣ باسم « قنتيش » ٠ ـ (المترجم) ٠

(٨) يوجد هذا العدد في اقدم وأصدق مؤرخ وهو ابن حيان (راجع الذخيرة لابن بسام ١ ، ورقة ٨ ب) ، ويذكر آخرون انهم كانو عشرين الفا ، ويقول غيرهم بل كانوا ستة وثلاثين الفا ٠

(٩) اي انه ركض الى الثغر ـ (اترجم) ٠

(١٠) كان ذلك يوم الأحد ١٤ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ ٠ ـ (المترجم) ٠

(١١) هذا هو اليوم الوارد في المراجع العربية ، لكن يستدل من جدول التوفيقات الالهامية ، ص ٢٠٠ ، أن يوم ٢٢ ربيع الأول كان الأحد ١٣ نوفمبر ـ (المترجم) ٠

(١٢) انظر الادريسي Descript. de Afrique, p. 213. أما هذه المحلة فتعرف اليوم باسم : Castille de Bacher

(١٣) هذا ما جاء في النص الفرنسي ، والأرجح أن يكون النصف الثاني من يونيه ١٠١٠ ، لان أول ذي القعدة (وهو الجمعة) كان يعادله يوم ١٦ يونيو ، راجع جدول السنين في التوفيقات الالهامية ، ص ٢٠٠ ٠ ـ (المترجم) ٠

(١٤) أورد هذا التاريخ النويري في تاريخه ، كما ذكر دوزي انه وارد أيضـا في وثيقة لاتينية مطبوعة في مجموعة Espagna Sagrada, t. XLIII, p. 156.

أما التاريخ الذي ذكرناه ووضعناه بين قوسين والذي لم يذكره المؤلف في الأصل الفرنسي فقد اثبتناه بعـد مراجعـة جـدول السـنين في التوفيقـات الالهاميـة ، ص ٢٠٠ ـ (المترجم) ٠

(١٥) فى « أمواج البحر » كما يقول النويرى ، ونعرف أن الماء يأخذ فى المد حتى يصل الى الموضع الذى جرت فيه المعركة ٠

(١٦) كل الحوادث الواردة فى هذا الفصل مذكورة فى تفصيل كبير فى ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٧٤ـ١٠٠ ، والنويرى ، ص ٢٢٩ـ٢٣١ ، وابن خلدون : العبر ، ٤/١٥٠ـ١٥١ ، وابن حيان فى الذخيرة ، لابن بسام ، جزء ١ ، ورقة ٧ ب ، ٨ أ ـ ب ، ويبدو أن ابن بسام اختصر الموضوع اختصارا شديدا ، وانظر أيضا : عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٢٨ـ٣٠ ، وترجمته ص ٣٢ـ٣٦ ، وابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٥٩ـ١٦٠ ، وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٨/٥٠٠ـ٥٠٢ ، ومقتبسات منه مترجمة بعنوان : Annales, pp. 386-389 والمقرى : نفح الطيب : ١/٣٧٨ ، وانظر أيضا : Rodrigue de Tolede : Hist. Arab., c. 35-38.

أما فيما يتعلق بالتواريخ فيمكن للقارىء مراجعة المقال الوارد فى الطبعة الأولى من كتاب : Dozy : Recherches, t. I, p. 238 et suiv. وأما فيما يتعلق بقبرية « أتوا » أسقف « جيرونا » فانظر :
Espagna Sagrada, t. XLIII, p. 157 et suiv.

حواشي الفصل العاشر عشر

(١) فيما يتعلق بهذه الاخبار والواردة هنا فيما بعد انظر ابن حيان فى الذخيرة ١ - ورقة ٨ ب ، وابن عذارى : البيان المغرب ٣/١٠٠ وما بعدها ، والنويرى : ٢٣١-٢٣٢ ، وابن الاثير : الكامل ٩/١٥٢-١٥٤ ، Annales, p. 408-411. وانظر أيضا : Rodrigue de Tolède, c. 36, 39.

(٢) Annales Compestellani (Esp. Sagr., t. XXIII) ; Chron de Cerdenia (Ibid.).

(٣) المقرى : نفح الطيب ١/٢٥٠ ٠

(٤) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ١٠٦ ، Rodrigue to Tolede, c. 38.

(٥) Rodrigue de Tolede, c. 38.

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب ٣/١١٢ ، وابن الخطيب : الاحاطة (مخطوط جيانجوس) ورقة ١٢٤ ٠

(٧) راجع ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٤١ ، وابن بشكوال : كتاب الصلة ، ص ٢١١ ، رقم ٤٧٠ ، ويذكر الاخير ان اسمه هو ابو عثمان سعيد ، وكان ابوه المنذر ابن سعيد قاضي قرطبة السابق مات يوم الاثنين ٦ شوال ٤٠٣ هـ (٢٠ ابريل ١٠١٣ م) ٠

(٨) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٩٧-٩٨ ٠

(٩) ابن بسام : الذخيرة ١/ورقة ١٦١ ب (= المجلد الثانى من القسم الاول ، من طبعة كلية الآداب جامعة القاهرة ، ص ١٣٠) ، والمقرى : نفح الطيب ١/٥٤٦ ، أما فيما يتعلق بأبى الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الفرضى فقد تناوله بالبحث وذكر تراجمه محمد بن شنب فى دائرة المعارف الاسلامية ، كما طبع كودرا بمدريد سنة ١٨٩١ كتابه المسمى تاريخ علماء الأندلس فى المجلد الثانى من المكتبة العربيـة الاسبانية ٠

(١٠) وذلك انه كان زائر لمكة المكرمة فدخل الكعبة وتعلق بأستارها وسأل الله الشهادة فاستجاب له ، رحمه الله - (المترجم) ٠

(١١) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ١٠٤ ٠

(١٢) راجع ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٦٤ ٠

(١٣) راجع ابن بسام : الذخيرة ، ورقة ١ ب وما بعدها ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٣/١١٢-١١٤ ، والمراكشى : المعجب ، ص ٢٨ وترجمته ص ٣٣-٣٤ ، وابن حزم : طوق الحمامة ، ص ١٠٤ ٠

حواشي الفصل السادس عشر

(١) ابن بسام : الذخيرة ، ١/ورقة ٦ أ ـ ب .

(٢) المقرى : نفح الطيب ١/٢٨٠ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ، ج ٣ ، ورقة ٥ أ .

(٤) نفس المرجع والجزء والورقة .

(٥) Dozy : Abbad., t. I, p. 222.

(٦) المقرى : نفح الطيب ١/١٠٢ .

(٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٣/١٢٠ .

(٨) المقصود بذلك فائق مولى الحكم المستنصر ـ (المترجم) .

(٩) Dozy : Abbad., t. I, p. 214.

(١٠) قارن ابن خلدون العبر ٨/٢ ، ٦١ بما جاء فى ابن حيان : الذخيرة ، ورقة ١٢٣ أ ، وابن عذارى : البيان المغرب ٣/٢٦٨ .

(١١) هذه التفاصيل الهامة واردة فى ابن حيان وابن عذارى وابن الاثير ، أما أبو الفدا ٢٨/٣ فقد نقل عن هذا المؤرخ الأخير .

(١٢) Dozy : Abbad, t. I, p. 222.

(١٣) راجع ابن حزم فى :
Dozy : Catalogue des Manuscrits Arabes de Lyde, t. I, 225.

(١٤) راجع المقرى ١/٣١٥ ، كما توجد نفس الالفاظ فى ابن حيان .

(١٥) فيما يتعلق بالتاريخ العربى الذى لم يذكره المؤلف فى النص الفرنسى فقد رجعنا فى تحقيقه الى التوفيقات الالهامية ، ص ٢٠٤ ، حيث جاء فيها أن أول شوال كان الأحد ٣ مارس ١٠١٧ . ـ (المترجم) .

(١٦) Dazy : op. cit., loc. cit.

(١٧) أورد دوزى فى الأصل الفرنسى هذا الخبر بصيغة القائية لكنا لم نعثر على هذه الصورة فوضعنا ما بين القوسين من المراجع العربية وهو أقرب ما يكون الى ما يريده المؤلف ـ (المترجم) .

(١٨) يستفاد من جدول السنين فى التوفيقات الالهامية ، ص ٢٠٤ ، أن أول ذى القعدة كان يوم الجمعة ٢١ مارس ١٠١٨ ، وأول ذى الحجة ٤٠٨ هو الاحد الخامس من ابريل . وعلى هذا يكون هذا الاستعراض تم يوم الجمعة ٢٧ ذى القعدة .

(١٩) يستدل مما ورد فى الكتب العربية التى تشير اليه انهم كانوا ثلاثة اخوة =

= اثنان هما المذكوران بالمتن أما الثالث فاسمه ادريس وكان حاكم مالقة . ـ (المترجم).

(٢٠) سورة الكافرون ، ١٠٩/١ـ٦ .

(٢١) قرآن كريم ، سورة التكاثر ، آية ١ـ٨ .

(٢٢) راجع ابن حيان ، ورقة ١٢٨ ، والمراكشي : المعجب ، ص ٥٤ـ٥٠ ، ونفح الطيب ٣١٦/١ ، ٣١٨ .

(٢٣) التاريخ الهجرى الوارد فى ذخيرة ابن بسام (طبعة كلية الاداب ، جامعة القاهرة) ، ص ١٣ ، حاشية رقم ١١ من المجلد الثاني للقسم الأول ، هو ١٨ ربيع الاخر سنة ٤١٢ ، أما ما وضعناه بين الحاصرتين فقد رجعنا فيه الى جدول سنة ٤١٢ فى التوفيقات الالهامية . ـ (المترجم) .

(٢٤) رجعنا فى التاريخ العربى الى التوفيقات الالهامية ، جدول سنة ٤١٤ هـ ـ (المترجم) .

(٢٥) يعتقد المؤلف أن خير ما يمكن الرجوع اليه هو رواية أحد شهود العيان التى نقلها المقرى فى نفح الطيب والتى ترجح ما ورد فى المعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٢٧ وترجمته ص ٤٤ـ٤٥ .

حواشى الفصل السابع عشر

(١) راجع ابن الآبار : الحلة السيراء ، ص ١٦٥-١٦٦ ، وقد استعمل مخطوط ابن بسام : الذخيرة ج ١ ، ورقة ١١ أ-١ ب فى تصحيح بعض أخطاء النص (وهذا يعادل ص ٤٠-٤١ من الذخيرة ، طبعة كلية الآداب جامعة القاهرة) .

(٢) راجع المقرى : نفح الطيب ، ٢٨٥/١ ، ويلاحظ أن هذه الأبيات تختلف عن الأبيات الواردة فى ابن بسام : الذخيرة ، ورقة ١١ ب ، ١٢ أ .

أما فيما يتعلق بابن حزم فراجع ما كتبه عنه فان أرندونك فى الدائرة ، وكذلك الجزء الأول من سلسلة الدراسات التى كان يصدرها الأستاذ ميخائيل أزين بلاثيوس عن :
Abenhazem de Cordoba y su historia critica de los ideas religiosos.

(٣) Dozy : Catalogue des Manuscrits arabes de la bibliotheque de Leyde, t. I, p. 227.

(٤) ابن حزم : الفصل ، ٢٢٧/٢ .

(٥) ابن حزم ، نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٦) Dozy : Catalogue ..., t. I, p. 225, 230.

(٧) طوق الحمامة لابن حزم (طبعة بيروت) ص ١٠٢ - ١٠٥ .

(٨) يوافق ذلك يوم ٢١ يونيو سنة ١٠١٢ - (المترجم) .

(٩) يوافق ذلك يوم ١٣ يوليو سنة ١٠١٣ م ، راجع التوفيقات الالهامية ، ص ٢٠٢ - (المترجم) .

(١٠) يعادل ذلك شهر فبراير ١٠١٩ م - (المترجم)

(١١) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ١٠٢-١٠٥ .

حواشى الفصل الثامن عشر

(١) « الدائرة » لفظ استعمله ابن بسام فى الذخيرة نقلا عن ابن حيان ويقصد به « الحراس » .

(٢) متقلد المدينة الذى يشير اليه المؤلف هو أحمد بن بسيل ـ (المترجم) .

(٣) يستفاد من جدول السنين فى التوفيقات الالهامية سنة ٤١٤ ، ان يوم ١٨ يناير ١٠٢٤ هذا كان يعادل يوم السبت ٤ ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ ـ (المترجم) .

(٤) كان هذا المخنوق هو الذى عرفناه من قبل باسم محمد العراقى ـ (المترجم) .

(٥) ابن بسام . الذخيرة ، جـ ١ ، ورقة ٨٢ ب .

(٦) ويعادله شهر ربيع الأول من سنة ٤١٦ هـ ، راجع التوفيقات الالهامية ، جدول السنين ص ٢٠٨ ـ (المترجم) .

(٧) يقصد بذلك يحيى بن حمود ـ (المترجم) .

(٨) وتعرف هذه القرية بقرية « اقليج » بفتح الهمزة وسكون القاف وكسر اللام بعدها ياء مثناة تحتانية ، وآخرها حاء مهملة ـ (المترجم) .

(٩) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن حيان فى الذخيرة لابن بسام جزء ١ ، ورقة ٩ ب ١١ أ ، ١١٤ أ ـ ١٥٥ أ ـ لا سيما ابن عذارى : البيان المغرب ٣/١٣٥ـ١٤٣ ، والكامل لابن الاثير ٩/١٩٢ـ١٩٤. Annales du Maghreb et d'Espagne, 428-430. وعبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٨ـ٤٠ ، وترجمته ص ٤٦ـ٤٩ ، والمقرى : نفح الطيب ١/٢١٩ـ٢٢٠ ، Rodrigue de Tolede, c. 44.

(١٠) صاحب هذا الرأى هو الحميدى الذى نقل عنه بقية المؤرخين المسلمين .

(١١) اسم هذا القائد المغربى الذى لم يذكره دوزى هو أبو جعفر أحمد بن موسى ـ (المترجم) .

(١٢) تشير التوفيقات الالهامية ، ص ٢٠٨ الى أن رمضان سنة ٤١٦ يطابق الفترة الممتدة من يوم ٢٦ أكتوبر ١٠٣٥ حتى ٢٣ نوفمبر ، ومن ثم يمكن أن تكون هذه الأحداث جرت فى رمضان أو شوال سنة ٤١٦ هـ ـ (المترجم) .

(١٣) يعادل ربيع الأول سنة ٤١٧ هـ ـ (المترجم) .

(١٤) يعادله يوم الاثنين ٢٢ جمادى الأولى سنة ٤١٧ ، راجع فى تحقيق ذلك التاريخ التوفيقات الالهامية ص ٢٠٩ ـ (المترجم) .

(١٥) يعادله شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ هـ ـ (المترجم) ٠

(١٦) وفى قول آخر « المعتمد » ٠

(١٧) عبد الواحد المراكشى . المعجب ، ص ٤٠ـ٤١ ، وترجمته ص ٤٩ ٠

(١٨) يعادله بالتاريخ العربى يوم الخميس ٨ ذى الحجة سنة ٤٢٠ ، انظر التوفيقات الالهامية ، ص ٢١٠ ـ المترجم ٠

(١٩) يعادل جمادى الثانية سنة ٤٢١هـ ٠ ـ (المترجم) ٠

(٢٠) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ١٩٩/٩ ، وانظر ترجمته لدوزى بعنوان :
Annales du Maghreb et d'Espagne, p. 435-436.

(٢١) انظر ابن بسام : الذخيرة ج ١٥٧/١ آ ٠

(٢٢) ابن الاثير : الكامل ١٩٩/٩ ٠ Annales du Magreb, p. 436.

الفهـــــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧٠٦/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3796 — 0

هذا هو الجزء الثانى من الترجمة العربية من تاريخ الإسلام والمسلمين فى الأندلس للمستشرق الهولندى «رينهرت دوزى» ، يتضمن أحداث فترة انتقال هامة فى مسيرة الحضارة والإسلام هناك ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عديد من اللغات الأوربية ، وكانت أمنية القارئ العربى أن يطلع عليه فى لغة الضاد حتى نهض بذلك أستاذ جليل ومؤرخ حجة فى تاريخ الإسلام والعصور الوسطى هو الدكتور حسن حبشى فترجمه كله ترجمة اتسمت بالدقة وإشراق الأسلوب وصحة التعليقات.

ويسر هيئة الكتاب أن تقدم هذه الترجمة الغربية لطلاب التاريخ بعامة ، والأندلسى بخاصة كإضافة جديدة فى مجال الدراسات التاريخية الصحيحة ، ومساهمة منها فى حركة التنوير.

تصميم الغلاف:

علياء أبوشادى

٤٥٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب